

ألان سيليتو

الجنرال

رواية

ترجمة: عبد العزيز عروس

تقديم: ممدوح عدوان

الجنرال

الكاتب الإنكليزي آلان سيليتو

الجنرال

رواية

ترجمة عبد العزيز عروس

تقديم: ممدوح عدوان

DL

الجنرال

الكاتب الانكليزي آلان سيليتو

ترجمة عبد العزيز عروس

تقديم: ممدوح عدوان

الناشر: دار كنعان

للدراسات والنشر والتوزيع

دمشق – ص.ب 443 هاتف 2134433

الطبعة الأولى: 2000 / **1000**

التنفيذ : دار كنعان (دمشق)

إخراج: لبنى حمد

تصميم الغلاف: م. جمال الأبطح

ملاحظة المؤلف :

ليس للشرق والغرب في هذه
الرواية أية صلة بالشرق
والغرب حسب ما يعنيانه في
الأزمنة الحالية

السارق من السارق يعيد توزيع الثروة

تقديم: ممدوح عدوان

قدمان تركضان بسرعة شديدة. وهما مرة قدما شاب. ومرة قدما فتى صغير. ثم يأتي الصوت ليقول: إنني عداء المسافات الطويلة. لا أحد يستطيع أن يسبقني. ومع هذا الكلام فتى (سميث) يركض بملابس الرياضة. ويتابع: لقد قضيت طفولتي كلها وأنا أركض... أمام البوليس. وهنا نرى ولداً يركض مذعوراً أمام البوليس ليختفي في مكان ما.

البطل ولد من أولاد الأزقة بكل ما تحمله الكلمة من معنى. وهو، مع زملائه، النموذج الأمثل لما نعنيه بـ «رفاق السوء». إنهم مجموعة أولاد فقراء يعيشون على السرقة والنشل. وسميث - الاسم الشائع لأي إنكليزي - واحد منهم.

ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد. إن لهؤلاء الأولاد، أو لسميث على الأقل، فلسفة خاصة: المجتمع الرأسمالي الغربي قائم على السرقة بأشكال وأنواع مختلفة. القانون موجود، حسب رأيهم، لتنظيم سرقة الأقوياء للضعفاء، والأغنياء للفقراء. وأي عمل تقوم به لا يساهم إلا في تقوية نظام السرقة. ولذا فإن الأمر الطبيعي هو أن تكون لصاً. أو على

الأقل أن تكون عاطلاً عن العمل لكي لا تزيد أرباحهم أو تساعدهم على سرقتك وسرقة غيرك.

هكذا تبدأ قصة من أجمل وأفضل القصص التي كتبت في الستينات. وكان اسمها «وحدة عدّاء المسافات الطويلة» وهي للكاتب الإنكليزي آلان سيليتو.

وربما كان هذاالرأي الذي يتبناه بطل القصة، وبالتالي الكاتب، هو الأساس الذي قامت عليه «فلسفة» الهيبيز والحركة السياسية التي انبثقت عنها في الستينات «اليبيز» - حزب الشباب العالمي - لمعارضة حرب فيتنام بشكل خاص. وقد صدر في الستينات عن أحد قادتها جيري روبينز كتاب «دو إت: إفعلها»، وتمت ترجمته عن دار الآداب بعنوان «هيا إلى الثورة».

ولا بأس من إكمال القصة التي بدأنا بها. إذ يتم القبض على سميث. ويوضع في مصح أو إصلاحية لمعالجة الأولاد الناشزين. وهناك يكتشفون مهارته في الركض. فيتشجعون لإقامة مباريات رياضية يفوزون بها. ويصبح سميث «سجيناً متميزاً». يثير أحقاد زملائه المساجين وحسدهم بالدلال الذي يتمتع به. ويُعامل تماماً كما يعامل الطير المروَّض. يتم قص جناحيه حتى يألف العش أو السجن. ثم تطلق له الحرية فيطير ويحلق في الأجواء ليعود بملء إرادته إلى قفصه. وهكذا صاروا يفتحون باب السجن لسميث لكي يخرج للتدرب على الركض في الجبال والبراري ويعود في المساء إلى سجنه.

وتتقرر إقامة تصفية في الركض لرياضيي الإصلاحيات. وينطلق سميث فيسبق الجميع مسافة طويلة جداً. وفيما هو يركض تتداعى هذه الأفكار، التي هي القصة أو الفيلم، إلى ذهنه. ويصل إلى نتيجة مفادها أنه منتصر الآن في مباراة الركض. ولكن المنتصر الحقيقي سيكون مدير،

أو إدارة، الإصلاحية التي هي سجن. يعني أنه بفوزه سيعزز سطوة السجن. ويجمّل صورة السجان. وهذا متناقض مع المبدأ الذي اعتنقه منذ صغره وهو أن لا يعمل شيئاً يؤدي إلى زيادة مكاسب اللصوص.

وهكذا يصل إلى ما قبل النهاية بعشرة أمتار ويتوقف عن الركض. ويكاد المشجعون والزملاء والإداريون أن يشقوا حناجرهم تحميساً وتشجيعاً دون فائدة. يظل سميث واقفاً حتى يصل إليه المتسابقون الآخرون الذين لا يصدقون أنفسهم. ويسبقه الجميع.

وينتهي الفيلم (القصة) بسميث الذي عاد سجيناً عادياً دون أية امتيازات، وولداً ميؤوساً منه لا يمكن إصلاحه.

ربما استطاع بعض القراء أن يتذكروا هذا الفيلم. ومن المؤسف أن كاتباً مثل آلان سيليتو لم تتم ترجمته إلى العربية ولا نعرف عنه إلا القليل ومن خلال الأفلام السينمائية.

والفيلم الآخر المأخوذ عن الرواية الأخرى التي لفتت الانتباه بجدية إلى آلان سليتو هو فيلم ورواية «مساء السبت صباح الأحد» (وهذا يعني كأن نقول عندنا مساء الخميس صباح الجمعة، لأن الموضوع يتعلق بعطلة نهاية الأسبوع)، ومن خلال الرواية التي كرسته الكاتب الأول المعبر عن الطبقات المسحوقة في المجتمعات الغربية والإنكليزية تحديداً. (وقد تمت ترجمة هذه الرواية مؤخراً إلى العربية). وهي تكاد تكون الوجه الآخر لقصة «وحدة عداء المسافات الطويلة». فهي، كما يقول عنها كاتبها، تناقش «هل إن علينا جميعاً أن نتأقلم مع ما لا نحب؟»

ولكن قبل مغادرة هذه النقطة لا بأس من إيراد فقرة من مقدمته لإحدى الطبعات العديدة لهذه الرواية، حيث يتحدث عن فنه الروائي، وعن علاقته بالكتابة:

«ليس لدي موضوع في ذهني إلا متعة الكتابة، وعرق (جهد)

الكتابة بوضوح وصدق. العمل على محاولة تصوير الناس العاديين كما عرفتهم، والكتابة عنهم بطريقة يستطيعون بها أن يتعرفوا على أنفسهم فيها .... إنني مستغرق في بناء رواياتي... حتى أستطيع أن أكون قارئاً لها بالمعنى النهائي».

والرواية الأخرى التي نقدمها الآن هي رواية «**الجنرال**» التي قام صديق طفولتي وابن بلدي المرحوم عبد العزيز عروس بترجمتها قبل وفاته. فهي رواية شديدة الذكاء. إذ تروي قصة فرقة موسيقية ذاهبة للترفيه عن الجنود في الجبهة أيام الحرب. وفي الليل وقبل وصول الفرقة إلى حيث تقصد يتبدل الموقف العسكري فيجد الموسيقيون أنفسهم بين صفوف الأعداء. إنهم أغرب أسرى في تاريخ الحروب.

لو كانوا قد أُسروا في وقت آخر لهان الأمر. يوضعون في السجون. ولكنهم أسرى في الجبهة والحرب قائمة. لا يوجد حتى سجن لوضعهم فيه. الحل الوحيد أمام الجنرال قائد الجبهة هو أن يعدمهم. إنه كان قد هيأ نفسه منذ بدء الحرب لاحتمالات عديدة. ولكن طبعاً لم يكن بينها أن يقع بين يديه مساجين ليس معهم سوى الآلات الموسيقية. ويستشير قيادته فتقول له: «إعدمهم».

الرواية كلها صراع من نوع ساحر بين قائد الأوركسترا وقائد الجبهة. إنه صراع بين طرفين لا يفهم أحدهما أي شيء عن عمل الآخر ولا يستوعبه. هذا يعرف أن الآخر يحارب. والآخر يعرف أن هذا يعزف الموسيقى. ولكن ما جدوى الموسيقى؟ ويكون الجواب: وما جدوى الحرب؟

ويستمر الحوار الغريب بين الرجلين (من خلال محاولة إقناع الفنان بالعزف لجنود الأعداء) حتى تصل الشفافية أن يقول الجنرال: إن الحرب أيضاً فن راق. وإدارة الجبهة مثل قيادة الفرقة السمفونية. أنت كما قلت لي تعرف أن الآلة الفلانية في اللحظة المناسبة ستنطلق أو

ستساهم في العزف. وأنا أعرف أنه في اللحظة المناسبة سينطلق المدفع الفلاني أو الدبابة الفلانية أو تتحرك الكتيبة الفلانية. أنا أيضاً أسمع سمفونية من هنا وأدير أوركسترا.

ولكن الفارق هو أن الجنرال يقود سمفونية الموت والفنان يقود سمفونية الحياة.

وحين تصل الرواية إلى نهايتها يكون الجنرال قد فقد إيمانه بما يفعل. وليس فقط أنه يرفض القيام بالهجوم المطلوب منه أو أن ينفذ حكم الإعدام بالفنان وأعضاء فرقته بل إنه، مثل سميث عدّاء المسافات الطويلة، يرفض إكمال عمله في الجبهة.

نشر سيليتو مؤخراً روايته «الحصار الثلجي» - التي تحكي لك أكثر مما تريد أن تعرف عن الثلج - وقد قال عنها أحد النقاد: «إذا كان هناك من سيقودك حافياً فوق الجمر وتحت أظافر قدميك قطع من الزجاج فإن نثر سيليتو النيّق هو الذي يفعل ذلك».

لقد شُبّه آلان سيليتو بجون أوزبورن، الذي اعتبرت مسرحيته «انظر وراءك في غضب» صوت جيل أوربي غاضب. وصار يؤرَّخ للمسرح وللحركة الأدبية الأوربية بتعابير من نوع «الغضب - والمقصود {أنظر وراءك في غضب}- وما بعده». كما شبهت واقعيته وسبره لحياة الطبقات الدنيا بتشارلز ديكنز.

وقد نشر منذ عدة أعوام سيرته الذاتية الغريبة بعنوان «الحياة في درع». والعنوان، كما هو واضح يوحي بأن الإنسان مقاتل دائم ومسلح بدرع ؛ ولكنه يوحي أيضاً أن الإنسان كالسلحفاة مضطر إلى العيش في درع. ولكن هذه السيرة تساعد على فهم تلك الأعمال الإبداعية العظيمة التي قدمها سيليتو للمكتبة الأدبية. فقد نشر حتى الآن أربعين كتاباً بين الشعر والقصص القصيرة والروايات.

ومن الآراء الطريفة التي يوزعها في كتابه هذا: (يعتبرونني واحداً من «الشباب الغاضب». لكنني أرفض ذلك. وإن كان هناك من يعتبرني شاباً غاضباً فتلك مشكلته هو).

وحتى كونه قد تربى على يد أب قاس «يضرب الأم» فإن ذلك قد علمه أنه «حين يأخذ العنف محل الرباط العائلي فإنه يكون مغفوراً، كما أنه يعلمك كيف تتجنبه دائماً». ويعترف ببساطة أن هذه الأم كانت تذهب متبرجة للبغاء في النوادي الليلية وتعود بالمال ويضربها الأب. أما حياته الفقيرة بين الفقراء فقد علمته مبدأ عظيماً وهو: «لن تأكل إذا لم تشتغل».

ويقول: أنا لا أثق بأحد لأنني أنا أيضاً لص. لماذا لص؟ «لأنك إذا كنت محتاجاً فمن المنطقي والمشروع أن تسرق. وهذه ليست مسألة انفعالية أو عصبية بل هي مسألة مبدأ اقتصادي. إذ أن الثروات لم توزع (في بريطانيا) بشكل عادل. ونحن لا نسرق بل نعيد توزيع الثروة. إنك تزيد شغلك لكي تكسب أكثر. ولكن لصوص الضرائب يسرقونك».

تربى سيليتو في عائلة فقيرة جداً. أمه وضعته في مدرسة للمعاقين عقلياً لأنها سمعت أنهم يقدمون في هذه المدرسة السندوتشات والحساء مجاناً. وقد ترك المدرسة وعمره أربعة عشر عاماً.

ظل ثماني سنوات وهو يواجه الرفض من قبل دور النشر. ولم يدفعه هذا إلى الحقد على الناشرين بل يقول: «كنت أعرف أن هناك كتّاباً جيدين يُنشر لهم. وعلي أن أقرأهم. وإذا تابعت المحاولة فسأكون واحداً منهم».

ولد وعاش تحت خط الدّين، كما يقول. والسبب أنه حتى الدين في إنكلترا خاضع للاستغلال. وكان أول صدام معه هو الترجمة المعروفة للإنجيل باسم «كنغ جيمس / الملك جيمس»: إنها ترجمة مبسطة لتقريب

الإنجيل من أذهان الصغار والبسطاء. ولكن سيليتو يصرخ: «الأغبياء. يشوهون هذه اللغة الجميلة بحجة أن الصغار لا يفهمونها. والحقيقة أنهم يرون أننا لا نستحق هذه اللغة الراقية».

يعلق سيليتو في غرفته صورة ديك رومي. وتبريره أنك إذا «حككت الديك الرومي فستجد تحته رجلاً إنكليزياً».

أما لماذا السيرة الذاتية؟ فيقول: «طوال أربعين كتاباً أنت تكذب على الناس في كتابتك وتجهد نفسك لإقناعهم بأن هذه هي الحقيقة. الآن تكتب كتاباً قائماً على الحقائق الفعلية وتجهد نفسك لكي يصدقوك ولا يعتبروك كاذباً. ولكن والحمد لله كانت حياتي مثل رواية. ولذلك انتهت سيرتي الذاتية عند الثالثة والثلاثين من العمر (عمر المسيح)».

ونقتطف الآن بعض آرائه الواردة في هذه السيرة:

الطبقات: أنا من الطبقة العاملة والدليل هو أنني ألبس السموكنغ للسهرة.

الاشتراكية: إنها خديعة الطبقة الوسطى للإبقاء على العمال حيث هم.

الأبوة: إنني أشتري للصغير كل ما لم أحصل عليه في صغري وألعب معه بالألعاب التي لم يتح لي أن ألعب بها.

أبناء الجيل الجديد: مثلما تصورتهم. يبحثون ستة أشهر عن عمل دون جدوى. وأخيراً يقررون أن الجلوس أمام التلفزيون مثل البحث عن عمل. وإذا جاعوا خرجوا للسرقة. وإذا ظلت الحياة مملة يمكن التفكير في بعض الحرائق.

أهم الأشياء في الحياة هي الثوم والفودكا والتبغ.

العمر: لقد استيقظت ذلك الصباح فأحسست بسعادة فائقة لأنني لم أمت شاباً.

ليس هناك شيء اسمه المستقبل. هناك تكرار للأيام ذاتها. «فلقد عشت متنقلاً من كتاب إلى آخر. وهذه ليست حياة. ولقد كان خياري منذ البداية: عش أو اشتغل. واخترت الشغل. مع فارق أنني لا أحس أنه شغل». حين تكتب فأنت على عمق ألفي قدم تحت الأرض. ومعك مصباح المناجم الصغير. قد تسقط القنبلة الذرية وقد يذهب أولادك إلى الطبيب النفسي. ولكنك تظل مصراً على إنهاء الكتاب. وإن سألت: لماذا؟ يكون الجواب: لتخفيف الألم الذي يكاد يقتلني من هذا العالم إن لم أكتب.

القدر؟ هو الحظ أو الله أو القدر. سمه ما شئت. الوراثة هي الأساس. والظروف تتكرر وتتفاقم فقط. إن تقبّل القدر مصدر راحة للذين لم يعرفوا كيف يتدينون.

والمفاجئ هو أن أفضل الحكايات لديه مأخوذة من كتابات (مولانا جلال الدين الرومي). ولكنه لا يشير إلى مصدرها: «رجل في السوق في بغداد». يأتيه شخص ويقول له إن الموت قادم إليه. فيقرر الهرب إلى «سمارة» عند صهره. وبعد سفر ثلاثة أيام في الصحراء يلتقي برجل غريب. فيسأل الغريب: إلى أين أنت ذاهب؟ ويجيب الغريب: «إلى سمارة. لدي موعد هناك». ويسأله من جديد: «ومن أنت؟» فيجيب الغريب: «أنا الموت». ويقول سيليتو: أنا أكره هذه القصة. ولكن زوجته لديها كتاب من تأليفها واسمه: «موعد في سمارة».

شعاره: كل شيء مقدر. ولكن الإنسان يملك حرية الاختيار. وهناك الحكمة الأخرى: كل ما تختاره مقدر عليك.

وعلى الرغم من أنه ينفي دائماً أنه يكتب سيرته الذاتية في

رواياته، إلا أن بعض أبطاله يعكسون آراءه بشكل واضح. ولنقرأ هذا الحوار من روايته «موت وليم بوسترز»:

❖ لاشيء في هذه البلاد يمكن أن تؤمن به. لم يبق شيء. ولا أي شيء.

– مهلاً، قال هاري، هذا لأنه ليس لديك أنت نفسك ما تؤمن به.

❖ ربما كنت على حق. سيكون علي أن أعثر عليه إذن. لاشيء في هذه البلاد يمكن أن يساعدني على ذلك. وتلك هي الحقيقة.

– لا تستطيع أن تدين بلاداً بأكملها.

❖ لا ... أشعر أنني مثل نملة على أسطوانة غراموفون ولا تستطيع التخلص.



تبقى كلمة لا بد منها عن المترجم.

كان عبد العزيز عروس، في مرحلة الدراسة الإعدادية، أكثرنا تفوقاً في اللغة الإنكليزية. وعلى الرغم من أنه ينتمي إلى أسرة حسنة الحال، مادياً، في مصياف إلا أنه عاش حياة لا تخلو من البؤس النفسي الذي عاشه آلان سيليتو.

لقد مارس التعليم، وهو ما يزال طالباً في الجامعة (كلية الآداب / قسم اللغة الإنكليزية) في مدرسة أبي ذر الغفاري في مصياف في أوائل الستينات. ثم عاد إلى التعليم بعد التخرج. وبحكم عملي في العاصمة وعمله في مصياف لم نكن نلتقي كثيراً. لكننا ظللنا نعتبر أننا أصدقاء. وكلما التقينا غمرنا إحساس محاربين متقاعدين في معتزل للمحاربين

القدماء. لقد تقدمنا في العمر، وتزوجنا وأنجبنا أولاداً وعلمناهم، ولكن بهجة غامضة، كانت موجودة في الطفولة ونحن نتنافس على مقاعد الدراسة، قد فُقدت. وزادت المرارة حين علمت أن عبد العزيز قد سافر إلى لندن.وهناك وقع له حادث أدى إلى قطع ساقه.

حين التقيت به بعد ذلك الحادث زال إحساس المحاربين القديمين وحل محله إحساس مشوهي الحرب. كل منا كان يحمل تشوهاً ما. ندوب الحياة صارت أكثر عمقاً. وزاد الطين بلة عند عبد العزيز أنه بسبب إصابته تلك اضطر إلى ترك التعليم والاعتزال في العمل الإداري. ولكن كان من الواضح أن اعتزالاً أعمق يغمر روحه.

تحدثنا ذات يوم عن اللغة والترجمة، فعبر بحزن عن شوقه إلى العودة للتعامل معها. إذا كان التعليم غير متاح (إلا لأولاده وبعض الدروس الخاصة) فلم لا تكون الترجمة؟ القراءة وحدها غير كافية.

وطلب مني أن أرشح له عملاً يترجمه. وكنت متحمساً للخروج بالترجمة من دائرة الأدب الأوربي والأمريكي. فاقترحت عليه رواية أفريقية سياسية لليجيسون تايرا بعنوان «المعتقل». والعنوان مزدوج الإيحاء. فهو الشخص المعتقل. وهو مكان احتجاز المعتقلين. والمكان (المعتقل)، في الرواية، يصبح الوطن كله إن لم تكن أفريقيا كلها.

وأحسست بفرحة الطفولة تعود إليه وهو يرى الكتاب منشوراً. لكنه بعد هدأة الانفعال الفرح قال لي إنه يريد تحدياً أكبر. لا يريد أن يترجم عملاً مترجماً إلى اللغة الإنكليزية. بل يريد كتاباً كاتبه إنكليزي. المعركة التي يريد أن يخوضها هي مع اللغة ذاتها.

وكان أن اقترحت عليه العمل الذي كنت أشتهي أن أقوم بترجمته منذ سنوات. وهو هذه الرواية. وتشاء الظروف أن ينهي ترجمتها وتتعثر

ظـروف النـاشـر الـذي كـان سـيطبعها . فمـات عبـد العزيـز قبـل أن يراهـا مطبوعة .

واليوم إذ تنشرها دار (**كنعان**) فإنها تساعدني على تكريم متـأخر لصديق راحل، وعلى تقديم هدية لأبنائه وزوجته وأهله ومحبيه.

ولكن هذا كله لا يعني أننا لا نعتز بتقديم رواية ذات أهميـة كبيرة إلى القارئ وتعريفه بعلم من أعلام أدب الحياة والواقع أهملته الترجمـات التي كانت تعمل حسب الموضة.

الفصل الأول

سارت سكة الحديد بالقطار أثناء الليل بتثاقل وبطء على وقع المكابس التي تدق دقات إيقاعية موزونة، وبطنه البني الذي يشبه بطن أم الأربع والأربعين يرسل من ساعة لساعة رموزاً لا تختلف في شيء عن رموز (البرقيات) إلى أعماق الغابات السوداء أو السهول المزروعة المتماوجة، كانت ضرباته تتغير أحياناً في آخرها:

در. در. در. دن، در. در. در. دن، در. در. در. داك، در. در. در. داك. خفَّت الفرقعة تحت العجلات فتبين أن القطار كان يعبر جسراً، وظهر من النافذة نهر عريض يتلوى مبتعداً تحت ضوء القمر. وعندما عاد غناء عجلاته إلى التثاقل والاطراد، تبين أنه لا يزال في الغابة، وألسنة اللهب البرتقالية المتصاعدة من مدخنته تشبه رقائق النشارة، مما أسبغ عليه صورة منشار صغير يحفر أخدوداً في ظلمة الأرض.

تناول إيفارت Evart دورق القهوة الباردة المدسوس في جيب المقعد الخشبي، وفتح الكوب ـ السدادة ثم صب جرعة يحتسيها.

لقد أمضى الركاب يومين كاملين في القطار ولم يكن أي منهم يعرف إلى أية بلدة أو مدينة يتجه، كما لم يكن أي منهم يدرك بصورة محسوسة سوى أنه عند استيقاظه في كل صباح كانت أشعة الشمس الخريفية الدافئة المشرقة تدغدغ عربة المحرك وتداعبها.

أخذ إيفارت، وهو يمسك الكوب الفارغ الذي ساعدت محتوياته دون أدنى ريب على غسل غبار التعب والسفر في حنجرته، يسترجع في ذاكرته مراحل السفر التي قطعوها حتى الآن. المرفأ الشمالي كان مكتظاً بالسفن إلى درجة أن شكلت ضاحية سكنية معيشية متصلة بالمدينة نفسها، تنتظمها دروب ضيقة متشابكة فوق الماء، تفشى جو حقيقي من الفوضى على المرفأ، مما جعل نقل الرجال والأمتعة إلى الشاطئ يستغرق عدة ساعات.

نقلهم قطار معدٌّ لحملهم مسافة أربعمئة ميل عبر منطقة ريفية موحشة ومقفرة، ثم بين سلسلتين من التلال ذات القمم غير المرتفعة والمرقوشة بالغابات تظهر عليها ندب سوداء لقرى فنيت ولم تعد للحياة بعد؛ ثم عبر مستنقعات ملأى بنبات البردى الأخضر ذات أشكال غير متميزة من المياه الزرقاء التي تمتد مسافات بعيدة باتجاه الغرب؛ ثم نقلهم القطار في نهاية المطاف عبر منطقة ذات تربة خصيبة ومحروثة جيداً، الأمر الذي يجعل الحياة عليها معقولة وطبيعية أكثر من سواها.

خلال ثلاثين ساعة وصل القطار العاصمة، وهي مدينة من مليون منزل بضواحيها التي كانت تشبه طوقاً من وشاح أسود، بعد أن تم نسفها وخنقها في الحصار الماحق السريع الذي سبق الاستيلاء عليها. ثم تحركوا من هناك باتجاه الغرب على خطوط حديدية جرى ترميمها مؤخراً، فتعرضوا للمنغصات مرات عديدة أثناء الليل عندما كان القطار يتحول عن خطه الرئيسي إلى خطوط فرعية، حيث تُربط القاطرات به

أو تفكّ عنه، ويتوقف ثم ينطلق لغير ما سبب واضح. أخذت محطات القطار تزداد اقتراباً من بعضها، كما أخذت الأفران العالية تتقد وتتوهج باللونين الأخضر والبرتقالي وهي تواجه السماء. وفي أثناء تقدمهم البطيء عبر المنطقة الصناعية، راح إيفارت يتذكر كتبه عن مادة الجغرافية، ذكريات مدرسية قديمة باهتة عن حقائق علمية غامضة زرعها في رأسه معلمون انتخبوها من كتب كان مؤلفوها قد نقلوها عن كتب أخرى بصياغات جديدة: حقائق عن مقدار هائل من أراضي القمح الشاسعة المشغولة والمستثمرة بصورة آلية، وعن مئة ألف مدينة أظلمت واسودّ لونها بسبب صناعة الجرارات المشتركة. تذكر معلومات عن مناطق كاملة، تمتاز بالالتواءات النهرية المنجمية أو السلاسل الغنية من الناحية الجيولوجية، مناطق تم تشييدها فيما وراء أقصى الأراضي الأوربية الخصيبة المدلَّلة، ومعلومات عن مناطق مغطاة بالصخور تعج بالمداخن من أقصاها إلى أقصاها، بمثابة حزام من عشرات الأحزمة التي كان لا بد من قهرها وإخضاعها، وذلك ليس لأن فريقين متماثلين من العالم يحملان صوراً فكرية متناظرة عن العظمة ويعللان النفس بتحقيقها فحسب، وإنما لأن كلاً منهما دأب على استخدام وسائل مختلفة للوصول إليها.

عندما أسند إيفارت وجهه الشاحب إلى زجاج نافذة العربة شاهد نوراً قرنفلي اللون في جهة الغرب. عندها قال لنفسه متفكراً: لو سطعت شمس حمراء دافئة كل صباح ولمدة ألف سنة متوالية، فإن ذلك لن يكون كافياً لتعليل هذه الحرب. تراءى السهل فسيحاً لا تحده حدود، وظهرت أجمات الأشجار مطعونة بحراب الفجر، وخنادق دفاعية خاوية تنسل مبتعدة عن خط سكة الحديد، كما ظهر عدد قليل من الغيوم تستطلع المنطقة الشمالية غير آبهة بالقطار الذي كان ينسل انسلال الخيط في خروم المحطات المهجورة المهملة. على رصيف إحدى هذه المحطات، وقف

جندي ناعس الطرف يقوم بأعمال الحراسة، وقد شد معطفه الخارجي وثبته حول خصره بقطعة حبل. كان المعطف رثاً مهترئاً حتى ليخال الناظر إليه أنه كان يرتديه بالمقلوب. رفع إحدى يديه إلى وجهه وراح يتثاءب فيما القطار يمر من أمامه. كانت مباني القرية تنتشر على غير انتظام بالقرب من المحطة: إذ كان يستحيل على أي منهم تحديد مكانها لأن جميع اللوحات الاسمية قد نزعت وأزيلت، كما راحت عجلات القطار تفرقع وتفرقع كأنها تجتاز أرضاً لم تلحظ على خارطة.

لازم إيفارت النافذة منذ الساعة الرابعة، ثم أشعل وهو يتجه عائداً إلى العربة لفافة تبغ من عقب لفافة تبغ أخرى فرغ لتوه من تدخينها. نقلته رحلة القطار الليلية الشبيهة برحلة في عربة ثيران من حلم منغِّص إلى حلم منغِّص آخر. فلم يكد يعرف طعم النوم. وبعض أحلامه استلزم عناءً ذهنياً شاقاً، حتى أن المسائل البسيطة السهلة التي كانت حلولها الحسابية مجرد معلومات عامة في النهار، لم يمتنع عليه حلها فحسب، وإنما صارت رموزاً فظيعة للخيبة والإحباط. أخذ من حين إلى حين يسترد وعيه من خضم هذه الصراعات بعد أن فقد كل إحساس بالزمان والمكان، يساوره الشك بحقيقة رحلتهم في القطار وصحتها.

مرت برهة من الزمان لم يستطع أن يفكر فيها بتاريخ اليوم أو بفصل السنة، كما لم يكن يعرف ساعات النهار على وجه الدقة إلا عندما يمحو الفجر أو الغسق الظلال داخل العربة: إذ كانت ساعة يده تدق عندما يرفعها على أذنه، غير أن قياسها الأوتوماتيكي لم يعد يعني أي شيء.

وعلى حين غرة انطفأت مصابيح النور الأزرق الخافت على طول سقف العربة، فأخذت معها ظلالها الباهتة نصف الميتة. كان القسم الأكبر من العازفين، ودون أن يلاحظوا بزوغ الفجر حتى الآن، يغطون في

النوم متمددين على أرائك خشبية، ومتكئين على بعضهم بعضاً، أو على أدوات العزف وهم ينخرون كالخنازير ويتحركون مع كل رجة يرتجها القطار الذي يحبو في مسيره. كان اثنان من عازفي الكمان يتشاجران بقسوة غير مألوفة على علبة قهوة، وكان إيفارت يستمع إليهما كأنهما يناقشان مسألة فلسفية مشوقة.

-«لقد ابتعتها الليلة الماضية في إحدى المحطات، من المرأة التي تستخدم الكلاب الكبيرة لحراسة بضاعتها. دفعت ثمنها قسطاً كبيراً من علاوتي، ولذلك لن أتخلى عنها أو أسمح لك بسرقتها». ثم رفع يديه كأن المسألة قد حلت الآن أو كأن العازف الآخر سيعيد علبة القهوة له دون أن يتكلم.

- لم يكن وقت الفجر مواتياً لحل الخلافات فقال العازف الثاني:

- «لقد دفعت لك نصف ثمنها إذا كنت تتذكر، ولذلك فإن نصيبي منها مثل نصيبك».

- «ذلك لا يعني أنك تستطيع أخذها كلها». كاد هذا العازف يبكي من الغيظ، فأشاح إيفارت بنظره عنه، تعمره رغبة عارمة أن يحل الاثنان خلافهما على وجه السرعة. أما بعيداً عن النافذة، تحت خط الأفق وفوقه فكانت الانفجارات تندلع في كؤوس رمادية الضياء. أخذت ألسنة اللهب تتراقص وتلتمع. بعضها كان يشبه براعم الورد الصغيرة، وبعضها الآخر يعلو ويخبو خلال نصف ثانية مثل حركات متشنجة لعينين مخمورتين تقدحان شرراً. كان الممر بين المقاعد داخل العربة مسدوداً في بعض الأماكن بصناديق أدوات العزف المكومة، كما كانت الرفوف المصنوعة من شباك الخيطان منتفخة بالأمتعة والحاجات الشخصية. وكانت معظم النوافذ مغلقة إغلاقاً محكماً درءاً لهواء الليل البارد، ورائحة عفونة النوم تغمر المكان كله.

صار صخب عازفَي الكمان المتشاحنَين شيئاً لا محل له من الإعراب بعد أن غمرته ضجة تحرك الآخرين وصيحات امتعاضهم لأنهم نُبشوا من النوم، الذي مهما كان منغصاً وخفيفاً، يظل أفضل من حالة الصحو ومعايشة مشكلة تملأ عليهم عقولهم وترهقها في النهار. اقتاد «آرمغاردسن» Armgardsan مجموعة منهم إلى عربة الكمساري طلباً للماء الساخن من أجل الشاي والقهوة، فيما كان اثنان من عازفي الفلوت عند الباب البعيد الآخر يشتركان في النظر إلى مرآة ويحكي كل منهما للآخر عن حاجته الماسة لحلاقة الذقن؛ وهما يحاولان استخدام موسى الحلاقة رغم ترنح القطار وتأرجحه.

دار القطار نصف دورة حول قرية أتت عليها النيران، وترامى إليهم هدير الشاحنات من مستودع للآليات في وسطها المهدَّم. كان نسق من الجنود بشعرهم الأشعث يناولون بعضهم بعضاً صفائح المحروقات، كما كانت آليات عديدة ترحل عند الخرائب وهي تنتظم على شكل طابور في طريقها إلى الشرق. إمتعض إيفارت كثيراً لأن الآليات لم تكن تسير في اتجاه القطار نفسه، واعتراه إحساس بأن عملاً شائناً من أعمال الخيانة كان يجري أمام عينيه وهو لا يستطيع منعه. حوَّل إيفارت نظره عن هذا المشهد، فرأى عربة محرك القطار السوداء على خط سكة الحديد العريض وهي تخرج معتدلة من منعطف منفرج الزاوية بالقرب من القرية. ترامت أمامهم سلسلة من الهضاب المنخفضة وسطعت شمس خفيفة الحرارة من خلال سحابة داكنة، فأضاءت الذرى والوهاد وأجمات الأشجار على التلال المرتفعة فيما وراءها، التلال التي تتصاعد فيها هبات عديدة من الدخان وكأن راكبي القطار يقتربون من مؤتمر لحاملي الرايات من الهنود الحمر. لم يعد عالم القتال الذي يمكن أن يشاهد من خلال النافذة يبدو عالماً قصياً نائياً، كما أن الفيلم الصامت الذي شاهده بدأ يتخذ شكل شريط سينمائي ناطق خاص مما جعله يشعر بألم في

أمعائه. راح إيفارت يفكر بروية ورزانة بكل «طلبات الاحتجاج» التي جُمعت وصنفت ضد قرار وزارة الحرب القاضي بإرسال الفرقة الموسيقية إلى الجبهة والترفيه عن الجنود، وهو يبتسم بسخرية وغيظ لاكتشافه المتأخر بأن الاحتجاج شيء لا وجود له في الحرب.

- «لا فائدة من إعمال الفكر»، قال له أحدهم.

تحول إيفارت عن النافذة وهو يبتسم لمثل هذه الملاحظة الصباحية السديدة المناسبة، فرأى ستارنبرغ Starnberg يجلس على المقعد المقابل. تابع ستارنبرغ الكلام وهو يصالب إحدى ساقيه البدينتين فوق الأخرى: «الحرب هي الوقت المناسب الوحيد للاستفادة من التجربة. المرء أيام الحرب يفعل شيئاً سخيفاً إثر شيء سخيف آخر، غير أن عليه أن يفعل ذلك إما لأنه يتلقى أمراً بفعله وإمّا لأن الأغبياء يضعونه في موقف لا يستطيع معه فعل أي شيء آخر».

راح إيفارت يهز رأسه باتجاه الانفجارات في المناطق البعيدة التي لم يستطع ستارنبرغ رؤيتها، وقال بصوت مغضب ومرتج: «فيما وراء ذلك، عليك أن تنفذ ما يطلب منك، في السلم أو في الحرب. هذا ما يراد أن تؤمن به».

- «هل تعتقد أن الأمر صحيح إذاً»؟ سأل ستارنبرغ وكأنه يقصد أن إيفارت سيكون مجنوناً لو اعتبره كذلك. «هل تظنن الوضع هناك أسوأ منه هنا؟ في أي وقت ينشأ قتال يفصل بين دولتين تحكمهما قوانين واحدة، يمكنك التأكد من ذلك. إننا لم نتطوع للحضور إلى الجبهة، بل وجهت لنا الأوامر للقيام بذلك، وأنت لا تستطيع دحض هذا». وبعد أن طرح هذه العبارات الساخنة، راح ينظر خارج النافذة.

- رفع إيفارت صوته أيضاً أكثر مما يقتضيه سماعه فوق ضوضاء القطار وصخبه. «لم يعد أي شخص على درجة من الغباء

يصدق معها شيئاً مما تقوله الحكومة. ذلك صحيح تماماً. ولكن هل تعتقد أن ذلك يمنعنا من تنفيذ ما طلبوا؟ سوف ترى كيف يكون حالنا ونحن نعزف السمفونية الخامسة في قاعة كبيرة من قاعات الجيش التي تعج بالجنود وتتعرض للقصف، وإن كنت شخصياً أوثر الجلوس في منزلي داخل شقتي السكنية والطلب إلى مراسل عسكري وصف الوضع لي، أو مطالعته في كتاب من الكتب بدلاً من استطلاعه بنفسي». بهذا القول أنهى إيفارت كلامه مستسلماً صاغراً.

– «هذا يتجاوز حدود تفكيري»، قال ستارنبرغ وهو يتكئ على المقعد الخشبي ويضحك، مغضّناً ناظرتيه بطريقة تبدتا بها مغمضتين تقريباً.

– «ماذا لك غير الضحك إذا كنت تريد أن تبقى على قيد الحياة»؟ قال ذلك إيفارت ونبرة صوته تنم عن سخرية وإعجاب في آن واحد.

– «إنك مصيب تماماً. لعمري هذه أعظم فكاهة سمعتها في حياتي؛ الحكومة ترسل فرقة سيمفونية للترفيه عن الجنود الذين لم يسمع تسعون بالمئة منهم قط بالسيمفونية ولا يريدون سماعها أيضاً. الحق إنني أرثي لحالهم، إذ عليهم أن يجلسوا ويستمعوا لحفلة موسيقية من بدايتها إلى نهايتها. وها نحن هنا الآن، قريبون جداً من الجبهة بغرض الترفيه، كجزء من مشروع دعائي لوزارة الإعلام هدفه أن يعرف العدو بأن من يقاتلونه إنما هم جيش مثقف رفيع المستوى. كأنّ ذلك يقلب موازين الحرب». كأنّ «أحداً سيسمع بذلك أو يعرفه. إن هذا يسقمني، صدقني». تنازعه من داخله نداء قوي مقتضب، عفا عليه الزمن، يذكّره بموقعه من القيادة والمسؤولية ويقول له: يجب أن لا تبوح بمثل هذه الأشياء، حتى لستارنبرغ نفسه. أنت المسؤول عن هذه الفرقة،

وواجبك أن تشدهم إلى المضي برحلتهم، رغم الأهوال التي سيواجهونها. غير أن إيفارت قمع ذلك النداء، ولم يعد يتذكره بعد أن خمد وغاب عنه.

قال ستارنبرغ يحدث إيفارت: «إن مواقف السخرية واللهو وترويض النفس هي أفضل المواقف التي تخدم البقاء. لقد وقعنا، على سبيل المثال، عقداً لمدة ستة أسابيع فقط في الجبهة وبعدها ينتهي الأمر: سوف نعود إلى الشرق ونحن نرنو إلى رغد العيش المعقول من جديد»، غير أن روح المرح سرعان ما فارقته عندما خطر بباله خاطر وراح يصيح بصوت عال: «إنهم يستطيعون تمديد العقد، إنهم يستطيعون ذلك بالطبع. وليس عليهم أن يأخذوا رأينا فيه».

- «ما هذا إلا رغد حضارة تتنازعها الحرب»، قال إيفارت ساخراً، وهو يصوِّب النظر بعناد إلى التلال الخضراء المقفرة. كانت عربة القطار حارة تطفح بدخان لفافات التبغ، على الرغم من فتح جميع النوافذ أملاً في تلقُّف نسمة هواء خفيفة قد يخلِّفها تقدم القطار المتكاسل البطيء. تبين لإيفارت أن هذه المناقشات لن تصل إلى غاية منطقية محددة، بعد أن غاصت في أوحال غضب شخصي عارم، وكل من طرفي المناقشة يطرح حججه بكل حماسة ضد شيء واحد مشترك، ولكنهما عن جهالة يطرحانه ضد بعضهما بعضاً. يبدو أن ستارنبرغ أدرك ذلك: إذ هز كتفيه وابتعد عن إيفارت، على صورة رجل بدين قصير القامة يقيس أكوام الصناديق في الممر وهو يمشي.

دب شيء من النشاط الآن على سفوح التلال. لقد أتت الحرب على المروج السطحية التي تميز بين فصل وفصل من فصول السنة، وتربة الأرض لم تكن محروثة وليس لها لون من الألوان، فاتخذت شكل الصحراء التي قُلب أسفلها أعلاها في الأماكن التي يقيم فيها الجنود المتاريس أو يحفرون الخنادق، وراحت أزواج من البغال تجر مدافع ذات

سبطانات طويلة إلى مواضعها. كانت الحراب تلمع تحت أشعة الشمس مثل المبارق الشمسية، وكان الجنود في خضم أوساخهم وإجهادهم، يبتسمون ويلوحون بأيديهم للقطار الذي يمر أمامهم. أحسَّ إيفارت بوجود شخص إلى جانبه؛ وإذا بعازف الفيولونسيل بندر Bender يقف وإحدى يديه تستند إلى تاج المقعد المتقوس لكي يدرأ عن نفسه الاهتزاز وقال: «يبدو أن جنودنا منشغلون هناك، ولا بد أننا قرب خط الجبهة تماماً».

لاحظ إيفارت صورة القلق والاضطراب في عينيه الثاقبتين بحاجبيهما الكثيفين، فقد كانتا تصوران ما يجري خارج النافذة تصويراً واضحاً على تعقيده وكانتا، على عكس الحراب اللامعة، تستطيعان النفاذ إلى مسافة قصيرة محدودة في أغوار أي مستقبل له قيمته ومغزاه. سبق له أن لاحظ من ذي قبل كم لمثل هذه العيون من قوة على الخداع، فما يتوخاه الإنسان فيهما من بصيرة وبعد نظر، لا يلبث أن يتكشف عن حالة سأم مهينة لا يمكن توقعها.

«أتوقع أن نغادر القطار في ساعة من ساعات هذا النهار»، قال بندر بسرعة كبيرة. «إن الإنسان يحتاج إلى قدر كبير من الجلد للبقاء في قطار كل هذه المدة الطويلة، وبعض رفاقنا يعتقدون أننا نقترب كثيراً من الجبهة».

- «ربما نكون على مسافة بعيدة منها»، قال له إيفارت. ثم أضاف يحدث نفسه وهو يراقب عازف الفيولونسيل الرعديد يمشي إلى طرف العربة الآخر ويفتح باب حجرة المغاسل على مصراعيه: لو بالغت في تأكيد أقوالهم، لن يصدقني.

كان العازفون الذين يفرغون من الاغتسال يعلقون المناشف على الرفوف أو يربطونها ربطاً محكماً بالنوافذ بحيث كانت ترفرف إلى

الخارج مثل رايات الاستسلام. أنزل إيفارت حقيبته الجلدية وفتحها، وراح يدرس عملية الترتيب الحضارية للقمصان والفراشي وعقد الرقبة. فرآها عبارة عن لازمة تافهة مصيرها الزوال يهتم بها العقل الموسوس. وذلك قبل أن يتناول ما يحتاجه منها. أما ستارنبرغ، وهو يلبس نظارتين سميكتين، فراح يلوح بخارطة نشرها أمامه: «لقد وجدت هذه تحت أحد المقاعد. إن عمرها خمسون سنة»، قال بحماسة عندما انكب إيفارت ينظر إليها، «وهي مشوقة جداً». جلس بتكاسل ونشرها فوق ركبتيه وراحت إحدى أنامله تروغ بين ألوانها المتعددة التي بهتت وتلاشت من شدة القدم. ثم قال: «انظر ! هنا نجد سلسلة الجبال هذه، وبناءً على ما قالته الصحف، لابدّ أننا وصلنا قطاع الجبهة الآن».

وبناءً على وميض المدافع أيضاً، قال إيفارت ساخراً.

كان وجه ستارنبرغ مضطرباً قلقاً وهو يتفحص الخارطة، ثم رفع بصره مبتسماً وقال: «الخرائط تسحرني. عندما كنت صبياً يافعاً كنت آمل أن أصبح مساحاً، أو جنرالاً، أو أي شيء له علاقة بالخرائط والمصوّرات. غير أن المسح يعني مزيداً من التعب ومجابهة كثير من المخاطر، ولذلك عزفت عنه ودرست الموسيقا». طفق إيفارت يضحك معه فيما كان يعرض المصور على شخص آخر.

لو أن الظروف على غير ما هي عليه، لكان المنظر رائعاً خلاباً. أخذ ارتفاع الهضاب يتناقص وهي تتجه نحو رقعة فسيحة منبسطة من المراعي الخضراء، رقعة مرقطة بالمستوطنات المتناثرة تعتمت ألوانها هنا وهناك ببقع الغابات التي لا يمكن تمييز حوافها وحدودها حتى أنهم تصوروها للوهلة الأولى طيوفاً لغيوم كبيرة ترتسم على الأرض. وكان خيط من برك الماء الصغيرة بجانب أحد الأنهار في الشمال يتلألأ مثل قطع النقد الفضية. كما شكلت هبات دخان المدافع التي تشبه القطن

وألسنة النيران طريقاً كالوشاح يربط بين قريتين، وكانت الطريق بين التلال السفحية وبين مستوطنة أخرى مسدودة بالشاحنات والدبابات والمدافع والجنود. ارتج القطار أثناء دورانه حول إحدى المنعطفات ارتجاجاً شديداً فألقى بالواقفين من ركابه على المقاعد الخشبية وسقطت علبة حلاقة إيفارت على الأرض. أحصى إيفارت، وهم يجتازون قرية أخرى، ثلاثين دبابة ثقيلة متجمعة في المنطقة المجاورة، كما شاهد على قمم الجبال العالية خنادق لتشكيل المدفعية. كان الجنود في الحقول يحفرون حفراً صغيرة ويقطعون الأشجار بغرض التغطية والتمويه. عندما رجع إيفارت إلى عالم أفكاره هذه المرة سأل نفسه عما كان يدور في ذهنه، ولكن الجواب الوحيد الذي استطاع أن يجيب به: لا شيء سوى اللا مبالاة وحالة الخدر الناجمة عن مسافة السفر الطويلة وقلة النوم.

لم يخطر بباله قط أن هنالك ما يمكن أن يفعله، أو حتى ما يستوجب القيام بأي عمل من الأعمال. وفي شتى الحالات، لن يكون هنالك فرق لو قام بعمل من الأعمال أو لم يقم، هكذا قال يحدث نفسه.

بعد أن اجتاز ممر العربة وهو يسير مترنحاً، فتح باب غرفة المغاسل على مصراعيه. كانت الحجرة خالية، وكانت المكان الوحيد في القطار الذي يوفر قسطاً من الطمأنينة والراحة. أوصد الباب بالمزلاج وخلع سترته. انعكست صورة عينية السوداوين وقد أزال النوم إطاريهما، وصورة شعر رأسه نصف الأشيب الكثيف على صفحة المرآة الملطخة فكانتا عبارة عن صورتين بارزتين ابقيتا في وضع من الحرج والتحفز تلك الملامح الدقيقة غير المحسوسة التي تكشف أحياناً عن حقائق الوجه الخفية لعيني امرأة، أو أخ، أو رفيق، ولكنها نادراً ما تكشف عن ذلك لعيني صاحب الوجه نفسه. أخذ الماء يتدفق من الصنابير ويشيع بحرارته الدفء في أنامل إيفارت المغمورة فيه، وحصر إيفارت جسمه في ركن ضيق بين جدارين لكي يحافظ على توازنه. راح يجر موسى الحلاقة

بخفة فوق رغوة الصابون البيضاء للأعلى وللأسفل، مخلفاً وراءه درباً ضيقة من البشرة الوردية اللون.

دخل القطار نفقاً، وبما أن النور الذي لم ينقطع كان ضعيفاً جداً لا يساعد على الرؤية فقد انتظر حتى خرج القطار من النفق. إما أن وطيس المعركة قد خف. وإما أن القطار انحرف مبتعداً عنها. راح إيفارت يصفر في طفرة من التحرر والانطلاق، وهو يشعر بأن عبء المسؤولية المرهق الذي كان يربض فوق كتفيه ويقض مضجعه أمداً مديداً من الزمن يمتد امتداد قدرته على التذكر، قد انزاح عن كاهله الآن لسبب من الأسباب. لقد بات القطار، حتى في اهتزازه وتأرجحه، رفيقاً من رفاقه: فهو يقله إلى مكان لا يعرفه، وينقله إلى مناطق ملحوظة على الخارطة لم يسبق له أن زارها، وينأى به، على أنغام عجلاته، عن أماكن طال مكوثه في أحضانها. ولما صارت بشرة وجهه ناعمة إلى حد معقول، حنى كتفيه على المغسلة لكي يغسل الصابون عن وجهه.

«إيفارت! إيفارت»

جمع إيفارت أشياءه بسرعة وفتح الباب ثم سأل بجفاء، «ما الخطب»؟

أفسح ستارنبرغ الطريق لإيفارت كي يسمح له بالمرور وصاح بصوت عال من ورائه: «إننا نقترب من الجبهة».

ضحك إيفارت وقال: «بالطبع نقترب منها. ذلك فأل حسن. سوف نصلها أياً كان حالها عما قريب، وربما نحظى بوجبة طعام مناسبة عندئذ». سار عبر الممر إلى مقعده. حاول ذهنه أن يربط بين الماضي والحاضر وأن يثبت نقطتيهما معاً بمفصلات شريط التذكر الحادة ـ لأنه بغير ذلك يصبح العالم الجميل الذي يعيش فيه الناس الذين ودعهم قبل سفره أشبه بالحلم؛ وهذه حالة سيئة تخيفه أكثر ممّا تخيفه أية فاجعة

قد تتعرض لها الفرقة في رحلتها الرعناء بالقطار، وسبب ذلك أنه لم يكن من ذلك النوع من الناس الذين يتذكرون الأحلام. غير أنه في محاولة تناول الماضي المباشر لم يفعل شيئاً سوى أنه قبع مثل الضفدع داخل قمقم من التفكير النفسي البليد. وهذه حالة كان يقرفها. لذلك آثر أن يعود بتفكيره إلى الحاضر على أن يتقوقع في الماضي، ليسعد به كملاذ أمين على الرغم من حقيقة وجوده في قطار وحقيقة أنه يتجه إلى مكان يعرفه الله وحده.

كان ستارنبرغ لا يزال معه عندما فرغ من توضيب حاجاته في الحقيبة ونظر إلى الأعلى فسأله: «ألا تعتقد أننا شارفنا على خط الجبهة، يا إيفارت»؟

«لقد شارفنا عليه واقترينا كثيراً منها خلال الأيام القليلة الأخيرة»، قال إيفارت متودداً وهو ينظر من النافذة إلى الخارج، كان خط سكة الحديد يمتد بمحاذاة طريق مستقيمة منبسطة، وعدد من الجنود المصابين بجروح طفيفة يتراجعون مجهدين إلى المأمن الذي توفره الهضاب. أخذ هؤلاء يصرخون ويومئون بأيديهم، غير أن أعضاء الفرقة الموسيقية لم يسمعوا أية كلمة من كلماتهم لأنها دون مستوى الضوضاء المتصاعدة من حولهم في القطار. إنهم يطلبون منا الخروج من القطار، قال أحد أفراد الفرقة.

استدار إيفارت مغضباً وقال: «لا، إنهم لا يطلبون ذلك، ومن يقفز خارج القطار سيقتل».

خفف القطار سرعته فخالج كل واحد فيه شعور بالفرج والحبور في أنه سيتوقف، ولكنه في المحطة التالية اندفع إلى الأمام ورفع سرعته عن ذي قبل. كانت الشاحنات وسيارات الإسعاف تمشي بسرعة بطيئة تدوي دوياً أعلى من فرقعة القطار فتبلغ مسامعهم، كما كانت السماء

أمامهم محجوبة بسديم من الدخان، ينفذ من خلاله قرص الشمس الشاحب حيناً بعد حين. منازل كثيرة في القرية كانت تحترق، ومنازل أخرى صارت أكواماً من القرميد جمعتها على غير انتظام أسلاك الهاتف المجدولة حولها. أما الشعور الذي ملك على إيفارت لبه فهو حب الاستطلاع والفضول. هب واقفاً ليملأ بصره بمنظر القرية المبادة، محافظاً على توازنه في الوقوف عن طريق التشبث بأحد الرفوف الخشبية العلوية فيما القطار يهتز ويتأرجح تحت قدميه. أما الآن وعند أحد المنحنيات النازلة فقد انعطف القطار ودخل بين جدارين مرتفعين لنفق مكشوف، مجتازاً بذلك نتوءاً جبلياً مما أتاح لهم الاستمتاع بمشهد آخر للسهل الفسيح أمامهم، ودوي المدافع ما انفك يلاحقه عبر أية مسافة مستورة من السكة. غمرت أشعة الشمس الدافئة نوافذ القطار عندما خرجوا من أحد الأنفاق. ربت أحدهم على كتف إيفارت الذي سأله وهو يتجه إليه: «ما خطبك؟ أوه. هذا أنت يا فيكادي».

قرأ إيفارت في العينين المتسائلتين لرجل بلغ منتصف العمر نداء حيوان مذعور يناشده تسكين روعهما، وشد أزرهما، ورفعهما إلى مستوى أعلى من مستويات الشجاعة العاجزتين عن بلوغه. ولكنه لم يكن يملك قوة التنويم المغناطيسي اللازمة لمساعدة أي شخص أو حتى لمساعدة نفسه على بلوغ هذا المستوى. اجتاحه شعور الإيمان بالقضاء والقدر، فسكن روعه من جراء ذلك، غير أن مثل هذه السكينة الموجعة وغير المأمونة لا يمكن أن تسكن قلوباً أخرى غير قلبه. أخذ يشد أنامله بقوة فوق جلد عنقه حتى شعر بالألم. لم يكن بمقدور أحد حتى الآن أن يطلعهم على حقيقة ما يجري. وصاح أحد عازفي الفيولونسيل من وراء فيكادي بصوت عال وحماسة كاذبة: «ألا تعتقدون معي أننا سنخرج من القطار في الحال»؟

- «أنا سأكون بحاجة إلى نقاهة طويلة، عندما نخرج من القطار

بالفعل». صاح أحد العازفين من مكان بعيد في العربة.

- «لن تتوفر لنا نقاهة طويلة. وسوف نباشر عزف موسيقا شومان هذه الليلة بكل تأكيد»، صاح الطبال.

تقدم آرمغاردسن من الباب المفتوح قرب حجرة المغاسل وصاح بأعلى صوته: «إلى جانب دوي هذه المدافع، سيكون عزفنا لوجه الشيطان وحده».

سأل فيكادي إيفارت وهو ينظر إليه: «ألسنا في خطر من نيران المدافع بعد»؟

- «لا أظن ذلك، وإذا كنا في خطر منها، فإن علينا أن نتأقلم معها. سوف نسمعها كثيراً في الأسابيع القليلة القادمة».

- إنبرى أحد الرجال الذين سمعوا عن بعد كلمات إيفارت يقول بمنتهى الضراوة والتحدي: «إذا سمعتُ كثيراً من دوي المدافع، ستجدونني أشق طريقي عائداً إلى بيتي».

- أما رد إيفارت على هذا الرجل فقد حجبه صوت أشد صرامة وتأكيداً يعلن: «يجب أن يتوقف هذا القطار في الحال، وإلا سترونني اقفز منه وأعود إلى البيت الآن. وإن سرعته لا تحول دون القفز منه».

كان الجنود يندفعون باتجاه القرية المحترقة وكأن راية النار فيها دعوة لملتقى يعقد من أجل السلام. كثيرون قتلوا من جراء قصف المدافع وتجندلوا على الأرض، فظهروا مثل رزم الألبسة البالية المطروحة بين الأشجار أو إلى جانب الطريق. شاهد إيفارت بعضهم يتحركون.

كانوا يرقدون في برك زرقاء اللون وقرمزية؛ كلونين يرمزان لألم تعذر على إيفارت تصور شدته؛ ولكنه شعر بالخجل وبالامتعاض منهم لأنهم لم يقضوا نحبهم، بل حل بهم مالا طاقة لهم على تحمله.

وعندما تقدم القطار داخل قوس من نيران المدفعية بشكل النفق، أخذ يتأرجح ويرتج كأنه سيهوي عن السكة. ارتفعت أصوات عديدة تصرخ في الحال، وأكثر الرجال يسألون إيفارت أسئلة يتعذر عليه الإجابة عنها. عصفت رجة من رجات القطار بخصلة من شعره، فأعادها إلى مكانها بحركة خاطفة. كان مقتنعاً من عدم وجود أي شيء يقوم به، وكان قراره إزاء هذه الحقيقة قد قر من سنوات وسنوات؛ إذ كانت شخصيته من طينة خاصة تجعله في مثل هذه اللحظات لا يجد ما يفعله؛ فما من شيء وما من وحي موحى يجعله يفعل شيئاً. لقد ألمّ به وأمسك بتلابيبه شيء مناقض تماماً لحالة الذعر والهلع، ولكنه شيء قاتل فتاّك مثلها أيضاً. إنهم في قطار: وليس بوسعهم أن يخرجوا منه إلا على أبواب محطة من المحطات. ثم، هل كان هناك بالفعل أي خطر محدق؟ القطار سيتوقف خلال دقائق معدودة، ثم ينقلون بالشاحنات إلى مربع هادئ. فما هو نفع كل هذا الصياح؟ راح عدد من العازفين يجمعون مناشفهم ويحزمون حقائبهم، بينما انكبّ الآخرون على النوافذ ينظرون إلى الخارج.

– «لا أعرف شيئاً عما يحدث»، قال إيفارت «لمن كانوا يصرخون ويحدثون جلبة من حوله. سيكون كل شيء على ما يرام إذا جلستم وخلدتم إلى السكينة والهدوء». ضحك أحدهم وهو يشير إلى سحب من دخان المدافع على مقربة كبيرة من القطار وراح يصيح: «إلزموا الهدوء، فليس هناك ما يبعث على القلق».

كانوا يجتازون ساح معركة جرت في الساعات الأخيرة. كانت حفر المدافع مدمرة ومهجورة، كما كانت الدبابات المعطوبة تقبع صامتة بلا حركة؛ بعضها مكفّن بألسنة حديثة العهد ناشطة من الدخان واللهب؛ وبعضها الآخر محصور داخل برك من النفط الذي يشتعل بكل هدوء وسكينة من حولها، وإن لم يمسَسّها أذى، كانت طبقات بنية اللون من

الأرض الصخرية قد قذفت من الحقول، فتبدى لهم أن المسألة مسالة وقت فقط ثم يخرج القطار عن خطه بسبب حفرة انفجار، أو يهوي من فوق جسر متداع إلى النهر.

«ماذا حدث برأيك»؟ سال ستارنبرغ.

كان وجه ستارنبرغ شاحباً فردّ عليه بسرعة وحِدّة: «كيف لي أن أعرف؟ يبدو أننا دخلنا في منطقة هجوم. إنني لا أعرف».

كانت سرعة القطار بطيئة ولكنها مطَّردة، فخيل إليهم أنهم سيستمرون في السفر بتلك السرعة أبد الدهر كله، مهما اعترض سبيل القطار من عوائق. صارت التلال وراءهم، وامتد خط السكة المستقيم المستوي باتجاه منطقة شاسعة من الأرض العراء. عجَّت عربة القطار بصرخات الغضب والذعر، وتوجه عازف الفيولونسيل بندر بسيلٍ من الأسئلة لإيفارت: «إلى أين نحن ذاهبون؟ ما خطب السائق؟ لماذا لا يوقف القطار»؟

– «إنه جاسوس، هذا هو السبب، إنه مع العدو، ألا يستطيع أحد أن يفعل شيئاً»؟.

شاهد إيفارت وجهاً أبيض مذعوراً بين جمع الرجال، ثم حجبته عن الرؤية هامة شخص آخر مفطور على حب القتال وهو يصرخ:

«إنني خارج من هذا القطار».

– «ابتعدنا كثيراً». صاح شخص آخر. «ابتعدنا كثيراً، أصبحنا على تماس مع خط النار. العقد لم ينص أن علينا أن نصل إلى هنا». صار وجه ستارنبرغ الخامل وغير الحليق أصفر اللون، وأخذت شفتاه ترتعشان فراح يسأل: «ماذا بوسعنا أن نفعل؟ هل نستطيع أن نفعل شيئاً؟».

- «لا أعرف ماذا نستطيع نحن المعذبين أن نفعل»، صرخ إيفارت، ثم تغيرت لهجة حديثه وقال: «إننا لا نعرف فيما إذا كان هنالك ما يستوجب الذعر حتى الآن». أوقعت شدة ارتفاع صوته صدمة واشمئزازاً في نفسه، ولكنه سوغ ذلك ورده لبرمه الكبير من الذين ينهالون عليه بالأسئلة في الوقت الذي يعرفون أجوبتها مثلما يعرف تماماً. إنهم يطرحون الأسئلة وحسب، مثل الأطفال تماماً، لأنهم يبغون تأكيد الأكاذيب. بهذا حدث نفسه غاضباً محنقاً. شق عازف كمان نَزِقٌ طريقه إلى الباب، وفتحه على مصراعيه بشدة حتى أخذ يتأرجح إلى الوراء والأمام على جنب العربة.

«إنه سيقفز، أمسكوا به».

ركض إيفارت : ولكن بعد فوات الأوان. كان الرجل قد قفز إلى الطريق. راح يمشي متعثراً، ثم استلقى بلا حراك لحظة واحدة، وبعدها وقف وقفة المصاب بالدوار، وقبل أن يغيب عن أنظارهم عند وصول القطار إلى أحد المنعطفات شاهدوه وهو يسير باتجاه القرية المهدومة بين مجموعة ضالة من الجنود العزل.

كان دخان النفط والحرائق الذي تتلقفه حركة القطار يدخل العربة. وعندما حاول إيفارت إغلاق الباب، شده رجلان من الوراء بعيداً عنه، ثم قفزا خارج الطريق. استلقى الرجلان على الأرض من جراء الصدمة، ثم غابا عن مجال النظر أيضاً. حاول آخرون أن يشقوا طريقهم إلى الخارج عنوة ولكن ستارنبرغ دفعهم بعيداً. أغلق إيفارت الباب وعاد إلى مقعده، عاقداً عزمه على أن لا يمنع أي شخص آخر من الفرار. لم يرغب أحد في محاولة الفرار على أية حال، فراح إيفارت ينعم النظر من النافذة إلى الخارج، وهو متعب مهدود القوى، يتطلع بأمل ورجاء إلى نهاية سعيدة للرحلة. شعر بأنه يحلم، وأن النوم يراوده بسبب

اهتزاز القطار اللطيف المتواصل. كان دوي قذائف المدفعية البطيء المكتوم يختلف عن زمزمة البنادق والرشاشات الآلية. وبعينين نصف مغمضتين سمع إيفارت صوت ستارنبرغ وهو يتجادل عند الباب مع شخص آخر تردد في اتخاذ قرار حاسم بالنسبة للقفز خارج القطار أو عدم القفز. فتح عينيه فوقع بصره على ثلاث قذائف تشكل انفجاراً مثلثياً على مسافة ياردات قليلة من بعضها بعضاً، مثل ثلاثة أصدقاء قدامى يلتقون على غير موعد، وقد خلبت عقولهم مباهج الحياة. اختلط الدخان بالنيران المتقدة، فانطلقت ذراعان واقيتان، تفجرتا إرّبا إرباً، ثم همد كل شيء.

- «هل تراهم»؟ صرخ أحد الرجال. «ليسوا من جنودنا»

كان رجال يرتدون البزات العسكرية يندفعون قدماً في جماعات وهم يتعثرون فوق أرض حجرية غير مستوية «أين هم؟ أين»؟.

- «هل أنت أعمى؟ هاهم هناك، ألا تراهم»؟.

- بالطبع إنهم جنودنا. لقد ألمَّ بكم الذعر جميعاً في وقت لا داعي فيه لذلك. الجميع توقفوا عن الكلام بغتة، كأنهم يبغون المحافظة على قوة أعصابهم وهم يترقبون نهاية سريعة لهذا العرض المسرحي المريب. فالكلام بمثل هذا الوقت العصيب يستنفد كثيراً من الطاقة والجهد. أما التريث وانتظار ما سيحدث فهو الأفضل، وبعد ذلك فليبدد كلٌ طاقته كما يشاء. وأما السماء البنفسجية الشاحبة، وقد أشاع فيها الغبار والدخان والشمس نصف الساطعة الدفء والحرارة، فقد انحجبت أجزاء عن نظر إيفارت بسبب نفق سطحي صغير مكشوف تنمو على كتفيه أزهار صفراء وحمراء من تربة صلبة قاسية، ولكن ما إن أخذ كتفا النفق يضمحلاّن حتى وقع بصر إيفارت على الجانب الشمالي من السهل الذي تنتشر في أرجائه الحرائق الملتهبة.

- صاح أحد الرجال. «نحن في غمار معركة دامية»

- «لا تقفز». قال له ستارنبرغ بصيغة الأمر.

- «سوف تُقتل. لقد فات أوان الفرار».

- راح إيفارت ينظر على طول خط السكة. لم يقفز أحد من القطار. النافذة كانت موصدة، وزجاجها يوفر لهم درعاً واقياً من الطلقات الشاردة، وجوّ العربة خانق حار. اتجهت مجموعة من الفرسان وأسلحتهم الآلية تتدلى على مناكبهم من أحد الحقول ينظرون إلى القطار وهو يمضي باتجاههم. ترك ستارنبرغ موضعه ككلب للحراسة بجانب الباب وراح يمشي بحذر عبر ممر العربة ثم قال لإيفارت: «دعهم يقفزوا، إذا كانوا يريدون ذلك. نحن في مأزق، وإذا كان يحلو لهم المغامرة بأعناقهم في محاولة الفرار، لن أمنعهم من ذلك». شاهد إيفارت وجهه المرهق المتصبب عرقاً، وياقة قميصه المنسدلة عند العنق، ويديه المرتجفتين اللتين سرعان ما عمل على تثبيتهما عن طريق الإمساك بتاج المقعد الخشبي غِبَّ ملاحظة إيفارت لهما وقال بغتة: «لم أتعرض في عمري لموقف كهذا الموقف، حيث لا أجد ما أفعله بتاتاً».

- تقدم أحد الخيالة نحو القطار، وبعد أن ربض بكل رزانة وهدوء عند منعطف السكة، راح يعدو فوق صهوة جواده بمحاذاة القطار لعدة دقائق، ثم قام بعمل بهلواني من الطراز الأول، ملقياً بنفسه داخل عربة المحرك. صوَّب الفارس بندقيته على سائقي القطار المرتبكين بينما طفق ستارنبرغ يقول لنفسه: «إنني لا أعرف بالتأكيد معنى ذلك كله».

- أما إيفارت و ستارنبرغ يدفعه من ورائه، فراح يركض داخل العربة وهو يصيح بأعلى صوته: «تثبّتوا جيداً، القطار سيتوقف».

سمع معظمهم ما قاله، وفهموا ما رمى إليه، فثبتوا سواعدهم

وأرجلهم ومناكبهم بشدة فكان ذلك عوناً على الحيلولة دون ارتجاجهم والوقوع فوق رزم الأمتعة في الممشى. أخذت الحقائب تتزحلق من الرفوف وترتطم على المقاعد فكانت سبباً لولولة وصياح من سقطت فوقهم. لطم أحد الأكتاف الصلبة القاسية لرجل لم يتحكم جيداً بوقفته إيفارت لطمة قوية فألقاه على خشب المقعد من جديد. وراحت الأبواب غير الموصدة تتأرجح وتفرقع على غاربها؛ فتساقط على الأرض كل من لم يؤمن لنفسه وقفة ثابتة متمسكة بشيء من الأشياء. كما أن عدداً كبيراً ممن انقطعت أنفاسهم من جراء ضربات على بطونهم رقدوا على الأرض بوجوه شاحبة متحجرة، عاجزين عن أية حركة، كأنهم التحموا مع الأرض بأداة غير مرئية.

بعد أن استرخت سواعدهم، أخذوا يستردون عافيتهم مشدوهين، يفركون الرضوض والكدمات ويكيلون السباب لمن كانوا سبباً في توقف القطار عبر هذه المسافة القصيرة جداً من خط السكة. جعلوا ينظرون إلى بعضهم بعضاً ولم يستطيعوا أن يصدقوا في غمرة الصمت والسكون التي شاعت الآن بأن القطار قد توقف. صار ضجيج العجلات الهادرة الذي عايشوه خلال الأيام الأربعة الماضية مثل صديق رحل عنهم، كما أن السكون الذي خلّفه انقطاع الضجيج بدا أمراً غريباً غير مألوف في نظرهم، أشبه بطعنة في المنطقة النائية من الظهر سلبتهم شجاعتهم، وبدأ واحد منهم يجهش في البكاء.

«لقد انطلقت في البكاء بالوقت المناسب»، قال ستارنبرغ والبسمة ترتسم على ثغره بسبب ترجيع صوت إغلاق الأبواب، وطقطقة إغلاق الحقائب، ووقع الأقدام المتحركة.

«سنؤخذ إلى الأسر»، قال إيفارت، وعلى الرغم من أن هذا الأمر حقيقة واضحة للجميع تقريباً، فقد أشاعت الذعر بوجوه كثيرة.

شعر بالسعادة لأنه لم يكن مذعوراً وراح يشق طريقه، وستارنبرغ في إثره، عبر مجموعة من الرجال قرب الباب. «دعوني أفتح الباب»، طلب منهم بلهجة حادة، «وبعد ذلك نستطيع الخروج».

«لا تخرج» صاح أحد الرجال من الخلف، وهو يسحب إيفارت. «انبطح. إن دباباتهم تتقدم نحونا»! دفع إيفارت يد الرجل عنه وصوّب نظره إلى الخارج، محاولاً استشفاف أسرار الموقف من الدخان المتكاثف. كانت دبابة واحدة تمخر عباب الدخان، بكآبة وتثاقل وحذر. ومن ورائها انطلقت أكثر من عشرة ألسنة من اللهب الأبيض باتجاه السماء، محدثة دوياً تنفطر له القلوب ترددت أصداؤه في كل أرجاء القطار ارتجاجاً وفرقعة. وأعضاء الفرقة الموسيقية داخل القطار أخذوا يتراجعون إلى الوراء وكأن القوة الخفية التي عصفت بالنوافذ سوف تخترقها عند وقوع الانفجار الثاني وتذيق الجميع حتفهم. خرج الآن من قلب الدخان رتل غير منتظم من الدبابات يهدر فوق أرض عراء وعرة على جانبي القطار المتوقف. أطلقت الدبابات صلية نارية أخرى من مدافعها ثم تابعت سيرها إلى التلال السفحية في الجبال القريبة. كان الجنود يمشون في إثرها بحرابهم المشرعة التي سطعت عليها أشعة الشمس وهي تتخلل فجوة من فجوات الدخان. لم يكن بمقدور أحد أن يتكلم بصوت يرتفع فوق جلجلة محركات الدبابات، لذلك وقف الجميع بجانب الأبواب والنوافذ يراقبون تقدمها وهو يكتسح كل شيء. شعر إيفارت بالخوف لأول مرة. وعلى بعد أميال قليلة غطت دائرة من اللهب إحدى الدبابات فجأة فتوقدت باللون الأبيض الوضاء لحظة من الزمن، وشب لهيبها في الجو كأنها ذابت من شدة الحرارة، ثم حجبها انفجار آخر داخل أكمة من الغبار والبخار.

تقدمت مجموعات أخرى من الجنود عبر الدخان. انفصلت إحدى السرايا عنهم وراح جنودها يصيحون ويصخبون على طول القطار،

يضعـون أيديـهم علـى زجـاج النوافـذ، أو يلمسـون العجـلات الكبـيرة ويحاولون تدوير مسكات الأبواب. الفارس الذي أوقف القطار عاد إلى دوريته. كان رفاقه ينتظرونه، فأخذوا الآن يضحكون تعبيراً عن إعجابهم بعمله البطولي، وهم يشيرون بأناملهم إلى ذلك العملاق الذي انتصر عليه بفعل معجزة. وعلى غير توقع نخس الفرسان خيولهم وانطلقوا في عدو سريع نحو التلال يقتفون خط سير الدروع.

فتح إيفارت باب العربة بدفعة قوية. أخذ الجو يصحو شيئاً فشيئاً، كما أخذ الدخان، بعد عبور الدبابات، في الانقشاع. راح إيفارت ينظر إلى الجنود الواقفين على طول القطار في الخارج والصمت المطبق يكتنف العربة من خلفه. سبق له أن شاهد صوراً لهم من قبل، إذ لم يكونوا أسوأ من أي جنود آخرين، تربط بينهم أواصر الإلفة والمودة دون أدنى ريب. غير أن هذه حرب، وما هم سوى أعداء، وما الذبح والسلب والتعذيب إلا صفة طبيعية ثانية بالنسبة لهم، تشكل أجراً إضافياً عالياً ثمناً لطاقاتهم المهدورة وثمناً لما يحيق بهم من أخطار. كيف يمكن أن تكون شيئاً غير ذلك؟ سأل إيفارت نفسه. بعد انتزاعهم من مدن ومزارع قارتهم الشاسعة المترامية الأطراف، تم تدريبهم ضمن تشكيلات جماعية غوغائية وإرسالهم حشوداً حشوداً لمجابهة الخنادق والخطوط الدفاعية التي شنوا هجماتهم عليها بجسارة نابعة عن قلة الفهم. كانوا بأجسامهم الهزيلة، وجرأتهم، وعظامهم الطرية الغضة، حصاداً للموت، وحصة لا بد لعالم الغناء أن ينالها، يرمون عصفورين بحجر واحدة إذ يدفعون شر العدوان عن الوطن لكي يولد الآخرون في كنف الأمل والسلام، ويعبِّدون الطريق أمام من ولدوا في الوقت ذاته، فيكونون أصحاب الفضل في توفير مجال الحياة وحمايته عن طريق موتهم وغيابهم عنه. كانوا مسلحين بأسلحة خفيفة، وثيابهم لا تكاد تغطي أجسادهم لضآلة قماشها، يعيشون جل حياتهم على أرض محتلة أو على أرض أعيد

الاستيلاء عليها، حيث يوفر بستان تكسوه البراعم الخضراء زاداً لكتيبة تغزوه كالجراد، أو تمنحها قرية دمرتها المدافع الملاذ والمأوى خلال فصل الشتاء. كانوا ريحاً موسمية بصورة جحافل عسكرية في عالم يشكل مناخه خطراً على الرجال، في كرّهم وفرّهم، في هجماتهم المدروسة المنظمة، وفي انسحابهم العشوائي، تضطلع هذه الريح بنسبة عالية من إراقة الدماء فوق أرض بعلية عطشى.

خمد لهيب المعركة، ولم تعد نيران المدافع سوى رعشة خفيفة في المنطقة الشرقية. أشارت ساعة إيفارت اليدوية إلى أن الوقت هو العاشرة. أخذت سحب الدخان والغبار تنقشع عن التلال، كما كانت الشمس النحاسية الصفراء وغير الواضحة تماماً على درجة من الارتفاع لإعطاء الجو حرارة شديدة. رأى أن من الغريب أن تكون المعركة قد ألقت أوزارها، لأن نهاية المعركة تعني نجاة الإنسان من الموت فيما ظهر له أن الموت بات قاب قوسين أو أدنى بالنسبة له ولفرقته الموسيقية. اندفع الجنود الأكثر اقتراباً من القطار إلى أمام ولقموا بنادقهم الآلية وهم يصوبونها إلى النوافذ. كانت أعماق الغابة تنعكس في عيونهم الرمادية الزرقاء، عيون لم تسجل خلال القسم الأكبر من حياة أصحابها أي شيء سوى المجالات الكبيرة الكبيرة الخاوية، من سهول وسلاسل كبيرة جداً من الجبال الزرقاء والأنهار العريضة الفارغة، والمناظر الطبيعية ذات اللونين الخفيفين ـ الأزرق والأصفر، ومع ذلك فقد كانت مناظر قاتلة سامّة مثل أزهار معينة معروفة لها ألوان وظلال مشابهة: فهي تعطي صورة لبلاد يتوجب الركض فيها وراء أسباب الحياة، بإنشاب الأظافر والطعان والاقتناص بالقوة وضغناء الهمجية. كانت عيونهم الغورشيكية تتسم بهذه الأشياء جميعاً، عيون توحي بالهدوء والوداعة، ولكنها استمدت حياتها من طبيعة المناظر المرسومة فيها، فصارت لذلك على تغاير وتنافر مع الهدوء والوداعة.

الفصل الثاني

نزل إيفارت من عربة القطار منادياً بأعلى صوته في أن على أفراد الفرقة أن يشرعوا بتفريغ الأدوات الموسيقية والأمتعة من العربة وتجميعها على الأرض. راح يمشي على طول خط السكة وهو يحضهم على التحرك بسرعة فيما راح الجنود يبتعدون عن طريقه لكي يفسحوا مجال المرور. هبط ستارنبرغ بطريقة غير لبقة وصاح فيه: «لن يكون للأدوات الموسيقية أي نفع أو فائدة»، فانتزع صوته إيفارت من غمرة عمله وردّه مرة أخرى إلى عالم الإلمام بما يحيق بهم من خطر.

– «إن ذلك يوفر لنا عملاً نفعله»، قال إيفارت بجفاء واقتضاب، وهو يشعر بالخوف من فشل مشروعه ومغامرته بسبب تعليق ستارنبرغ العقيم. خلع سترته ورماها تحت أشعة الشمس، وساهمت حركة التفريغ في تخليص جميع أفراد الفرقة من حالة الخوف الذي شل حركاتهم. «ثابروا في العمل»، قال إيفارت بصوت مرتفع، «دعوهم يجدوا شيئاً يحدقون بنظرهم إليه»..

– وبينما كانت أعداد أخرى من أفراد الفرقة يخرجون من القطار،

أخذ جنود الغورشيك يتراجعون خطوة خطوة ويفسحون المجال لهم. كانوا على درجة غير عادية من الهدوء لا تتناسب مع كونهم من الرعاع، ولعلهم كانوا في دهش من أمرهم، إذ لولا صوت واحد كان يعلق على ما يراه ويشير بطرف أُنمله من حين إلى حين، لكان الصوت المسموع الوحيد هو فرقعة البنادق وهي تنتقل من وضع إلى وضع لكي تتمكن سواعد الجنود من الاسترخاء. جعل إيفارت يرفع حقيبة فوق حقيبة، وألقى نظرة وهو ينتصب في وقفته على نسق الجنود الغارقين في التأمل عساه يلاحظ شيئاً من التغيير في وضعهم النفسي. لم يلاحظ شيئاً تحول عنهم لمتابعة العمل، طفق يفكر ويقول لنفسه وهو مندهش لبارقة الأمل المفاجئة: لعل منظر وعبق مقتنياتنا النفيسة الغالية تذكرهم تذكيراً صارخاً بضباطهم وبالبون الكبير الذي يفصلهم عنهم. ومع ذلك فإن إحساس الموت في منتصف ظهره المكشوف الذي خلع عنه سترته يأبى تركه والرحيل عنه.

– «كل ما نحتاجه هو الوقت» قال لستارنبرغ، «وإذا تمكّنا من جعلهم لا يلمسون خوفنا فقد لا يعتقدون أن قتلنا أمر طبيعي».

– «إن الحكم الذي يبنى على مظهرهم الخارجي يشكل منهجاً من الصعب تماماً اعتماده والأخذ به»، دمدم ستارنبرغ في كلماته: «مع أنني أرى من الأفضل اعتماده».

– أخذ إيفارت يتساءل في دهش عما سيحدث إذا ما كفوا عن نشاطاتهم، غير أنه قمع هذه الفكرة المتشككة قبل أن تتحكم به.

– «لا»، قال بنبرة مرتفعة لشخص قريب منه: «لا يمكنك أن تكوم هذه الصناديق الكبيرة فوق الأدوات الموسيقية». ثم راح يضطلع شخصياً بعمل ذلك الرجل، وهو سعيد لإحساسه بالدفء في يديه من ثقل وزن الحقائب التي يجرها ويبعدها عن الطريق. تأمل الجنود المشهد

بصخب أكبر، فولّد صخبهم هذا رهبة أشد من رهبة الموت عند إيفارت: فقد كان يقف أمام أعداء أعظم شأناً من الأعداء الذين لا يستطيعون إلا قتل الإنسان: وبقتله يقضون على ما ضيع عمره في محاولة تمثيله ونشره على الملأ. هكذا أدرك إيفارت إدراكاً كاملاً لأول مرة المعنى الأكبر للفناء والموت. كانت تحيط به قوة غاشمة دأبت على إدخال الخوف على قلبه طيلة حياته كلها، ولكنها قوة لا وجود لها إلا في عالم تصوراته وفي أحلامه المزعجة بين الحين والحين: قوة عقيمة جاهلة وجدت نفسها في غفلة من الزمان قادرة على تدمير شيء عجزت عن فهمه وإدراكه. إنهم سيقضون على الفرقة الموسيقية دون أي مبرر، بنزوة من نزواتهم، شأنهم في ذلك شأن طفل ضجر يقتل النمل على سبيل اللهو في سنٍّ لم يكن يعرف فيه معنى الموت. مع ذلك، فإن القتل في سبيل اللهو كان بالنسبة لهم، عين العقل والحكمة. أراد إيفارت أن يقول ذلك لستارنبرغ، ولكنه لم يرَ أن تبادل مثل هذه الأفكار سيعود بالخير والفائدة على أي منهما.

تم تفريغ العربة وتكديس آخر أداة موسيقية وآخر حقيبة أمتعة. شكلت أكداس الحقائب حاجزاً هشاً بين الفرقة الموسيقية وبين الجنود، الذين أخذوا الآن يصيحون بأصوات عالية جداً مما اضطر أفراد الفرقة الموسيقية إلى رفع أصواتهم لكي يسمعوا بعضهم بعضاً. لم يعد الموضوع إطلاقاً موضوع مناقشة ما يجب عمله، والقسم الأكبر منهم لا يملك ما يقوله بهذا الصدد، فاقتصر رفع الأصوات بالكلام على أولئك الذين لم يدركوا حتى الآن عدم وجود ما يُفعل. سرت فيما بينهم صرخة احتجاج عامة: «كيف وقع مثل هذا الأمر»؟

– وأعقبها صوت متهيج مسعور ارتفع فوق صخب الجنود يقول: «غلطة سخيفة ارتكبها شخص من الأشخاص».

– وتخللت الجدال الدائر صرخة هستيرية نافذة تقول: «كل شيء

ممكن ما دام قد وقع أصلاً. نريد أن نعرف ماذا سنفعل الآن».

– رد عليه بندر بنبرة مترددة: «ولكننا لا نعرف حقيقة الأمر بعد. قد لا تكون هذه سوى دورية استطلاع مسلحة كما يسمونها؛ وهؤلاء الجنود سيعودون إلى خطوطهم فوراً ويتركوننا هنا: وبعدها نصبح أحراراً طلقاء مرة ثانية».

– «دعونا نعترف بالواقع، لقد وقعنا في الأسر».

– «انتظروا تروا».

– جابه أحد الرجال موجة السخط التي أعقبت مقولة الاعتراف بالأسر وطرحت الأفكار المعتدلة التالية: «حتى إذا وقعنا في الأسر، فإن هجوماً معاكساً صديقاً سيشن، وسوف نجد أنفسنا أحراراً قبل هبوط الليل».

– «من المحتمل أن لا نظل على قيد الحياة خلال هجوم معاكس» انبرى أحدهم بالرد، ثم أراد شخص آخر معرفة معنى الهجوم المعاكس، ولكن أحداً لم يكلف نفسه مشقة تفسير ذلك له.

– «لن تسلم رقابنا من هذا الهجوم بكل تأكيد»، صرخ صوت على مقربة من إيفارت تصدى له الآخرون فوراً بالمناقضة والتكذيب.

– «إنني اشك في أن يبقى أحد من جنودنا حياً للقيام بهجوم معاكس». صاح الصوت نفسه بكل شجاعة وتحد بنبرة تعلو على جعجعة الجدال المحتدم. أصاخ إيفارت سمعه هنيهة وهو يقف ساكتاً بذراعين مطويتين ولفافة تبغ في فمه. بعد رهبة الموت العابرة داهمه جو من الصراع الفكري العضال: أشبه بدخول شخص في نهاية مكالمة هاتفية على شبكة الهاتف كلها واكتشاف أن المشتركين جميعاً يتحدثون في آن واحد. الصراعات الفكرية لا تتناسب البتة مع الأمل، راح يفكر في

نفسه، وواقع الأمر أنه لم تكن هناك صراعات ومنازعات. لم تكن هذه الأمور إلا القوى البهيمية العمياء وهي في طريقها للتصرف والعمل. إن جزءاً واحداً من مليون جزء من أصغر فلك في الطبيعة يتأهب للتحرك، ولن يسترعي انتباه أحد لأن كل العوامل التي سبقت وأسهمت بهذه الحركة الصغيرة لدرجة لا يمكن تحديدها لم تُلاحظ أو تلفت انتباه أحد. لذلك لماذا علي أن أهتم وأشغل فكري، أو أحاول منع أية حركة؟ هل يكون الكرب والوجع القاتل مسوَّغاً وجديراً بالتقبل لمجرد تأجيله مرحلة زمنية قد تبدو طويلة بالنسبة لنا، ولكنها قصيرة جداً وإلى درجة يصعب قياسها بالمقارنة مع وجود لا يحده زمان. أخذ خط تفكيره بعد ذلك يسبح في غشاوة وضباب. وعندما رفع نظره إلى الأعلى، شاهد ستارنبرغ يقف إلى جانبه.

- «ما يدور في ذهني هو أن الحكومة قد أرسلت قطارنا عن سابق عمد وتصميم عبر خطوط الجبهة لكي نقع في الأسر. إنني أحاكم الأمور وأخلص إلى هذه النتيجة وفق ما يلي:

- إذا قتلنا الغورشيك عن آخرنا، فإن حكومتنا ستكسب جولة دعائية من الطراز الأول ضد وحشية العدو، وإذا لم يقتلونا، فإنها ستحصل في أقل الدرجات على قرينة تثبت أن جيشنا جيش مثقف، ودليلها على ذلك وجود فرقة موسيقية سيمفونية». شعر ستارنبرغ بالسرور والرضا عن تفسيره هذا. ثم سأل إيفارت: «ألا توافق أنني على صواب فيما أقول»؟

- «خيالك خصيب جداً»، قال إيفارت ساخراً. وجعل نفر من الجنود على مقربة منهم يتجادلون فيما بينهم. أزت عدة طلقات بندقية في الجو أزيز السياط، وأخذ إيفارت يتساءل عن المكان الذي ستسقط فيه العيارات. أما ستارنبرغ فقد مال بوجنته المنتفخة الشاحبة باتجاه

الجنود وقال: «وهؤلاء لا يملكون خيالاً خصيباً، لسوء الحظ».

- بعد ذلك حدث إيفارت نفسه في أن ستارنبرغ على درجة كبيرة من دماثة الخلق لا يجوز معها توجيه أية إهانة له. يستطيع المرء أن يخالفه الرأي إلى أبعد الحدود ولا يرد على ذلك بأي حقد أو شدة - فقد كانت عقلانيته تجعله يكتفي بالدفاع. فقال له ستارنبرغ بلهجة لطيفة معتدلة وهو يدس يديه إلى أعماق جيوب سترته: «لا أعتقد أن مقتلنا أو عدمه يهمك من قريب أو بعيد».

- «اهتمامي بذلك أو عدمه لا يشكل فارقاً كبيراً»، أجاب إيفارت بجفاء وقسوة. سرح بأنظاره عبر السهل، على كتل الدخان التي تضفي عليه القتامة والاكفهرار وهي تأخذ بالانقشاع عن التلال. وعلى حين غرة أجفلهم صفير القطار الذي ارتفع فوق صخب الجنود وضجيجهم. راحت العجلات تتدحرج على طول السكة فارتج كل الذين كانوا يستندون على العجلات والأبواب ووقعوا على الأرض. ثم ضجت فرقعة حلقات الربط الحديدية المجلجلة بترجيع بطيء ثقيل، وابتعد القطار تاركاً الفرقة الموسيقية في وضع مكشوف، إلى جانب أكداس الأمتعة كأنهم جميعاً في كشك لعرض البضائع في السوق. كان هدير حركة المرور المتواصل يملأ الجو، وكانت العربات تتحرك الآن أرتالاً أرتالاً على طول الطريق المجاورة، بدلاً من التقدم على مجموعات عبر المنطقة المكشوفة كسابق عهدها. أخذ زخم هجوم الغورشيك يضعف ويضمحل.

- «كنت فيما مضى دائماً أعتقد أن العالم سيكون عالماً جميلاً لو وجهت كل هذه الطاقات المهدورة المستنزفة في الحروب لأغراض سليمة»، قال ستارنبرغ، «ولكن الطاقة اللازمة لإحلال سلام هنيء مزدهر طاقة صغيرة جداً. السبب الوحيد الذي يفرض استمرار نشوب الحروب على مر الأيام هو أن الإنسان يملك القليل القليل من براعة التفكير».

- لاحق إيفارت بنظراته حركات الجنود المتوعدة على طرف هذا الجمع المحتشد وقال دون أن يحول نظره عنهم: «ليت القطار بقي في مكانه». ثم أضاف رداً على ستارنبرغ : «نعم، أتفق معك. لقد كنت بارعاً فيما خلصت إليه».

- ضحك ستارنبرغ بعصبية ونظر في الاتجاه نفسه ثم قال: «الخطر يجعل الإنسان أكثر تفهماً وإدراكاً. ذلك كل ما في الأمر. غير أن هذه الصورة ليست أزلية. إنني أفضل أن أكون بليداً وسالماً معافى». كانت ركبتاه ترتجفان فجلس على أحد الصناديق. وبينما كان يراقب إيفارت وهو ينقر حجراً صغيراً من الأرض بطرف حذائه، سكت في داخله صوت الرعب الخافت فسأله وقد عاوده قلقه: «لماذا لست خائفاً»؟

- «لأنني لا أجد ما يخيفني أو أخاف عليه».

ابتسم ستارنبرغ وقال: «كلامك يخفي كل شيء، ولا يطلعني على أي شيء. لكأنه سور عقيم من حجر أصم».

- «لو شحذت أفكارك وتمحصت ستعرف أن السبب هو أنه لم يبق شيء يجعلني أخاف، وليس كما تظن وتفكر».

- «بعد ماذا»؟

- لم يجب إيفارت، وأشعل لفافة تبغ ثانية.

- «هل ستخاف لو قتلوك»؟

- أشاع فيه التدخين راحة كبيرة، رغم انه كان هادئاً رصيناً من غير لفافة التبغ، وقلقاً أثناء تدخينها. فقال بكل بساطة: «لا، لن أخاف».

- لوَّح ستارنبرغ بذراعه إلى مكان وقوف أفراد الفرقة وسأله: «هل ستخاف إذا قتلونا جميعاً»؟.

لم يجب. غير أنه لم يكن ثمة مفر من مثل هذا السؤال فرد بعد لحظة توقف: «بالطبع».

كان الجواب تأكيداً لما توقعه ستارنبرغ. أما إيفارت، وقد شعر بما يضحكه بسبب هزة يده القوية فقد غرق في القلق وانشغال البال عندما أدرك القيمة الكبيرة التي يعلقها الآخرون على كلماته. تناول ستارنبرغ منديلاً مطوياً أبيض وجعل يجفف العرق عن جبينه. راح إيفارت يسخر منه ويقول في نفسه: إنه يعتقد أن ذلك يجعلني أكثر إنسانية. أخذت أصوات الشجار تتصاعد من مكان التجمع: فقد كان جنود الغورشيك يندفعون مستخدمين أعقاب البنادق. صاح أحد الرجال يحذّر رفيقه: انتبه إليه. خف الاضطراب واضمحلّ. أخذ إيفارت يتساءل عجباً عن أسباب تلكؤهم وانتظارهم. ألا يزال السبب هو الفضول؟ نحن لا نختلف كثيراً عنهم، على أية حال. نظر بتخوف وقلق إلى مصدر الضوضاء، وهو غير قادر على اتخاذ قرار حاسم فيما إذا كان من المجدي أن يزج نفسه فيه. ليس ثمة ما أستطيع أن أفعله، قال لنفسه. ولكنه عندما نشب العراك مرة ثانية مضى نحوهم، وفي إثره ستارنبرغ.

حفل الجو بالصراخ وهم غارقون في العراك. صوّب جنود الغورشيك بنادقهم وانقضّوا مستخدمين مرافقهم وقبضات أيديهم ينتزعون السترات والأحذية من العازفين، ويشبعونهم ضرباً ولكماً حتى من دون مقاومة. أحس إيفارت أنه يُشدُّ من الخلف، وإذا بذراعين نحيلتين مثل العصي تمسكان به مسكة قوية. ابعد أحد الجنود عنه بلكمة من قبضة يده، ثم أخذ يكافح وهو يكاد يختنق من الغبار وتفصّد العرق لكي يتحرر من براثن أول آسر له. أصابه عقب بندقية بطعنة مؤلمة في ظهره، رغم أنه تفادى الطعنة النجلاء بحركة انحراف أتت منه بالمصادفة. جعل إيفارت يضرب بوحشية، وقد أعانته على ذلك عملية ارتجاج غير منتظرة للقوة الحيوانية الغريزية التي، عندما استخدمها

لأغراض إيجابية على هذا النحو، أزالت دوامات الألم المعارضة التي لا يكون مثل هذا الإقدام الطائش ملتزماً بها أو آبهاً لها.

لم يتح لهم خيار الاستسلام فقد غرقوا في معمعة هجمة منظمة شنها الجنود الذين هدفهم الرئيسي هو القتل للتسلية وللسلب عندما تسنح الفرصة. سقط إيفارت بعد أن نالوا منه في كل موضع من جسده، يشعر بأن ظلمة الكون تطبق عليه. كافح بكل عناد لكي يظل واعياً، وهو في الوقت نفسه يتمنى أن يسمع آزيز العيارات النارية كدليل على بدء المذبحة ونهاية الشقاء والعذاب.

انطلقت رشقات بندقية آلية تلاها صوت قوي يجهر بالأوامر. بدّد هذا الصوت قوة قبضات السفاكين الحديدية وجعلهم يتوقفون في غمرة أعمالهم الرعناء، ويفكون التحامهم مع أفراد الفرقة، ويشكلون بعد ذلك أرتالاً غير منتظمة جيداً على مسافة قصيرة منهم، على الرغم من حبيبات عيونهم العمياء المستشرسة. زحف رجلان بوجهيهما الملطخين بالدماء يبتعدان عن آرمغاردسن؛ وارتفع صوت رجل يحاول أن يتوقف عن النشيج و البكاء - نشيج لم يسمع أحد أشنع منه قبل الآن - ثم خيم الصمت، وقف إيفارت بتثاقل وبطء ومسح الدم من كشط أصاب يده. لم يُصَب أي واحد بجرح بليغ فتجمع الجميع حول كومة الصناديق التي تحطمت بعض أغطيتها بأعقاب البنادق أو فتحت قسراً وعنوة بالحراب من قبل الجنود الأكثر مكراً وحنكة.

شق الضابط الذي أطلق العيارات النارية ممراً بين الجنود، وبما أنه لم يكن بارعاً تماماً في علم التكنيك، فقد وقف بينهم وبين أفراد الفرقة، كان حذاءه المطلي جيداً وبزته العسكرية الأنيقة صوة مناقضة تماماً ما تشيعه من طمأنينة وأمل بالخير لصورة أولئك الجنود الرعاع، الذين راحوا ينظرون بمرارة إلى المغانم الضائعة، وهم الآن غير قادرين

على فهم الأسباب التي منعتهم من الانقضاض عليها غب رؤيتها مباشرة، تقدم كثيرون منهم وهم يضغطون على مسامير الأمان في أسلحتهم، فراح الضابط يصرخ بصوت جهوري قوي، يحذرهم دون أدنى شك من مغبة الاقتراب أكثر. وقف إيفارت ورفاقه بلا حراك، يرقبون جرأته ثقته الرائعة بنفسه أمام ما تبدى لهم خطراً محدقاً، يستشعرون السلامة التامة في ظل عهدته ورعايته، مع أن ما من أحد بينهم كان يفهم ما يقوله، نظر إلى ساعة يده، ثم نظر إلى الجنود، ثم جأر بعبارة قوية أخرى. صاروا أكثر هدوءاً، وإن لم يكن بمقدورهم حتى الآن الكف عن التفكير بالسهولة التي خسروا فيها مثل هذه الغنيمة النفيسة. فك الضابط سوار مسدسه عندما ظهرت حركة مفاجئة بين صفوف الجنود. كان بعضهم قد أنزلوا بنادقهم عن أكتافهم.

جأر الضابط بصوته مرة ثانية وكان على الرغم من نبرة صوته الغاضبة يبتسم لهم في الوقت نفسه، وكانت ابتسامته ترتكز على العضلات الوجهية نفسها التي ارتكزت عليها وهو يجأر بالأوامر المتوعدة. كان رجلاً كبير الهامة، له منظر تلميذ وسيم الوجه وكبير الجسم، ترتسم عليه أمارات الوقاحة المستفحلة وكانت تصرفاته غير المنطقية وغير المتوقعة تصدر دون أدنى ريب عن عقل لا يدرك هذه الميزة المتهورة المضحكة. سحب المسدس من حزامه وأصلاه وهو يضحك كأنما يفعل ذلك بسبب البدعة الطارئة التي تضطره لاستخدامه.

أخذ الجنود يتقدمون وصفوفهم تتقوّس في الوسط، بينما لزم المكرهون على التقدم بينهم الجناحين. بزأرة من زأرات الغضب المرتبك تكسَّر الوسط، ووقف عد من الجنود في المنطقة الحرام، ووجوههم الهزيلة المتطاولة تنطق بالقسوة والصرامة، وعيونهم الرمادية الزرقاء عالقة بأفراد الفرقة وبأكوام أمتعتهم. تراجع الضابط إلى الوراء، واختطف الرشاشة الآلية من حاجبه، ثم جعل يمثل بها، دافعاً إحدى

قدميه إلى أمام وضاغطاً البندقية إلى جانبه، ثم تراجع إلى الوراء وتقدم مرة ثانية، ممثلاً إجراءات رمي المتمردين بالرصاص. لم يتابع عملية التمثيل هذه إلا دقيقة واحدة. وبعد ذلك، إما بسبب تعبه وعنائه، وإمّا بسبب سوء التقدير (فقد تراءى للجميع أن تصرفاته نوَّمتهم تنويماً مغناطيسياً أو جعلتهم على الأقل يفكرون ملياً في الموقف)، بعد ذلك تراجع الضابط خطوات إلى الوراء يترقب التطورات. راح يبتسم ابتسامة عريضة كأنه يستمتع بهذا الأداء المسرحي الذي أخفق، كما تبيّن الآن، سواء في أثره التنويمي، أوفي كونه تحذيراً لهم، لأن أحد الجنود اقترب كثيراً منه حتى كاد يلتحم به. هشم عقب البندقية الفولاذي رأسه، ولم تبارح الابتسامة وجه الضابط إلا عندما تحرَّج الموقف على هذا الشكل.

فتح الضابط النار، دون القيام بأية بهلوانيات أو خزعبلات أخرى. حولتهم الطلقات السريعة تراك تراك، إلى شرذمة من الراقصين المسعورين، ثم إلى بهلوانات وهم يتمعجون بصورة غريبة شاذة ثم أخذوا يتساقطون جرحى يلفظون أنفاسهم فوق الحجارة. الملاحظة الوحيدة التي لاحظها الجميع فيما بعد في خضم جو الرعب العام هي أنه أثناء إطلاق النار الحقيقي، ولما كانت الطلقات تخترق اللحم، لم تصدر أية صرخة عن الجنود. فرغ مخزن الرصاص ووقع على الأرض، فداسه الضابط بحذائه، كأنه يريد أن يسحقه لأنه بات عديم الفائدة بسرعة كبيرة. ران الصمت والهدوء لفترة سكتت فيها المدفعية الثقيلة على التلال، استعادت أصوات السلام عافيتها من جديد، وشمل ذلك زقزقة بعض العصافير الحزينة البائسة.

لم يتكلم أحد من أفراد الفرقة أو يتحرك. ألمَّ الحذر بإيفارت عندما شاهد وحشاً بدائياً يقطع بأسنانه طرفاً من أطراف رجل لم تعد تقوم بوظيفتها على ما يرام. عيَّن الضابط الغورشيكي عناصر طوارئ حول الفرقة الموسيقية وصرف الباقين إلى أجمة أشجار في المنطقة

المجاورة. أشار لإيفارت بالجلوس، راح يشرح لستانبررغ باللغة الألمانية بأن الشاحنات ستأتي عما قريب لكي تنقلهم إلى قرية المقر العام، جاء نفر من الجند، كمبعوثين عن رفاقهم، نحو الضابط، الذي أعلن لهم عن موافقته بالسماح لهم في نقل جرحاهم، شريطة أن يقوموا بدفن الموتى. وقفوا بعيداً عن مجال الرؤية، تحت مستوى تبة من الركام، حجب دوي نيران المدفعية آهات وأنات الجرحى، فرقعة المعاول التي تحفر الأرض الصخرية الصلبة.

تبدّد كل أمل ورجاء يمكن أن تتعلق به الفرقة الموسيقية. (إن نجاتهم من الموت على هذه الصورة لم تكن بالنسبة لإيفارت سوى تأجيل مؤقت لموتهم ليس إلا. لقد أُعطي لأمثال هذا الضابط من الرجال حق الاضطلاع بأعباء العالم، وهودون اعتماد أية فلسفة تسوّغ أعماله وتصرفاته، كان يرتكب بيديه جريمة فلسفية شأنه في ذلك شأن رجل «متفوّق» «سوبرمان» هيغلي محافظ يقتل بطرس لكي يتمكن فيما بعد من قتل بولس). كانوا يجلسون أو يتمددون كرجال بلغ فيهم اليأس أشده: رجال كفّوا عن الكلام ومات فيهم الأمل ولم تتداع أفكارهم إلى مرحلة كان فيها الأمل أمراً ممكناً، كما لم يسترسلوا بأفكارهم إلى زمن قد يكون فيه الأمل ممكناً مرةً أخرى. ماداموا وصلوا إلى هذا المكان أصلاً، فإن الأمل أصبح عقيماً مستحيلاً، ومادام القائد قتل جنوده دون أية روية أو تفكير، فقد تبين لهم أنهم لن يعرفوا طعم الأمل مرةً ثانية من قريبٍ أو بعيد.

جلسوا يدخنون، بعضهم يتبادلون الحديث، وأكثرهم ينظرون إلى الضابط الذي وقف أمامهم بساقين متباعدتين مثل إله فقدوا إيمانهم به. كان نفر منهم لا يفعلون شيئاً سوى أنهم يُصيخون أسماعهم فاغرين عند ارتفاع وخمود دوي القصف: ففي واحدة من فترات التصعيد أخذت حدة دوي القنابل ترتفع وترتفع، كأن هزةً متصاعدة القوة تهدد بشطر

الكرة الأرضية كلها، وعندما بلغت ذروة قوتها، رانت لحظة صمت خاطفة، كنثرة من زمن حلم سرقت من عالم الصخب والضجيج. وعلى إثرها انطلقت المدافع من جديد دفعة واحدة، واستمرت بكامل قوتها لمدة نصف دقيقة من الاضطرام، كأنها حشرجة الختام المريعة لوحش يُحتضَر. ثم توقفت بصورة مباغتة ودون سبب معقول، كما بدا لهم.

كان ستارنبرغ يتحدث مع الضابط بلغة ألمانية ملحونة تعلمها من أيام الطفولة. رفض الضابط لفافة تبغ قدمها له فاعتبر ذلك بداية غير مواتية وقال له معللاً : «أنا لا أدخن أيضاً ولكنني أحمل هذه العلبة من أجل الأصدقاء. إنها تساعد على تبادل الحديث».

- «هل يدخن أصدقاؤك، إذاً»؟

- «ألا تراهم»؟

- نظر الضابط إليهم وسأل: «هل ذلك لأنهم في هلع»؟.

- «أظن ذلك». تكبد ستارنبرغ مشقة كبيرة في النظر إلى وجه الضابط، لكنه عندما فعل ذلك لاحظ أن الوجه لم يكن وجهاً مقيتاً، ثم راح يفكر في كيفية إطلاقه النار على جنوده وقتلهم.

- «لماذا هم في هلع»؟ سأل الضابط.

- تراءى لستارنبرغ أنه إنما كان يتكلم بدافع من فضول بليد فارغ، أو عن رغبة ساذجة في عرض معرفته بلغة ثانية فأجابه:

- «الحرب تجعلهم في حالة هلع وحالة عصبية، ثم إنهم أسرى».

- لم يستطع الضابط أن يفهم ما سمعه فسأل ثانية : «ولكن لماذا يجعلهم ذلك في حالة هلع»؟

- «لأنهم يعتقدون أنهم سيقتلون». ثم أخذ ستارنبرغ يركّز

انتباهه على استجابة الضابط لهذا القول.

– لمعت عينا الضابط وابتسم قائلاً: «ليس من الضروري أن يكونوا خائفين».

– آثر إيفارت أن لا يسأل أي سؤال آخر بعد أن توصل لما كان يبتغيه وينقب عنه، ولكنه مدَّ ذراعيه باتجاه صوت القصف وسأل: «لماذا لا يزال هناك كل هذا الصخب»؟

– «مدافعكم تحاول أن توقف تقدم جنودنا»، قال الضابط وهو يبتسم، ويضرب على المسدس في نطاقه.

– «هل سينجحون في ذلك»؟

– «نعم فلديكم مقدار كبير من المدافع، ولكننا سوف نخرق المنطقة بعد انقضاء فصل الشتاء. إن جنرالنا على درجة عالية من البراعة والحنكة».

– «ربما تستطيعون ذلك«، قال ستارنبرغ بتكاسل وضجر. أقبل رتل من ناقلات الجنود الثقيلة على الطريق، وأخذ الجنود الواقفون إلى جانب الأشجار يمشون نحو مكان توقف الناقلات «هذه الناقلات من أجلكم»، قال الضابط، ثم أضاف: «إن على أفراد الفرقة أن يركبوا الناقلات لأخذهم إلى القرية».

– لقد كان وصول الناقلات إنقاذاً لهم، ومنفذاً للتخلص من الغبار والدخان ووساوس الشك الشالّة المتعلقة بالمصير الذي سيحل بهم. وعلى جناح السرعة تشكلت خلف الناقلات طوابير من أطوال متوازية، في مؤخرة كل طابور جندي مسلح على صورة الإبرة السامة اللاذعة في ذيل العقرب، يقف على أهبة الاستعداد للتدخل إذا ما ندّت أية حركة في غير محلها. تم رفع الأدوات الموسيقية والأمتعة بكل عناية على الشاحنات إلى الخلف منهم ثم أوصدت أبواب الشاحنات الخشبية

الخلفية بمزاليج فولاذية وبصورة متينة مضمونة. هدرت محركات الشاحنات، وركب الضابط نفسه في الشاحنة الأخيرة، ثم سارت القافلة تحت حرارة شمس منتصف النهار، دون أن تخلّف أي أثر يدل على أسرهم فوق فسحة الأرض المغطاة بالحصى إلا تبّةً ناتئة لجنود نصف مدفونين تحوّم فوقها طيور سوداء اللون ذات أجنحة كبيرة ومناقير منجلية بكل خفة رشاقة.

كان إيفارت، وهويدخن غليونه، لا يزال يعيش في حالة من رباطة الجأش اللامبالية وكأنه في حلم. هذا وعلى الرغم من أنه كان يرتجّ ويتخلص من هذا الوضع عند منعطف حاد على مفارق الطريق، فقد كان يعود إليه كلما سارت الشاحنة باهتزازات خفيفة منتظمة عبر السهل. إن الخيط الواهي الذي اعتقد عدد غفير من الرجال أنه كان يفصلهم عن الجبن صار في أحيان كثيرة أكثر اتساعاً وشدة مما كانوا يتصورون. واعتماداً على هذه الحكمة المأثورة دون سواها، استطاع إيفارت أن يعلل مشاعر عدم الاكتراث التي انتابته إزاء كل ما حدث في غضون الساعات القليلة الماضية. ومع ذلك فإن الخوف كان يقبع في مكان ما بداخله، كما تأكد له، وهو خوف أشد حلكة وفتكاً مما قد يشعر به الآخرون، لكنه ذُعْرٌ أكثر تخفياً واستتاراً، لم يستطع إيفارت إدراكه إلاّ من خلال عصاب بدني خفيف، وشعور عارض مؤقت بفراغ الذهن الكامل. وإذا ما تيسر لهذا الفراغ أن يمتلئ في وقت من الأوقات، فلن يمتلئ بغير الخوف. أما إيفارت من جانبه، فقد كان يقسم الخوف إلى قسمين: الخوف من الموت، بما فيه الخوف من الألم الجسدي؛ خوف عام على وفاة أو فناء شيئ آخر غيره شخصياً. ولكن ستارنبرغ، الذي كان يجلس إلى جانبه على المقعد الخشبي مثل ظل ملازم له، قطع عليه سلسلة أفكاره وطرح السؤال التالي:

- «ماذا تتوقع لنا من فرص»؟

- نظر إليه إيفارت وسأله: «فرص ماذا بالتحديد»؟

- «فرص الحياة».

- «معقولة».

كان رجال آخرون يستمعون لهما، وقلوبهم متأهبة للقفز والتعلق بأية كلمة إيجابية في صالحهم. تابع إيفارت حديثه وقال: «لماذا يجب أن نكون في خطر؟ لسنا جنوداً. وقد يكون الضباط في القرية أكثر لطفاً وكياسة من الرعاع الذين شاهدناهم قبل قليل». طفق إيفارت بعد ذلك يفكر ويقول في نفسه: إن سماحتي وطيب محتدي هو الذي يتكلم، موقف سمح تجاه بشر قضَّ الخوف مضاجعهم. لماذا أكذب؟ هل لأنني لا أثق بهم؟ أم لأنني لا أثق بنفسي؟ هز كتفيه وتعلق بعوارض الدعم الخاصة بالشاحنة وهي تقفز فوق ساقية في الطريق. لو كنت خائفاً مثلهم لتمكنت من مساعدتهم. كانت فتحة السماء في مؤخرة الشاحنة المتشحة باللون الأزرق الشمسي، مثل أي مكان آخر من العالم لا يقيدها زمان أو مكان. فهي العين الكونية التي تتابعهم بنظرها حتى نهاية رحلتهم. وفي مؤخرة كل شاحنة كان يوجد حارس غورشيكي، مع بندقية وحربة مشرعة كنقطة علام على مقصدهم وغايتهم. حياة الفرقة وموتها. الحربة إلى جانب الكمان، وآلات النفخ الموسيقية إلى جانب البنادق، والقنابل إلى جانب الآلات النحاسية الصداحة. في الماضي، راح إيفارت يحدث نفسه، غمرت المياه حضارات عن بكرة أبيها، وغمرت فيما غمرت اللغة والموسيقا الأدب وكل شيء. الوضع لا يختلف في شيء بالنسبة لنا. إن الموسيقا التي نضمن أن يتذكرها الناس قد تتعرض بالتدريج للترشح خارج الأثير وتفنى هل هذا شأن عظيم وخطب فادح؟ سوف تعود الموسيقا. إلى الرواج مرة ثانية بعد عدة قرون، وإن كانت موسيقا مختلفة تماماً عن موسيقانا. ولكن أية أهمية لذلك ؟ هل

يضـيرني فـي شـيء إمكـان انقراضـها وفنائـها ؟ قـد تختفـي فجـأة مـن الوجود، ولكن السبب أنه لم يستطع أن يقرر فيما إذا كان مثل هـذا الأمـر يعنيه من قريب أو بعيد. وجد إيفارت نفسه يشخص بناظريه خـارج الشاحنة، إلى التربة البنية الجافة في الطريق المستقيمة هناك.

رفع نظره إلى الوجوه المقابلة له، يريد معرفة ما ينطق به كل وجه عندما يفتح فمه. كان اهتزاز الشاحنة المطرد يضفي على عيونهم مظهر الإعياء الكئيب، كأنها لم تذق طعم النوم من أيام وأيام، أو أنها أمضت ردحاً طويلاً من الزمان بلا أمل وبلا حياة. كان ضجيج محرك الشاحنة مرتفعاً إلى درجة لم يستطيعوا معها محاولة التحدث فيما بينهم لقد ارتسم مظهر الإعياء اللا معبّر نفسه على وجه ستارنبرغ، واتجهت مقلتاه إلى الداخل وجهة إعيائهما فراح إيفارت يتسائل بدوره إذا كان هونفسه ساهماً مبهور البصر في نظرهم. كانوا يجتازون مجموعات من البيوت الخشبية المركومة على أطراف قرية كبيرة.

وعلى حين غرة أخذ تخلخل الهواء يشد إيفارت ويدفعه فوضع إحدى يديه على كتف ستارنبرغ لكي يمنع عن نفسه السقوط. توقفت الشاحنات أمام منزل كبير، ثم نزعت مزاليج أبوابها الخلفية لكي يتمكنوا من النزول منها. مد إيفارت ساعديه وجعل يتثاءب ظهر ستارنبرغ في خوف من عملية القفز، فراح من كانوا وراءه يدمدمون بالكلمات يطالبونه الإسراع في النزول، و لذلك أمسك إيفارت بذراعه وساعده على الوقوف بثبات عندما قفز من باب الشاحنة.

- «وصلنا أخيراً»، قال إيفارت. «هل تتساءلون معي أين سنسكن ونستقر»؟ أخذ ستارنبرغ يطوف بنظره فيما حوله كانت فرق الأشغال تنظف الدبش من منزل دكّته المدافع على الطريق بعد أن خلع الرجال القسم الأكبر من ثيابهم تحت حرارة الشمس. كان القسم الأكبر من

القرية قد تحول أطلالاً وخرائب، كما كانت الطريق العريضة التي تؤدي إلى وسط القرية محددة بخطوط متماوجة من أعمدة الهاتف المتداعية. شق صوت دراجة نارية صاخب لجب بكامل اختناقه البخاري عباب الهواء المشحون بالغبار. كانت سيارات أركان الحرب تأتي إلى الساحة الموجودة أمام البيت أو ترحل عنها خلال ثوان معدودات، وهي تنفث غيوماً من الرماد الأشهب المتناثر يخيل للناظر أنه يقذف من مخازن سرية داخل كل إطار من إطاراتها. وقف نفر من الضباط يتبادلون الحديث بجانب مدخل المنزل، بينما راح كلب أشبه بالهيكل العظمي يحدجهم بنظرات الأسى والحداد من فوق سلم المنزل.

صرف الضابط الغورشيكي الشاحنات، ثم اقترب من إيفارت قال له وهو يشير بيده: «مادمتم هنا، ستستقر أنت وجماعتك في تلك الحظيرة، والطعام سيصلكم خلال نصف ساعة وبعد ذلك ستقابل الجنرال».

توجه الضابط لكي يعطي أوامره للجنود الذين كانوا يقفون صامتين بعيون فارغة لا تفقه شيئاً، فأخذوا يحملون الأدوات الموسيقية وصناديق الأمتعة وينقلونها إلى داخل الحظيرة عبر الطريق فتح الجنود بوابات الحظيرة العالية المتداعية ودخل إيفارت مع أفراد الفرقة إليها.

الفصل الثالث

بعد أن ابتلع الجنرال قرصين من أقراص الفحم وهو لا يزال على مائدة غرفة الطعام، انتظر صابراً متجلداً زوال التجشؤ. صارت بقايا المائدة ـ من قوارير خمر، وسكاكين، وأكواب، وعلبة دخان ـ جلية واضحة كأنها استنارت وتزخرفت في واحدة من تجليات قديس متصوف، كما أن حرقة كانت قد بدأت معه في المعدة قفزت إلى حنجرته.

هذا أحسن، حدَّث الجنرال نفسه وهو أقرب إلى الوعي الطبيعي، إنه أحسن. تجشأ مرة ثانية، فصب وهو يبتسم جرعة أخرى من شراب البراندي. وعندما شعر بحركة عند مرفقه، مال على أحد جانبيه لكي يتمكن حاجبه من أخذ كوب القهوة ـ فالبيت المستولى عليه حافل بالأطعمة الفاخرة التي كان العدو يمتاز بها عنهم ـ ثم مد ساقيه المطوقتين بطماق قصير حتى استراحتا فوق دعامة الطاولة الرئيسية في الأسفل. وبينما كان يدخن، أخذت العبارات التي سينشئ بموجبها بلاغه الرسمي للقيادة العامة تترى في ذهنه.

«تقدم صاعق لمسافة خمسة وثلاثين ميلاً في الصباح، وصلت به

وحداتنا بقوتها المدعمة إلى التلول السفحية لنطاق الدفاع الرئيسي عند العدو. إن رأس جسر العدو على قطاعنا من الجبال، الجسر الذي كان الجنرال يفكر في التمسك به خلال فصل الشتاء ليشن هجومه منه في الربيع، قد تم احتواؤه، وسحقه ودحره من قبل قواتنا بنجاح باهر بحيث أن الموقف التكتيكي النهائي على هذه الجبهة قد تحوّل تحولاً كبيراً ملموساً لصالحنا».

دغدغت ألحان قصف القابل المتقطع مشاعر الجنرال ونقلته إلى عالم من الصفاء، والهدوء الكامل. وعندما شعر بشيء من الشد في نطاق سترته القصيرة الضيقة فك ثلاث عينات منه وتنّهد من أعماقه تنهيدة الانشراح المنعش.

«ثلاث وعشرون قرية تم الاستيلاء عليها على طول جبهة من خمسين ميلاً. إنزال إصابات لم يكتمل حصرها وإحصاؤها. تدمير مئات من الدبابات والعربات الآلية أو الاستيلاء عليها. التقارير النهائية الكاملة سترسل في غضون الساعات القليلة القادمة. إصاباتنا تتراوح بين المتوسطة والبليغة. تم إنشاء مقر عام جديد في موقع متفق عليه».

إن معنويات الجنود العالية خارج المنزل شكلت في اتحادها مع دسم رفاه الجنرال خليطة تشرح القلوب وتبعث المسرة والفرح.

حرك يده ببطء إلى منفضة الدخان جعل يضرب سيجاره على حافتها، بحيث أن فتيلاً كاملاً من الدخان سقط سالماً معافى على أرضية المنفضة الصقيلة اللامعة. أمعن النظر إليه ثواني معدودة ثم جعل إبهامه ينزلق ويحوله إلى مسحوق.

كان الغرض من هذا التعرض الهجومي المحدود فتح طريق سالكة أمام الهجوم النهائي الحاسم في الربيع. وبينما لا تكون قواتنا مكشوفة جداً في مواقعها الشتوية لمضايقات العدو فإنها سوف: أولاً، تستثير

هجمات العدو المعاكسة عليها فتستنزف مجاميع الدعم والتعزيز القتالية. ثانياً، تحافظ على قوة مواقعها الأمامية من أجل هجوم الربيع، الذي سيكون هدفه الرئيسي الوصول إلى العاصمة القديمة. وهذا ما سيرتب اندفاعاً لمسافة ألف ميل عبر سلسلة الجبال الرئيسية والأنهار والسهول....

أخذ الجنرال يستفيض في تفاصيل وتعقيدات خطة إستراتيجية دقيقة مدروسة. لعلَّ من الأفضل أن يكتب مقالة، ويلقيها كمحاضرة درسية على ضباط أركان الحرب خلال شهور فصل الشتاء القليلة النشاط. نعم،هذه فكرة طيبة تماماً. سوف يطلب رسم الخرائط التي توضح اتجاه الهجوم الرئيسي، كما سيحصل على رسوم بيانية من فرع اللوجستيك تبين معدلات التعمير العسكرية اللازمة قبل شن الهجوم.

لقد اعتمد تحقيق عنصر المباغتة في الهجوم على فشل جهاز مخابرات العدو، كما اعتمد على خطة جديدة مبتكرة في دفع القوات بمجاميع كبيرة في ظل التمويه الكامل إلى نقاط تبعد خمسين ميلاً خلف الخطوط،ثم إلى داخل غابات على بعد عشرة أميال خلف الخطوط، ونقلها بعد ذلك إلى الخنادق الأمامية عبر أنفاق تم حفرها قبل عدة شهور من قبل فرق الأشغال تحت الأرض. كما تم إنشاء مراكز تجمع لكي تتمكن الدبابات والجنود من التجمع فيها بأعداد كبيرة من أجل هجوم مباغت إلى داخل خطوط العدو مباشرة. هكذا إذاً، وبناء على عملية إعداد وتحضير شاقة تم إحراز نصر تكتيكي، نصر يمهد الطريق أمام هجوم استراتيجي واندفاع كبير في الربيع القادم.

الهجوم الفعلي الكبير سيشن بعد إلقاء محاضرته، وما أن لاحت في ذهنه تفاصيل الهجوم حتى ظهرت له بسيطة ومهلكة للعدو، وفرحة نصر بالنسبة لإدارة الحرب البارعة الدؤوب: إذ سيتم القيام بأربع

هجمات مضللة أولاً، هجوم على بعد خمسة وعشرين ميلاً شمالي الموقع الحقيقي الذي سيتم خرقه، وسيكتشف العدو بسهولة أن هذا الهجوم خدعة. ثانياً، هجوم في منطقة الخرق الحقيقية سيبدو لهم أنه خدعة أيضاً. ثالثاً، هجوم عبر خط سكة الحديد الرئيسي خلال الجبال، وهذا الهجوم سيباغت العدو ويجعله يراه تحركاً آخر من تحركاتي الجريئة المبتكرة، ويعتبره حقيقياً تماماً. أما الهجوم الرابع فهو تنفيذ الخرق كما ورد في البند الثاني. سيكون هذا القاطع قد أصبح هادئا، وسيتم شن الهجوم الفعلي منه بينما الهجوم المزيف الثالث لا يزال متواصلاً. هذا وينبغي تحديد مواقيت هذه الهجمات جميعاً تحديداً دقيقاً.

سوف يكتب الجنرال في وقت لاحق مقالة فكرية بحتة يلخص فيها نظرياته عن ملكات الخيال الفني الموظفة لخدمة فنِّ الحرب والقتال. ربما تشكل هذه موضوعاً لكتاب صغير أيضاً، يكون تتويجاً رمزياً ليومياته السابقة، ومجلداً يضاف د ون أدنى ريب لمنهاج دراسات أركان الحرب، ويُطبَع مراراً وتكراراً من قبل الدولة. لم يستطع أن يفكر بمكافأة أعظم من هذه المكافآة لقاء تفانيه الغيور وتكريس عمره لفن الحرب.

لقد اعتمد الهجوم الثلاثي الشعب خطوطاً توجيهية ليس لها نظير، فحقق نجاحاً كاملاً شاملاً. طفق ذهن الجنرال يتوسع في دراسة التمارين التكتيكية المعقدة حتى تخلل شعاع الشمس كأس البراندي ودبَّ فيه النعاس. رأى أمجاد سيرته العسكرية ماثلة أمامه على جرف صخري وضَّاء، حيث غُرزَت السهام أولُفَّت بالأسلاك على سطحه المضيئ فوق مصورات تم فيها تعليم ما تحقق من الأهداف في نهاية كل خط من خطوط الفصل.

استيقظ من غفوته فجأة. تساقط الرماد من سيجاره وتحول إلى

مسحوق على ركبة بزته الرسمية. ألقى، وهو ينفض الرماد، نظرة على الكونوغراف فوق معصم يده. كان يشير إلى الساعة الخامسة عشرة وثلاثين دقيقة. لم يخلد للنوم لمدة ثلاثة أيام.لقد تحول تعب التخمة الذي ألمَّ به بعد الغذاء إلى حالة إجهاد كامل فدفع كرسيَّه عنه، وتثاءب، وتمدد، وأحسّ بعد ذلك بشيء من الصفاء في عينيه، كما أخذت آلام الروماتيزم تفارق كتفيه. راح يمشي، وهو يمسد قطعة متجعدة في سترته الصغيرة، بخطوات قصيرة نحو الباب الذي يوصل إلى مكتبه، حيث دخله بخطى مديدة كلها جلال وأبَّهة.

كانت الجدران مفروشة بالخرائط. كانت بقع كبيرة ترمز للغابات الخضراء قد رسمت في حاشية سفوح الجبال الأرجوانية المظللة بلون أخف، كما كانت مدن المناطق الصناعية المعلمة بالحبر تتشابك وتتصل مع بعضها بالطرق وسكك الحديد كبيت العنكبوت؛ فيما كانت السهول الفسيحة في الجنوب خلواً من أي شيء، وأما بالنسبة للقرى الرعوية المبعثرة وخيوط البحيرات الجافة التي تشبه خيوط الحرير، التي أحيطت وأغفل شأنها بسبب الخطوط التي تشبه خيوط القطن والتي تدل على تعرجات الأنهار الشاردة وبين فتحة النافذة وركن الجدار كانت تتدلى لائحة من المعطيات التوضيحية، مثل أعمدة الرموز الملونة على لوحة الصلاة في الكنيسة أو المعبد، مزودة بمقاييس دقيقة وتعليمات هامشية تدل على مناسيب التكبير. وتدلَّت على الباب لوحة تبين قوى الفرقة الخاضعة لإمرته وقيادته، وقد توزعت توزيعاً دقيقاً مرتباً إلى أفواج وكتائب لها أرقامها الخاصة وعلى مقعد خشبي بسيط ركِّبت ثلاثة أجهزة هاتف ميدانية، كما طُرحت الأوراق ورُتِّبت في كراسات لكل منها عنوانها الخاص أما بجانب الباب، فقد تدلّت صورة واحدة فريدة، هي صورة لبطل غورشيكي قضى نحبه من عهد بعيد، وتقضي أوامر القيادة العليا بتعليقها في كل مقر عسكري.

أغلق الجنرال باب المكتب، فأشاع فيه وجود الخرائط من حوله إحساساً من المهابة الشعرية الخيالية كان وهو ينتقل من جدار لآخر ينتشي وينسلب لبه إلى حد كبير من روعة تصميمها، وينسحر انسحاراً متحفظاً برموز خطوط سكك الحديد السوداء المتمعجة والأشكال الهندسية المتنوعة لامتدادات السهول والغابات. لا شيء يستطيع تشويه المصورات الطوبوغرافية، قال يحدث نفسه؛ فهي تصوير صحيح وعلى أتم الدقة لسطح الأرض، تتوضع عليه علامات عديدة ومتباينة لمنجزات الإنسان والطبيعة بكل بساطة.

جلس في الكرسي المريح خلف طاولته، وهولا يزال يشعر بالتعب، وإن كان يخفف عنه نَفَس الإنجاز المأثرة الذي أسبغه عليه هجومه البارع الساحق الأخير. كان يقرأ بإمعان اللائحة الأولى من بيانات الإصابات عندما سمع قرعة على الباب.

– «ادخل»، صاح الجنرال.

– فُتح الباب ثم أغلق، وسمع الجنرال وهو منهمك في حساباته وقع خطوات عبر أرض المكتب الآجرية، ثم أحسَّ بنفحة هواء وحركة يد خفيفة على قماش البزة العسكرية وهي تعود لوضعها بعد أداء التحية العسكرية. وبعد أن قدَّر بصورة تقريبية إجماليَّ إصابات إحدى الفرق، سأل دون أن يرفع بصره:

– «نعم، ماذا تريد»؟

– «أنا النقيب كوندال، يا سيدي».

– طرح الجنرال الأوراق جانباً. أشاع مظهر الضابط السرور في قلبه، فقد كان بقامته الفارعة، ووجهه الحليق الذي ينم عن قدر كبير من الطمأنينة والرضا دون تبسم فعلي، وبزته العسكرية النظيفة المشدودة على جسمه بصورة مناسبة، يقول: إن له هو أيضاً بعض المنجزات التي

تبعث السرور في نفسه. أشار الجنرال إلى كرسي وقال: «ماذا في الأمر؟ اجلس، ياكوندال».

- امتثل للأمر وهو يقول: «سيدي، هذا الصباح، وفي طريق عودتي من موقعي المتقدم، أسرت عدداً من الرجال».

- سحب الجنرال قدميه حتى استقرتا تحت الكرسي، وراح يضرب على الطاولة بالقلم الرصاص، محاولاً تركيز تفكيره على هذا الخبر المبتدع الذي سدد ضربة له في مؤخرة حملته العسكرية فقال وهو يعبس عبوساً قمطريراً: «أسرى»؟

- شعر كوندال بغضب الجنرال واهتياجه وقال: «نعم، يا سيدي، كانوا ....»

- «كم عددهم»؟: قاطعه الجنرال

- «ثلاثة وتسعون، يا سيدي».

وقع القلم من يد الجنرال وتدحرج على أرض الغرفة ثم قال محتداً وهو ينظر إلى النقيب: «ليكن عددهم ما يكون. أنت تعرف حق المعرفة أننا لا نأخذ أسرى تحت أي ظرف. إن أخذ الأسرى يرتب علينا مشاكل وتعقيدات نحن في غنى عنها. إذا أخذنا أسرى سنحتاج إلى نصف جيشنا لحراستهم، والأسرى لا يعملون بتاتاً، ولذلك فهم عديمو الفائدة بالنسبة لنا إن هذا موضوع آخر قد أتي على ذكره في كتابي».

- «خطر لي أن هؤلاء الأسرى سيفيدون في الاستعلامات، يا سيدي».

- «يجب أن لا يخطر لك أي شيء خارج حدود القوانين المرسومة». صاح الجنرال. «ثم إن لدي وسائلي الخاصة في جمع المعلومات أضف إلى ذلك أن الجنود لا يتحلون من قريب أو بعيد بالمعرفة

التي تمكنهم من إعطاء معلومات جيدة، والذين يملكون المعرفة لا يتورطون إطلاقاً في موقف يعرضهم للوقوع في الأسر».

– رد النقيب وهو لا يزال مقتنعاً قناعة تامة بأنه تصرف تصرفاً سليماً قال له: «هؤلاء الأسرى من طراز آخر، يا سيدي».

– أخذ الجنرال يضحك بتهكم وسخرية وقال: «يتعين علينا إطعام جميع الأسرى وإسكانهم وحراستهم. أما إذا كان أسراك من طراز خاص متميز لا يحتاجون معه لمثل هذه الأشياء فيكونون عندها فقط من طراز آخر حقاً».

– انتظر الضابط، وهو يجلس ويداه مضغوطتان على ركبتيه، أن يضيف قائده شيئاً لما قاله:

– «حسناً، ما نوع هؤلاء الأسرى»؟

– «إنهم أفراد فرقة سيمفونية توغل قطارهم داخل نطاق هجومنا» رد الضابط بكلمات سريعة. «كانت الدبابات قد عبرتهم، فرأيت قطارهم بعد انقشاع الدخان. أعتقد أنهم كانوا في طريقهم للعزف والترويح عن جنودهم. أراد رجالنا قتلهم غِبَّ نزولهم من القطار ولكنني لم أقتنع بضرورة ذلك». أخذ تعليله يتخبط ويتعثر، وصار غير متناسق، ثم توقف عن الكلام وكأنه لم يجد مسوغاً لعدم قتلهم.

– ألمَّ شيء من الاضطراب أشبه بالرجفة باتزان الجنرال وسأله: «كيف عرفت أنهم فرقة موسيقية»؟

– «معهم أدوات موسيقية كاملة، يا سيدي».

– التقط الجنرال قلم رصاص آخر وراح يدحرجه في راحة يده ثم سأل: «وأين هم الآن»؟

– «معتقلون في الحظيرة».

- جعلت أنفاس الجنرال تصفر مثل البخار فهناك فرقة موسيقية في الأسر. إن خبر كوندال أحدث نقطة زلل في صورة هجوم الجنرال المظفر الداوي، وقلقل سيولة مشاريعه وعزائمه. إن أشد التصورات الخيالية جموحاً وتطرفاً عن الحرب لم تكن تتكهن بوقوع فرقة سيمفونية في الأسر. القيادة العليا كانت مصيبة تماماً، لأن أسهل مخرج من أية مشكلة هو القتل، ومع ذلك فإن فضولاً فكرياً جعله يغرق في أفكاره؛ فلربما كان عليه أن يستعلم من الشخص المسؤول عن قيادة الفرقة عله يكتشف شيئاً، من الناحية العسكرية أومن ناحية أخرى، عوضاً عن تنفيذ أوامر القيادة العليا التي وُضعت موضع التنفيذ من بداية الحرب والقاضية برميهم بالرصاص فوراً. هذا وبحجة التحقيق والاستعلام يتمكن الجنرال من الإبقاء على حياتهم ساعات معدودة وقف الضابط منتظراً على أمل أن يوجه له الجنرال أمراً بالانصراف غير أن الجنرال سأله: لا «أفي الحظيرة الموجودة في البستان»؟

- «نعم، يا سيدي»

- «كم عدد الذين قتلوا في القطار»؟

- «لا أحد، يا سيدي. كان الحظ حليفهم. فقد كان الجنود على وشك الإجهاز عليهم عندما وصلت».

عادت إليه بعض تراجيع مزاجه السابق، كانت مصورات الحائط تكلل المكان بأنفاس انتصار هجومه الصباحي العطرة، مثل شرنقة حرير محكمة السد. فقال وهو مفعم بالرضا والحبور: حسناً فعلت، يسعدني أنهم لم يقتلوا.. لاحظ الجنرال علائم الفرح على وجه مرؤوسه فأردف يقول: «يا نقيب كوندال، أريد أن أرى قائد الفرقة خلال عشر دقائق». أدى كوندال التحية، واستدار دورة كاملة ثم راح يمشي بخطوات مديدة نحو الباب طرباً ومسروراً. خطرت للجنرال فكرة أخرى فناداه، «أيها النقيب»؟

- اتجه إليه وأدى التحية، ولكن من دون أن يتقدم نحوه، قال: «نعم، سيدي».

- «احرص أن تكون حراسة الحظيرة جيدة يجب أن لا يفر أحد منها».

«أمرك، سيدي». خرج النقيب وهو يغلق الباب بهدوء.

بقي الجنرال وحده مع مصوراته ولوائح الإصابات، وبيانات تنظيم الوحدات، وصورة البطل الغورشيكي المتدلية إلى يسار الباب. طفق الجنرال يفكر وهو ينظر إلى الصورة ويقول في نفسه يجب أن تنزع صور الأموات. عليهم أن لا يتوقعوا تقبل الناس لوجوه الأموات وهي تحدجهم بنظراتها. لو كان ثمة ما يقال لكي يعكر صفاء ذهنه التام في هذه اللحظة فهو هذا الوجه الرقيق نصف النضر، ونصف الباسم لذلك الرجل المنتصب القامة الفارع الطول الذي استغله نظام الحكم واستفاد منه، طراز من الرجال شأنهم في يوم من الأيام أن يكونوا طوع البنان، شأنهم بالنتيجة أن يعانوا قصوراً في التفكير حتى عن تشغيل رحى الحرب. شعر الجنرال بشيء من الدهشة والاستغراب لتوارد مثل هذه الأفكار إلى مخيلته. هل هي حكم من أحكام النجاح؟ أخذ يتسائل وهو يبتسم. ومع ذلك فقد تبدت له هذه الأفكار عديمة القيمة إذا ما قورنت بتوازن القوة الذي تحمله مصوراته التي تغطي الجدران من حوله.

فتح أحد الأدراج بقدمه وأخرج علبه تبغ، وهمَّ بتدخين لفافة منها، غير أنه ألقى العلبة وأخذ يكتب على قصاصة ورق البرقية التالية: المراحل الأخيرة من الهجوم اكتملت. قواتنا تتمركز كالطود أمام تلال خطوط العدو الشتوية استباقاً لعملية خرق خاطفة في الربيع. تقدر إصابات العدو مع كثير من التحفظ الحذر بثلاثين ألف إصابة. تدمير ألفي عربة آلية، ثلاثمئة منها دُمرت بعد الاستيلاء عليها، وتدمير

خمسمئة دبابة، مئة وثلاثون منها دُمرت بعد الاستيلاء عليها. تدمير أربعمئة مدفع، خمسون منها دُمرت بعد الاستيلاء عليها. بانتظار ورود إحصاءات أرقام جديدة.

ألقى نظرة على اللائحة المؤثرة وتناول قلم رصاص ثم حشر بين العبارتين الأخيرتين مايلي: أسر قطار للركاب مع عرباته. تدمير القطار، وقع الرسالة بعد ذلك بحركة سريعة، ثم قرع الجرس على طاولته فدخل حاجب أخذ البرقية لإرسالها. أشعل الجنرال لفافته وجلس، وذراعاه على الطاولة أمامه، جلس بوضعية الاحتراس المعتادة التي أتاحت برغم ذلك فرصة لشيء من التفكير والتأمل. إن أسر الفرقة الموسيقية الذي تراءى له كشطحة من شطحات الخيال جعل خياله في حالة تماس وصدام مع حسه السليم، عقله الميكانيكي، فأصبح غريب الأطوار إلى حد ما، رغم أنه لم يتأثر أبعد من ذلك، وبحيث إنه بقي هادئاً لا ينغص عليه إلا مشكلة عسكرية واحدة. لم يسأل عما يجب فعله تجاه الثلاثة وتسعين رجلاً، مفترضاً بكل راحة بال أن الإجابة عن مثل هذا السؤال ستتقرر بعد مقابلة قائد الفرقة، وعارفاً حق المعرفة أنه لا مجال في الحرب لأية تجارب عسكرية إضافية، وأنه حتى المتسوّلون الذين جعلوا من أنفسهم مصدر إزعاج في كل بلدة يتم احتلالها حديثاً يشكلون مشكلة يمكن معالجتها علاجاً فورياً بصنعة الحرب. إن أسر فرقة موسيقية سيمفونية، كأداة من أدوات الترفيه الثقافية الحضارية، ينبيء بما هو أهم من عمل صغير تافه تقوم به آلته العسكرية.

الفصل الرابع

فاحت من الحظيرة رائحة قوية نفاذة على أنها كانت زريبة للماشية من عهد قريب. كانت رزم من القش مكومة حول الجدران الخشبية، كما كان أحد السلالم في ركن من الحظيرة يؤدي إلى متبن صغير في الأعلى، كان صف من الفوانيس، بشكل الأكشاك أو الحجر الصغيرة في معرض من المعارض، يقف على الرف، كما كانت عدة حصان تتدلى على جدار بعيد إلى اليسار من نافذة مسدودة. وخلف كومة من القش يوجد محراث مكسور، كما يوجد هرم من ألواح الخشب المعدة للاستعمال. «سوف نشعر بالراحة هنا، في أقل الدرجات»، قال إيفارت، عندما أغلقت الأبواب وأوصدت بعد دخولهم. «إنه سجن مريح تماماً».

– «إلى أن يحل الشتاء»، قال بندر الذي سمع كلام إيفارت، «وبعدها سنموت متجمدين من البرد».

– «لا أظن أننا سنكون هنا بحلول الشتاء»، قال فيكادي مجمجماً. جلس الأسرى على رزم القش وهم يتحدثون جماعات

جماعات لكل جماعة منهم هويتها الخاصة بحسب مختلف أقسام الأدوات الموسيقية في الفرقة السيمفونية التي ينتمون إليها. أما إيفارت، الذي كان يقف بمفرده، فراح يمشي باتجاه المجموعة التي تشغل المتبن الموجود إلى جانب الباب المغلق. أخذ يحدث الرجال الواقفين: بمن فيهم آرمغاردسن الذي يعزف البيكولو والفلوت، وهو رجل طويل القامة يرتدي الأزرق الداكن.

كان جميع أفراد الفرقة يطلقون عليه اسم «مترين»، الأمر الذي كان يسعده كثيراً لأنه كان يفخر بطول قامته. كان ينعم بعينين زرقاوين فولاذيتين وشعر أشقر صقيل أملس، وكان يميل بطبيعة الحال للبدانة، وهو شيء لم يكن يسعد له أو يعتز به.

- «كيف تشعرون الآن»؟ سأل إيفارت.

- لم يكن أحد يعرف بأي شيء يشعرون. كان آرمغاردسن وحده باتاً في الإجابة: «أرجو أن نغادر هذا المكان على عجل»، قالها بصوت دافئ عميق. «لا أظن أن فكرة البقاء هنا تناسبني».

- أثار هذا التذمر الصريح ضحك الآخرين، فرد إيفارت :

- «لقد دخلناه بسرعة مفاجئة، ولذلك عسى أن نخرج منه بالسرعة نفسها».

- «أرى أنه كلما أسرع المرء في الدخول بموقف من المواقف، صار أمر الخروج منه أكثر صعوبة»، أكد عازف الترمبون بفتور وهو يتمدد منبطحاً فوق كومة من القش الطري.

- «إذا لم يحدث شيء عما قريب» قال آرمغاردسن، «سأعود أدراجي إلى الوراء، وسأخرج من هذه الزريبة. صدقوني».

- أزرَّ ستارنبرغ سترته. كان أحد الأزرار قد ضاع من جراء

المعركة عند القطار، لذلك فكه وجلس على الأرض، وهو يتنهد تنهيدة عميقة حزناً على ضياع الزر وحزناً على فقدان الحرية على حد سواء.

– «لا يبدو أن الآخرين منزعجون كثيراً»، قال إيفارت:

– «رويدك»، أجاب ستارنبرغ ممتعضاً، وكأن قوة إدراكه موضع شك وتساؤل. «لم يدرسوا الموضوع دراسة تامة حتى الآن. إنهم لا يزالون تحت تأثير الصدمة. إنهم هادئون الآن، أليس كذلك؟ غير أن الصدمة ستنتهي، وسوف ترد ردود أفعالهم قريباً، عندما يتذكرون قصص التعذيب التي طالعوها في الصحف والمجلات، وكل سقط المتاع الملطخ بالدم والمثير للمشاعر الذي عرض علينا سنوات وسنوات. إن مشاعرهم غامضة وعقيمة الآن، ولكن راقبهم حينما يفيقون من غفلتهم فيما بعد، وصحوتهم هذه لا بد أن يتوصلوا إليها. هذا إذا سنحت الفرصة بذلك».

– تدخل إيفارت لكي يسكته وقال منتخعاً: «سوف تسنح لهم الفرصة. لا أعتقد أن شيئاً مما ترمي إليه سيحدث. كان الخطر الكبير يحدق بنا عندما كنا في القطار، وقد تجاوزنا هذا الخطر الآن».

– «سمعت أنهم لا يأسرون أحداً»، قال ستارنبرغ متفكراً.

– رد عليه إيفارت مؤكداً: «إذا لم تكونوا جنوداً فإنهم يأسرونكم». كان ستارنبرغ يحتاج إلى عوامل مقنعة أشد من ذلك فقال: «لا يمكنك أن تستند على أي شيء في ذلك».

– «عليك أن تركن لهذه القناعة، أو سيصيبك مس في عقلك».

– «وإذا لم يحدث ذلك هل سنكون أسرى مؤبدين»؟

– رد إيفارت بسخرية وقال: «إلى أن يطلق سراحنا».

– رفع ستارنبرغ صوته وقال: «هذا إذا أطلق سراحنا»، ثم سأل: «هل تعتقد حقاً أننا سنخرج من هذه الزريبة قريباً»؟

– «عندما نكسب الحرب».

- بعثت هذه السخرية الهادئة السرور في قلبه فسأل وهو يبتسم ابتسامة عريضة: «وهل تعتقد أننا سنكسب الحرب»؟.

- «لم لا؟ أربع سنوات كاملة وهم يرددون على مسامعنا بأننا سنكسب الحرب. لماذا لا نصدقهم»؟ وعندما لم يجد علبة الثقاب ألقى لفافة التبغ التي اعتزم إشعالها جانباً.

- لم يبتسم ستارنبرغ ولكنه قال: «الغورشيك أيضاً كانوا يقولون لهم خلال السنوات الأربع الماضية بأنهم سيكسبون الحرب.».

- «ألست مقامراً؟ ألم تلعب يوماً بلعبة تدوير النقود مراهناً على وجود الله أو عدمه؟ ألا تجري مراهنات بينك وبين نفسك فيما إذا كنت ستظل على قيد الحياة في الأسبوع اللاحق؟ يجب أن تفعل ذلك. إنه يجعل العيش أكثر متعة وتشويقاً».

- «لا تمزح»، قال ستارنبرغ. «إن ما سنخسره أكبر من مسألة رهان ومقامرة. ومن المؤسف أننا غير قادرين على المقامرة بأي شيء. لقد قامرنا بكل شيء وانتهى الأمر».

- «حتى لو كان كذلك» قال إيفارت مبتسماً. «ليس عندنا كثيراً لنخسره. لقد صارت الحياة بخسة رخيصة من جديد: فقد عملوا على فرض هذه الحقيقة علينا من سنوات عديدة، في حين أن واقع الحال هو أن الحياة دائماً دائماً بخسة رخيصة. الأمر على غير ذلك عندما يتعلق بفرقة موسيقية. إنه أمر مختلف. إن فكرة الإجهاز عليها تقض مضجعي، ونحن نرى الآن بأم عيوننا إمكانية وقوع ذلك»..

- رد ستارنبرغ وهو يرفع صوته: «لا أعرف ما تقصد. ولكنني لا أستطيع إمعان فكري به حتى الآن، ذلك لأن خوفي الشخصي يعترض الطريق. ثم إن مثل هذا الوضع العصيب لا يوفر مجالاً كبيراً لظهور

النظريات. إنني لا أستطيع مقاومة العنف المادي. إنني في غاية الفزع. في معركة القطار لم أستطع أن أرد على الضرب بالضرب. غدوت بليداً خاملاً أنتظر مقتلي ونهاية عمري. إن هذه سمة مميزة موروثة عن الأجداد، نقيصة تكمن في الأعماق وتنتظر فرصة كهذه الفرصة، ثم تلقي بصاحبها إلى الحضيض». رفع نظره إلى الأعلى وهو على شبه توقع من مشاهدة نظرة الازدراء على وجه إيفارت. ولكنه شاهد صورة عدم المبالاة فراح يصرخ: «أفضل أن أكون جباناً من أن لا أكون شيئاً. أريد أن ينزاح الغطاء عن مشاعري لكي أعرف ما يجعلني أعمل، حتى أشعر بشيء من الحيوية في داخلي». وهذا الانطلاق في الكلام أضفى عليه شيئاً من الطمأنينة فاتجه نحو إيفارت لكي يستطرد في حديثه: «الشجاعة حالة ذهنية، ليس أكثر. والشجاعة غباء وبلادة إذا كانت تكلف المرء حياته، أو قدرته على الشعور». ضاقت عيناه وصارت نظرتهما ثاقبة بصورة مباغتة وتابع يقول: «ووضعك الذهني هو الذي يحفظ عليك الهدوء والرصانة»، ثم عاد أدراجه نحو الآخرين.

- وقف إيفارت لمفرده دون أن يلوي على ما يقوله أو يفعله أو يتنبأ به. اتكأ على رزمة قش، وأنامله تعبث بجلدة وجهه بشدة، متأففاً من تدخين لفافة تبغ كمسكن فيزيائي. لقد هشمت الأفكار الإطار الخارجي لعقله: كما أن حقيقة عدم وجود أي شيء من شأنه أن ينقذ الفرقة الموسيقية من مأزقها أحدثت ثلماً عميقاً فيه. ليس هناك طريقة لإنقاذهم وهو لا يستطيع تقديم أي شيء مقابل الحفاظ على حياتهم. وانعدام الحيلة ألمٌ مضاعف حين تصبح حياة الإنسان بلا قيمة. وليس ثمة مخلوق أشد سوءاً من الشيطان يستطيع أن يقايضه روحه بحياتهم. لقد سبق للشيطان أن شبع من قبض أرواح الغورشيك الذين شاركوا في أسرهم، (هكذا قال الداعية) وأصبح في تخمة ممن أرسلوهم. لقد تضخمت كل قيمة إلى درجة انعدم فيها وجود أية قيمة لقد أحاقت

بالقيم قوة الشر والتسلط التي دأبت على مراودته في أكثر أحلامه. سمع في لبه موكب موتهم الأسود المتوقع وحقيقة فنائهم العقيمة، كأنها ترنيمة جنائزية تغوص في بحيرة ليس لها قرار أو حدود، فتحكي لعالم لا يفهم حكاية أنهم وجدوا وعاشوا ذات يوم. لن يعرف أحد بهم، ولن يختلف الأمر كثيراً لو عرف أحد ذلك.

تناهى إلى مسامع إيفارت ضجيج حركة المرور الآلية وأصوات الرجال الذين يجأرون بالأوامر وصخب الرعاع وهم يتهللون تحت نور شمس الظهيرة على الطريق العام. سمع إيفارت أيضاً نباح كلب من الكلاب وخبطة سقوط بناء معطوب على مسافة بعيدة، كما ترامى له من مسافات أبعد الإيقاع الخفيف لقصف المدفعية. لم يبد أن أفراد الفرقة، وهم ما زالوا على توزعهم جماعات جماعات، منزعجون على نحو خاص، ولكنهم كانوا يتبادلون الحديث بكل لطف ومودة فيما بينهم. الخوف والقلق لا يمكنهما أن يستمرا الدهر كله، قال لنفسه مفكراً ونحن لم نوهب ذلك القدر الكبير من الشهامة. إنه ينحل شيئاً فشيئاً ويتحول إلى حالة عدم اكتراث أو طمأنينة زائفة. كان اثنان من عازفي البوق قد أخرجا حزمة من أوراق اللعب يرتبان مائدة خشبية أولية من الأخشاب المطروحة في الزاوية. كان آخرون يطالعون؛ بينما كان بعض العازفين يجمعون، القش ويصنعون أسرة ينامون عليها.

لم يكن هناك ما يقال أو يفعل. كما أن كلمة أمل مرقت مروق السهم الفضي في عالم أفكاره، لكنه مضى مبتعداً يركب أجنحة طيشه الخاص، دون أن يخلّف أي أثر لأنه لم يواجه عائقاً في طيرانه. لم يمض عليه إلا سويعات قليلة في الأسر، ومع ذلك تراءى له أنهم أسرى منذ ولادتهم. إذا قضى الإنسان نحبه وهو أسير فذلك يعني أنه أسير مدى الحياة، ومحتبس في دهليز يؤدي به إلى ذلك المصير، وما الزمن سوى طريق تسافر عليه لبلوغ ذلك المصير. ليتني أستطيع أن افعل شيئاً. كانت

الكلمات ضرورية وإن كانت عديمة الجدوى مثل أحجار نرد مرقمة على صندوق مغلق. ولذلك هل ثمة ما يرجى من خضها وهزها؟

فتحت الأبواب، ونفذ شعاع الشمس إلى الداخل مشفوعاً بالضوضاء، وإذا بحارسين يحملان الطعام. راح إيفارت يراقب بعض رفاقه يمضون نحوهم.

تقاسم الجميع الطعام وهم يغترفون اليخنة في صحون عميقة من التنك، وبعد أن فرغ الدلاء من الطعام، خرج الحارسان طلباً لمزيد منه. أشعل إيفارت وهو يستند إلى رزمة من القش لفافة تبغ، وعند الساعة الرابعة، اقبل حارسان مسلحان مع الضابط الذي أنقذهم من الموت بجانب القطار لكي يصطحبوا إيفارت إلى مكتب الجنرال من أجل التحقيق.

الفصل الخامس

رن جهاز هاتف الميدان بصوت عال فأجفل الجنرال وأيقظه من عالم أفكاره. رفع السماعة وهو يميل إلى الأمام فسمع صوتاً يقول:

«لقد أرسلت البرقية، سيدي». آه، فرع اللاسلكي، أشكركم، قال الجنرال، ثم أنزل السماعة. ترامت من خارج النافذة وراءه أصوات وقع أقدام الجنود المتعبين البطيئة، كما أن تصعيداً مفاجئاً لحركة المرور الآلية غطى على زمازم القصف المدفعي المسائي. وفيما كان الجنرال ينصت لسماع أصوات أخرى، سمع قرعة على الباب.

- «الأسير هنا، يا سيدي»، قال كوندال.

- «أدخله. ولينتظر الحراس في الخارج».

- تراجع كوندال. وسُمع صوت كرنين الجرس عندما وضع الحراس بنادقهم بوضعية الاستراحة على الأرض الحجرية في البهو، وعندما فتح الباب مرة ثانية شاهد الجنرال قائد الفرقة الموسيقية يقف أمامه داخل الغرفة، والنقيب كوندال يربته على ظهره إشارة إلى أن عليه أن يتقدم إلى أمام.

- نهض الجنرال واقفاً.

تقدم إيفارت بمشية بطيئة عبر المسافة بين الباب والطاولة. طلب منه أن يجلس. راح إيفارت ينظر إلى الجنرال بروية، وهو يشاهد أمامه رجلاً قصير القامة أشقر اللون يقف وراء طاولة، تحف به مجموعة كاملة من المصورات الجدارية، مثل تمثال ببزته النظامية يتخذ من ثلاثة أجهزة هاتف من خشب الأبنوس طليعة له. وعلقت عيناه الزرقاوان اللاذعتان بإيفارت مباشرة. افترّت ابتسامة على شفتيه، وارتفعت ذقنه الصلبة المتينة وهو يوجه الأمر لكوندال بالبقاء إلى جانب الباب. أحدثت الابتسامات غضوناً جلدية في زاويتي عينيه وقال: «سمعت أنكم كنتم في طريقكم للترفيه عن جنودكم في الجبهة».

- «نعم، كنا نزمع ذلك» أجاب إيفارت .

- ابتسم الجنرال وقال: «ألا ترى أن الجبهة غير موجودة الآن»؟.

- «ليس تماماً. يبدو أنها انتقلت بضعة أميال فقط». رد إيفارت رداً باتاً وسريعاً.

- لمعت عينا الجنرال وقال: «صحيح تماماً، ولكن هل تستطيع أن تقول لي إلى أين انتقلت»؟

- إستدار إيفارت لكي يخرج من الغرفة، ولكنه شاهد كوندال يقف على الباب، بهيئة تمثال رابط الجأش لا يملك تجاهه أي حول أو قوة. فاتجه لمواجهة الجنرال وراح يقول:

- «أنت عسكري. لديك مصورات وبإمكانك أن تعرف».

- «أإلى التلال الشرقية»؟ سأل الجنرال.

- إزدادت شفتا إيفارت تضيقاً تعبيراً عن الاشمئزاز وقال: «الشيء الذي افتقر إليه هو أية معرفة بعلم الطوبغرافيا».

- كتب الجنرال شيئاً على قصاصة ورق وقال: «معذرة، لماذا لا تجلس؟ إن الجلوس يسهل الحديث كثيراً».

- «حين يكون هناك ما نتحدث عنه، أوافقك على ذلك». ثم أشار بذراعه إلى المصورات وقال: «لا أعرف شيئاً من هذا كله».

- «ستجدها إذاً أكثر تشويقاً»، قال الجنرال. «إن المصورات هي الرسوم البيانية التشريحية للحرب».

- لم يستطع إيفارت إلا أن يرد عليه فقال: «أللحرب فقط؟ تعريفك مغلوط: فالرسوم التشريحية تستخدم للمعالجة الطبية أيضاً، وهي التي تساعد الجراح على معالجة الجروح واندمالها، في حين أن مصوراتك تساعد على إحداث تلك الجروح. ليس في الحرب ما يبعث التشويق والتسلية».

- فتح الجنرال علبة تبغ وقدمها له قائلاً وهو سارح الفكر: «على العكس اسمح لي أن أقول لك إنني قضيت سنوات وسنوات أحاول تحديد معنى الحرب. إنها طريق الهلاك الأعظم. إنها بالإضافة إلى ذلك مسلك الطبيعة في ملء الحقيبة الكيسية الفارغة الخاصة. بمُثُل الرجال العليا؛ فهي تضع رشاشة آلية في متناول أيديهم بعد أن يتم حشو عقولهم حشواً كاملاً بالمبادئ النظرية».

- رفع إيفارت بصره إلى الأعلى بحدة. وعلى الرغم من سخرية الجنرال كان يعرف حق المعرفة أنه لأول مرة بعد وقوعه في الأسر كان يحدث مخلوقاً بشراً. شعر الاثنان للحظة عابرة أنهما يعرفان بعضهما من ذي قبل، كما أن كلاً منهما لمس وراء مظهر الآخر صفات خلقية يعرف أنها صفاته نفسها. غير أنه يتعذر على أي منهما الاعتراف بها أو ذكرها للطرف الآخر، ولن يكون في طرحها أية فائدة لهما من قريب أو

بعيد، لأنها قد تكون مبدأً للعداء بقدر ما تكون مبدأً للصداقة بينهما. ولكن إيفارت شعر بالانزعاج من هذا التواصل الذي قد يكون دون مستوى الإحاطة الواعية الذي أحس به تجاه الجنرال؛ فيما قَبِله الجنرال كنوع من التعاطف تجاه بعضهما بعضاً، وافتتان زائد لا يمكنه بأي حال من الأحوال أن يحرفه عن عزمه على قتل هذا الأسير وفرقته الموسيقية.

- «يبدو أنك تستغرب أن يكون للحرب كل هذه الأبعاد»! قال الجنرال بدماثة. «حسناً، فهناك أكثر من ذلك بكثير. الحرب تعطي الرجال ذريعة للتخلي عن موقف صعب لا يطاق دون المساس بكبريائهم. إنها ستار للجبن والضعف. ألا توافقني على ذلك»؟.

- وافقه إيفارت على ذلك فعلاً.

- «تلك طريقة واحدة من طرق النظر إلى الحرب، بكل حال». استطرد الجنرال في الحديث: «إنها تعني أكثر من ذلك بكثير. إنها بالنسبة لي طريقة علمية فنية للتأكد من أن وطني سوف يبقى».

«سوف يبقى بعد ماذا»؟ سال إيفارت لأنه لم يستطع تفادي هذا السؤال.

«بعد وطنك أنت». قال الجنرال عن قناعة وإيمان وبوحاً للخاطر. «يمكنك أن تضع كل نظريات العالم وأفكاره داخل الأرض وتنسفها بالديناميت غير أن شيئاً واحداً لا يصيبه الدمار، ألا وهو القوة، وسيطرة أمة على أمة أخرى، قوة وسلطان أمة بسيطة يأكل فيها الكلب أخاه تجابه أمة يقاتل كل من فيها في سبيل ما يسمونه الحرية. إن بلادي تحارب بكل شراسة وجنون لتحطيم بلادك واحتلالها؛ كما أن بلادك تستنزف دماءها عن آخرها سعياً لتحطيم بلادي. أنتم تسمونها حرية، ونحن نسميها بقاء. إنني كجندي لا أهتم كثيراً بالفارق بين هاتين المسألتين، سواء كانتا مزيفتين أم صحيحتين. إنني أسمي الحرب فنّاً

ليس إلا. أي أبله أنا، قال يحدث نفسه: «لماذا أحاول أن أبريء ساحتي تجاه هذا الغريب»؟

- خامر إيفارت الشك من الوقوع بأحابيل الجنرال. لقد قرأ فيما مضى أن أساليبهم في التحقيق والاستعلام تبدأ في أكثر الأحيان بشيء يشبه الاعتراف من المحقق بحيث يزلّ الأسير في الحديث ببساطة، فقال إيفارت: «لا بأس، لا أستطيع أن أقول لك أي شيء عنه»، ثم قبل لفافة تبغ قدمها الجنرال وجلس على الكرسي.

- ابتسم الجنرال وقال: «لقد أطلعتني على أشياء كثيرة سلفاً».

- «لم أطلعك على شيء لم تكن تعرفه سابقاً».

- نفخ الجنرال دخان لفافته بين تقارير الإصابات، ثم وقف وراح يمشي باتجاه مصور من المصورات. «لقد أطلعتني»، قال الجنرال وهو يستتبع أحد الخطوط المحيطية على الخارطة بأنمله، «على أن جيشكم لا يزال يتمسك بدفاعاته على سلسلة الهضاب التي مررتم بها هذا الصباح، بدلاً من أن يكون وراء النهر على بعد عشرين ميلاً باتجاه الشرق».

- نظر إيفارت إلى الدخان يتلوى من طرف لفافة تبغه. «لم أقل لك شيئاً، وأنت متأكد من ذلك».

- «أخشى أنك قلت لي. لماذا سمحت لي باستخلاص المعلومات بسهولة كبيرة؟ جرت العادة أن نواجه مصاعب أكبر في استخلاص المعلومات». دق جرس الهاتف الوسط. قال الجنرال عبر السماعة: «سأكون فارغ الأشغال الساعة السادسة» ثم وضع السماعة.

- «لأنه لا شأن لي بالحرب» أجاب إيفارت «غرائزي سلمية ولذلك فهي أكثر تهذيباً ورقة».

- «ولكن ألا تعتقد أن جيشكم يقاتل دفاعاً عن مدنيتكم وتهذيبكم»؟ سأل الجنرال وهو يطفئ لفافته قبل أن يجلس لمواجهته مرة ثانية.

- أمعن إيفارت النظر إليه بشيء من الغضب، وكرر قوله: «لقد ذكرت لك أنني لا أؤمن بالحرب بصرف النظر عن أية مشاكل تحلها. إن المشاكل التي تحلها الحروب ليست مشاكل مشروعة بأية حال».

- «إن لديك آراء دقيقة جداً» قال الجنرال متعاطفاً «ولكن انظر إلى الأمر من زاويتنا نحن. ألم يخطر لك أبداً بأننا لا نحاول حلّ أية مشاكل بسبب هذه الحرب؟ الحرب ليست المجال المناسب لحل المشاكل، كما أنها ليست ضرورة اجتماعية بالنسبة لنا، كما هي بالنسبة لكم. أستميحك العذر، أقصد على الجانب الذي صدف أنك منه، دون اختيارك بالطبع. لقد كانت الحرب وما زالت بمضمونها الأساسي تعبيراً عن رجعة لا زمنية». وهنا فقد الجنرال رباطة جأشه وخرج بصورة أكثر تزويقاً واستعجالاً: «إنها الفورانات الكامنة في طبيعة الإنسان وهي تستشعر الحاجة الآنية للتقيؤ».

- لاحظ إيفارت التغير الطفيف في أقوال الجنرال. فطفق يفكر في نفسه: لعل ذلك ألعوبة من ألاعيبه، رغم أنها ألعوبة لا طائل وراءها لأنني لا أملك ما أخفيه فقال بشيء من التهكم: «لقد صرفت كثيراً من التفكير بشأن الحرب».

- «إنها تقتضي كثيراً من التفكير وهي تتطلب فلسفة كاملة».

- «الفلسفة هي نشدان الحكمة»، رد إيفارت.

- «الفلسفة هي نشدان المعرفة»، قال الجنرال.

- العبارتان عبرتا عن رأي كل منهما، وهما عبارتان لا يستهان

بقوتهما. أما الصمت الذي أحدثتاه فقد قطعه إيفارت عندما قال: «إذا كانت الفلسفة هي المعرفة التي كسبتها مني لتوك، فمعنى ذلك أنني لم أخسر شيئاً». اتكأ قليلاً إلى الأمام في كرسيه، ومسد شعره الأشيب للخلف. وعندما شاهد الجنرال يبتسم قال بسخرية مفضوحة: «إن فلسفتك بأي حال من الأحوال تثير الضحك. أما أنا فلا أجد الحرب شيئاً مسلياً أو ممتعاً».

– «هذه ملاحظات رجل علماني، رغم كل شيء». قال الجنرال وهو يسخر بهدوء. لم يجب إيفارت ، ولكنه تناول لفافة تبغ أخرى وأشعلها. أما الجنرال الذي وجد في تبادل الحديث حافزاً على الاستزادة، فاتكأ على الطاولة وألقى ذراعيه على طرفها وسأل: «ألا تعتقد أن جيشكم يقاتل في سبل حريتكم»؟.

كان الرد حازماً حاسماً: «لم يقاتل أي جيش قط في سبيل حرية أي فرد».

«ولكنكم تعشقون الحرية، أليس كذلك»؟ استطرد الجنرال يقول وهو يدفع ذبابة عن جبينه.

«إنني أحب فكرة الحرية».

«ألا تعتقد أنها موجودة»؟.

– مال إيفارت إلى الوراء مسترخياً في كرسيه وهو يقلع عن وضعية الحذر غير الضرورية ثم أجاب: «ليس أثناء الحرب، بالتأكيد».

– «ولكن ماذا عن ما قبل الحرب؟ ألم تكونوا تتمتعون بالحرية آنئذ»؟

– لقد انهمكوا خمس عشرة سنة في إعدادنا للحرب، وهو زمن طويل جداً يجعلها بمثابة زي باطل تماماً. راح يناقش بتعب وإعياء.

– كان الجنرال يستمتع بتبادل أطراف الحديث الذي لم يكن يخضع لأية مبادئ سياسية صارمة. ولم يكن أحد طرفيه خصماً جباناً يستعجل نهايته، فسأل الجنرال. «ولكن ألا تعتقد بأن شيئاً من الحرية سيبقى في العالم»؟

هب إيفارت واقفاً وهو يصيح: «ماذا تعني؟ الحرية! لماذا تصر على استخدام مثل هذه الكلمة البليدة الزائفة؟ حرية، حرية، حرية! استمع لهذه الكلمة. أليس وقعها بلا معنى؟ لقد حُرِّفت، وطرِّقت، وأحرقت وقلب أسفلها أعلاها. لقد أوقعت كثيراً من الآلام في العالم جراء هذه المظاهر العديدة الزائفة التي اتخذتها أقنعة للظلم والاستعباد، بحيث أنه كلما عجل الناس في نسيان ذكراها، كان خيراً لهم وفضلاً كبيراً».

– بقي الجنرال هادئاً، عازماً على متابعة المناقشة بطريقة ودية وقال: «أنا لا أوافقك، إذا لم يكن للكلمة من معنى بالنسبة لك، فما عليك إلا أن تنحي باللائمة على نفسك، وأنا أشعر بالأسى والحسرة تجاهك. إنها تحمل معنى دقيقاً جداً بالنسبة لي».

– «بالطبع، إذا كان لا يزال هنالك شيء مثل الحرية فهي طوع بنان الحكام المستبدين وطوع بنان أمثالك من البشر»، قال إيفارت بحدة وغضب.

– شعر الجنرال بغتة بالانزعاج فقال: «كل إنسان مسؤول عن شخص ما، وهكذا أنا، سواء صدقت أم لم تصدق. الحكام المستبدون ليسوا أحراراً بأي حال من الأحوال. إنك مخطئ في ذلك. العمال وحدهم ينعمون بالحرية هذه الأيام، وحريتهم محدودة جداً، تقف عند حدود مصالحهم الشخصية. إنها عملية تطبيب للخواطر تحافظ على بقاء من يريدون السلطة في السلطة». لاحظ الجنرال أن إيفارت لم يكن

يستمع له، بل كان ينظر إلى بقعة خاوية على أرض الغرفة، والغضون العميقة تجعد جبهته. كان هناك مقدار كبير من الرماد على لفافته حتى كادت حرارة الرماد تلامس أنامله. رفع بصره فجأة، وسقط الرماد على الأرض. لم يشعر بمزيد من الانزعاج فسأل: «قل لي: متى قامت فرقتكم بآخر أداء موسيقي لها»؟

- استند إيفارت إلى أمام، ووضع لفافته على المنفضة ثم أجاب: «قبل ألفي عام».

- ضحك الجنرال وسأل: «أين؟ في بومبي»؟

- «لا، في مدريد. وكان آخر أداء قبل عشرة أسابيع بالتحديد. إذا كنت تريد معرفة الزمن الوحيد الذي ينعم به الناس بكامل حريتهم، فهو إبان الساعات القلائل التي يستمعون فيها للموسيقا».

- «ربما. ولكن أي نوع من الناس هم؟ إنهم جرذان، صدقني ليسوا أنت وليسوا أنا. إنني أعزف مثلكم، والناس يستمعون لي. قد تكون موسيقاي مختلفة غير أن الناس يستمعون لها بالقدر نفسه تقريباً. فعلى أي جانب أنت الآن»؟.

- أحس إيفارت بالغثيان المطلق لهذه المحاولة الرخيصة في دحض أقواله وقال: »لا تقارن عملنا بعملك وتساوي بينهما».

- «ولكنهما متساويان»، صاح الجنرال، «وأنت تعرف ذلك. إن لمدافعي موسيقاها وهي تحاول أن تسحق دفاعات نصفكم الخاص من العالم كما أن موسيقاكم تحاول أن تشق طريقها إلى الأدمغة المتلبدة، لكي تبذر ما تسمونه الجمال والمدنية، أليس كذلك؟ لماذا لا تأتون بعمل جليل حقاً، وتعترفون بذلك»؟.

- «لا أجد حاجة لذلك»، قال إيفارت.

- «كلانا محاربان، ندق الطبول لزج قواتنا في معركة على قطبين متنافرين. كلانا نحاول أن نقهر العالم بطرائقنا المختلفة. هذا وبما أن طرائقنا مختلفة وموسيقانا متباينة ومتباعدة عن بعضها مسافات ومسافات، لا بد أن ينتهي أحد منا».

- «نحن، بطبيعة الحال»، قال إيفارت وهو غير قادر على مناقشة تعريف الجنرال للحرب الشاملة.

- «لا تقفز إلى النتائج، فأنت لم تمت بعد».

- «ولا أنت أيضاً».

- رد الجنرال والابتسامة على محياه: «لماذا لا تنطق بتلك الكلمة الإضافية؟ لماذا لا تنطق بها على سبيل التبذير والإسراف... ولا أنت، لسوء الحظ. ها أنا أقولها نيابة عنك»!

- «شكراً لك»، قال إيفارت، هو يزداد أكثر من أي وقت مضى قرباً من فهم صدق كلمات الجنرال.

- «ولكنك لن تمارس العزف لأمد طويل الآن».

- لم يرد إيفارت على هذا القول. راح ينظر وراءه من خلال النافذة إلى السحب البيضاء المتدافعة فوق التلال البعيدة التي كانت ترسل دويها السرمدي من انفجارات القصف المدفعي، فقد باتت هذه الأصوات طبيعية مألوفة مثلما كانت طبيعية ومألوفة زقزقة العصافير وهي تعزف بين أشجارها ذات يوم.

- «هل تطوعتم للترفيه عن وحداتكم»؟.

- إنه يحاول الإيقاع بي، حدث إيفارت نفسه متفكراً. إنه يحاول أن يوقع بي عن طريق الإقرار بأنني أحب ما يحبه. فقال إيفارت دون

تكلف: «تلقيت ذات يوم خطاباً من وزير الحرب يطلب فيه منا العزف للجنود، الأمر الذي كان يعني، قدر ما يعنيه أي شيء آخر بأننا تطوعنا». طفق يتحدث بازدراء الآن: «قبل أسبوع كنا أحراراً، وفي الأسبوع التالي وقعنا في الأسر عندكم هنا».

- نظر الجنرال إليه بتهكم وقال: «من حسن حظكم أنكم أسرى. إنها محض مصادفة أن تجلس معي هنا الآن، لأنه بموجب أصول هذه الحرب كلها، كان يجب أن تذبحوا عند القطار. ولكن أسر فرقة موسيقية سيمفونية في الحرب أمر نادر حقاً، مما يرتب علي أن افعل كل ما أستطيع من أجلكم، في سبيل المدنية والثقافة». وعلى غير وعي منه، وضع يده على بيانات الإصابات وهب واقفاً، وهو يدفع كرسيه إلى الوراء، ويصيخ السمع لحظات لدوي نيران المدافع القادم من قطاع آخر في الشمال. «هذا على الرغم من أنني لست على ثقة من بقاء أية ثقافة على قيد الحياة بعد انتهاء هذه الحرب».

- نظر إيفارت إلى الجنرال نظرة ثاقبة وقال: «وأنا لست على ثقة من ذلك أيضاً. هذا هو الاعتراف الوحيد الذي أقره، وهو اعتراف لا أظنه يفيد فرقتنا الموسيقية ويساعدها على البقاء ومواصلة العزف».

- نفد صبر الجنرال من أسيره وسأله: «هل هذا كل ما في جعبتك من كلام يقال؟ ألا تعرف أن من المفروض أن لا أتحدث معك الآن؟ إنك تشك في أنني أحاول الحصول على اعتراف منك، وهذا ما يبعث على الضحك، لأنك لا تملك شيئاً ذا شأن تقوله لي، ولا شيء تعترف به وتقره. ما أنت بالنسبة لنا إلا قطعة حطب لموقد شتوي. كان يجب أن تكون ميتاً، أنت وسائر أفراد فرقتك الموسيقية، وليس عندك ما تتدرع به ضد هذه الحقيقة، ولا ما تحتج عليه، ولا خطة أو مشروعاً تخططه لإنقاذ نفسك. الأمر بالنسبة لي يبدو وكأنك فارقت الحياة،

وأننا أسرنا رجلاً ميتاً، ولعل ذلك واحد من الأسباب التي أسهمت في عدم قتلكم من قبل جنودي. فقد عرفوا أنكم ميتون أصلاً ولم يشعروا بالحاجة لقتلكم».

– لم يشأ إيفارت مضايقته وقطع حديثه لتذكيره بأن الجنود قد حاولوا قتلهم فعلاً. وفكر إيفارت في نفسه: لعل الجنرال مصيب برغم كل شيء، عندما قال: إنه ميت، ووجه الصواب في ذلك أنني لا أعارضه حتى عندما أعرف حق المعرفة بأنه على خطأ. كان لا يزال يتحدث: «هل تعرف ماذا كنت سأفعل لو كنت مكانك؟ كنت سأحدث الشخص الذي أخاطبه عن وطني، وأبسط له أفكاري عن دواعي كوني أفضل منه، وأسباب عزمي على البقاء حياً ما وسعني ذلك، ولماذا المبادئ التي اعتنقتها هي المبادئ الوحيدة القمينة بالاعتناق».

– «هل يختلف الأمر كثيراً إذا فعلت ذلك»؟ سأل إيفارت.

– أضفت ابتسامة الجنرال على وجهه سحنة كالحة مقيتة وقال:

«إذا كنت لم أتوصل حتى هذه اللحظة إلى أية قناعة بالنسبة لأي طرف سيكسب الحرب، ولكنني عملت في سوح المعارك فقط من أجل لهوي وعبثي - بطريقة ملتزمة، طبعاً - فإنني أود أن أعرف الآن من منا الطرف الأقوى ومن الذي سينتصر». ابتسم الجنرال ثانية، وهو يشعر بأنه قد أضاف لمنجزاته وانتصاراته الواقعية العملياتية في الصباح أكاليل غار لنصر ديالكتيكي الآن.

– «لم يكن عندي علم أننا في معركة»، قال إيفارت «وفي مثل هذا الوضع يصعب على المرء تحديد موقفه. أنا إن أقاتل أحداً يوماً، فإن ذلك في أغلب الظن يكون عن عدم معرفة مسبقة بالقتال. إن الخلافات في الرأي - أو المعارك - ليست بالنسبة لي من ذلك النوع المكشوف. إنها أشياء غامضة خفية لا يكون عندي دراية بها لحظة وقوعها. قد تكون

مثلاً قوى متحركة داخل وعيي، أو في الأثير تدور حول أدمغة أخرى حاملة كمون الحركة . فهل تسمح لي أن أقول: إن كلينا، أنت أو أنا . لا نشك بصورة أو بأخرى أننا نقوم بحركة: إن معاركك الظاهرية لا تقرر شيئاً . كل ما تفعله هو أنها تريق الدماء . أما المعارك التي أتحدث عنها فتعني كل شيء في نهاية المطاف».

– «وهل هناك نهاية مطاف»؟ تساءل الجنرال. «إنها لا تعني شيئاً»، قال الجنرال، «لأنه ليس هناك نهاية». كشفت مفارقة البسمة لمحياه مقدار تعبه وإعيائه . فكان ذلك مؤشراً على نهاية المقابلة. طلب من النقيب كوندال الذي كان يقف جانباً، أبكم ساهم النظر مثل دعامة إضافية للباب أن يأخذ إيفارت إلى الحظيرة وقال له:

«انتبه أن يكون مع كل رفاقه بأحسن حال».

أُغلق الباب خلفهما . وهما يبتعدان عنه . سار الجنرال على مهل نحو النافذة وراء الطاولة، ثم اتجه نحو القصائد العاطفية الانفعالية التي ترمز لسوح المعارك والمثبتة على الجدار وراح ينظر إليه حتى صارت كأنها مرآة يرى من خلالها، ومن خلال تمازج ألوانها الجميلة، ذلك السحر الشفاف لماضيه شبه المنسي.

لقد ضل وتاه في الدروب حتى وصل أرض العموميات الخطرة. إن النظام لا يحبذ ذلك ولا يريده . ولم يكن الحديث المتبادل مع إيفارت سوى عامل تحريض وإثارة، إلى حد جعله يتناول منديلاً لكي يجفف العرق عن رقبته وجبينه.

– «فرقة موسيقية بكامل عددها وعدتها»!

– إنهم أسرى، وهو لا يعرف ما يفعله بهم. حسب أوامر القيادة العليا يجب أن يكونوا قد أعدموا من ساعات، رغم أن القيادة العليا قد لا تحبذ رميهم بالرصاص إذا ما عرفت أنهم فرقة سيمفونية وقعت في

الأسر. نظر، وهو يقف مسترخياً بساقين منفرجتين ويدين مشدودتين حول ظهره، إلى الخارطة وراح يتتبّع المحور الذي سارت عليه الفرقة في طريقها إلى جبهة القتال. كان خط سكة الحديد الأسود يخترق الغابات وسلاسل الجبال، بينما توضّحَ قطارهم كدمية صغيرة في الشرق يمشي في طريقه نحو الغرب، كأنه رأس سهم خادع يدب كالأطفال مقترباً من موعد وقوعه في الأسر، ذلك الموعد الذي أحدث في نهاية الأمر شرخاً في حياة الجنرال اليومية.

- «ماذا سأفعل بهم»؟ كان السؤال خفيف الظل، إذ كان الجنرال يعرف في لب عقله عدم وجوب ما يقرره. سوف يرفع الموضوع للقيادة العليا. إنني لا أشعر بأية رغبة لذبح فرقة موسيقية إلا إذا صدرت الأوامر في القيام بذلك، قال يحدث نفسه. إن قتلهم لن يقصر ساعة من عمر الحرب ولن يطيل أمدها ساعة عدم قتلهم. عاد إلى طاولته وجلس. خيم الصمت والسكون على عصر ذلك اليوم وأغلق أحدهم الأبواب بهدوء في قسم آخر من أقسام المبنى، كما ترامت طقطقة عمل الآلة في الخارج، وتلاشت أصوات مسير الجنود وصراخهم، كما توقفت المدفعية عن القصف، كأن العالم الذي كان يعيش فيه يغط آنذاك في غفوة يستريح بها من معمعة القتال الموهنة.

- «فرقة موسيقية بكامل عددها وعدتها».

أخذ يتداعى إلى ذهنه بصورة متدرجة وهادئة خيط نحيل واهٍ من الإيقاع والألحان نابع من أعماق الماضي السحيق وكأنه نابع من العدم. جلس على كرسيه منشدهاً مذهولاً مثل رجل على وشك أن يستسلم للنوم بينما يترك عقله وحيداً مع لقاءاته غير المفهومة بصحبة من كان يتصور أنهم موتى أو مدفونون تحت الثرى. شعر في بداية الأمر بشيء

من الكراهية إزاء تلك الألحان لأن القسم الذي لم يزل واعياً من عقله الميكانيكي لم يستطع تسميتها وتحديدها. ولكن هذا الإيقاع كان متواصلاً، مستمراً، مثيراً وأخاذاً بجماله وروعته، فجلس ويداه على ذلك اللحن. سمع هذا الإيقاع من ذي قبل: فقفزت نقطة الذروة إليه من عهد قديم مضى، كما سرت البداية إلى أعماقه فوراً من جديد، من المدينة التي استمع بها إليها، ورآها تعزف وتؤدى. هل كانت تلك المدينة برلين، فيينا، أم لا يبزغ؟ سمع عصا قائد الفرقة تضرب المنبر، فقطعت بذلك الصمت المطبق لخمسة آلاف شخص يملأون القاعة. الموسيقا اكتسبت نفحة جديدة، تغيرت وأصبحت بنوداً من إنشاد موسيقي منفرد على آلة البيانو تعزف في برنامج أبيض، فكانت وكأنها واحدة من مئات الحفلات الموسيقية التي تحوم وتزدحم في ذاكرته.. فأخذ يهز نفسه للتخلّص منها، ثم هب واقفاً.

كان يتمنى أن يسمع سيمفونية من جديد، غير أن الأدوات اللازمة لأداء السيمفونية، والتي يملكها الآن، يجب أن تحطم. وفي نوبة حمى مفاجئة من الأمل والرغبة أخذ يتساءل عما إذا كانت القيادة العليا تنوي رمي الفرقة الموسيقية بالرصاص في نهاية المطاف. ربما لا تريد القيادة ذلك، راح يبتسم وهو يشعر شعوراً متنامياً بالغبطة والسرور. غير أن الحمى تلاشت وفارقته. لم يكن هناك من أمل. ليس للفرقة الموسيقية أي نفع للأمة وأمرها لا يهمه، فهو الآن جنرال يتمتع بالإمرة الكاملة على جيوشه، وهذا منصب يحتم عليه أن لا يعرض نفسه لأية شبهة أو اتهام بالتعاطف مع مثل هذه الأشياء.

الحرية. الحرية هي تحقيق انتصاراتك ضمن إطار مرسوم ومعد. الحرية في تقديم الخدمات. الحرية في أن ترفع المسائل الشائكة المريبة

لمن هم أعلى منك في مواقع السلطة. ضميرك ليس سوى إله يهدي ولكنه لا يتخذ قراراً. إن قائد الفرقة الموسيقية يتحدث مرغماً عن الحرية، ولكن ماذا يعرف عنها حقاً؟ أما الخطر، فهو راية لا مرئية تطير وتتبدد عندما تبدأ أفكار منافية لأخلاق المهنة في التحكم بذهنك. سياسات القيادة العامة لا يمكن استنباؤها. ربما يكونون بحاجة للفرقة الموسيقية لغرض من الأغراض، وبواسطة ذلك إما أن يؤجلوا القضاء عليها، أو يحولوها إلى المناطق الخلفية، أو الاثنين معاً، وبهذه الحال قد يتسنى له أن يدفع الفرقة للعزف من أجله.

لا، ذلك مستحيل. إنها مجرد خاطرة، خاطرة تحطمت بكل يسر وسهولة في نطاق هذا الصمت غير الطبيعي الذي يغمر المبنى والقرية. إن معركة، الصباح وعملية الخرق، التي تلاها الهجوم الخاطف بدت وكأنها تفقد قدرتها على مواساته والترويح عنه، والأمل الواهي في أن الفرقة الموسيقية قد تتمكن في ظرف قصي غير منتظر من الأداء له لم يعاوده إلا لكي يتركه نهباً لإحساس بالخيبة، ليسمع في أعقابه المريرة شتى الأصوات التي تتصاعد في قاعة موسيقية قبل ابتداء العرض: من ضوضاء متنافرة لناس يتكلمون غب دخولهم من ظلمة لا ينيرها سوى مصباح واحد أو من مطر غزير جارف، والتوجيهات التي تُعطى بصدد رقم وموقع عدد من المقاعد، والمناقشات الدائرة عن برامج لها أثرها الخاص، والكل منغمسون في دهش متحفظ فيما يحتل أفراد الفرقة أمكنتهم على المنصة.

تناول الجنرال قصاصة برقية من أمامه، وقطع القسيمة العليا، التي يظهر عليها بكل وضوح إشارات عن آخر شركة خططتها ـ ثم كتب: إبان مجرى عملية الهجوم الصباحية، تم إلقاء القبض على عدد من

الأسرى. إنهم بالتحديد رجال غير محاربين يشكلون أفراد فرقة سيمفونية تم أسرهم جميعاً مع أدواتهم. إن عددهم ثلاثة وتسعون. إن أسرهم وقع مصادفة ولذلك لم يكن هناك بُد من أسرهم. من التحقيق الذي جرى بعد المعركة تجمعت لديّ معلومات أنهم كانوا في طريقهم إلى الجبهة للترفيه عن جنودهم بسلسلة من الحفلات. هذا وبسبب الطبيعة غير العادية لهؤلاء الأسرى، أريد رأيكم وقراركم حول ما أفعله بهم.

وقع الجنرال البرقية وأضاف لها إشارة الأولوية بحيث يتم إرسالها خلال فترة الخمول في الليل، وبذلك يؤخر ورود الإجابة حتى موعد عودته إلى المكتب في صباح اليوم التالي.

قرع الجنرال الجرس ودخل الحاجب الغرفة فقال له: «خذ هذه إلى فرع الإشارة». أشاع فيه انعدام الصخب والضوضاء شعوراً بالوحشة. لم يكن غياب الآخرين ليضايقه ما دام يسمع أصواتهم. أحس بعد ذلك بالأمن والسلامة، ولكنه تخيل في هذه اللحظة وكأنه تُرك لمفرده وسط فلاة مهجورة بعد أن تخلى عنه جيشه كله، ونبذه جنوده إلى جانب عدوه الألد، الصمت القاتل. فقال بصوت مرتفع فجأة وهو يتناول علبة التبغ: القيادة العليا ستحل كل شيء. ليس هنالك ما أستطيع عمله.

- غير أن شعوراً بشيء من الانزعاج الضمني العميق يأبى مفارقته. استند إلى الأمام وأخذ يدوّر ساعة الهاتف الميداني.

- «نعم، سيدي»؟.

- «أعطني رئاسة أركان المدفعية». انتظر الجنرال على أمل أن ينتهي الصمت. أخذ كلب ينبح، وكان عدد من الجنود يثرثرون في الخارج، لكن ذلك لم يكن كافياً «هل هذه رئاسة أركان المدفعية»؟ سأل بصوت عال.

- «نعم، هذه هي».

- قطع الجنرال صوت الشخص المتكلم وقال: «جميع بطاريات المدفعية الموجودة شمالي /017314/ يجب أن تفتح النار على الركن الأيسر من مواقع العدو. فوراً، مع الأولوية».

كرر الرسالة، ثم خبط السماعة في موضعها من جهاز الهاتف، ونهض. مسد بعد ذلك التجاعيد في سترته وعندما ترامى له دوي قرع طبول المدافع النشوان وهو يتعالى ويتعالى عبر الأثير، راح يمشي خارج المكتب في طريقه إلى اجتماع الأركان الذي سبق تحديده في الساعة السادسة.

الفصل السادس

لم يفتح إي من أفراد الفرقة فمه في الكلام إلا لماماً منذ بدأ القصف المدفعي. كانت ومضات المدافع القذافة ـ الهاوتزر ـ تأتي من التلال السفحية وتنتقل عبر شقوق باب الحظيرة لتتفجر على صورة علامات المرض الزرقاء أمام عيونهم. أخذت حكاية المدافع المتواصلة المدمدمة تقرض أحشائهم كأنها حيوانات قارضة شبه ميتة، ولم يكن أحد منهم يتكلم حتى عندما يتوقف القصف برهة، ذلك لأن الصمت والسكون يصبح عندئذ مطبقاً تماماً فيغشاهم الخوف من ذلك الفراغ المريب الذي تخلفه الضوضاء وراءها. بدأ أفراد الفرقة الذين يبلغ تعدادهم مائة نفر تقريباً يحدثون شيئاً فشيئاً ضوضاءهم الخاصة. لقد عادت قلوبهم تدق بصورة طبيعية، لأن شعور الخطر خف لديهم، وبدأوا يتحدثون، ويتجولون في أنحاء الحظيرة آخر الأمر، مخترقين تلك الحواجز الواهية التي تفصل بين المجموعات. اكتشف بندر بقاء بعض المحروقات في الفوانيس فوق الرف، فحملها ودار بها متعثراً. كانت ذبالاتها المضيئة، وهي ترسل دوائر من النور، تعكس رزم القش على

الجدران ظلالاً تشبه الصناديق، ومن حواف هذه الصناديق كانت السواعد تتحرك، وتومئ بظلال أرق وأنعم من حين لآخر.

راح إيفارت ينظر من خلال نافذة مشبوكة بالقضبان في مؤخرة الحظيرة، ومن خلال صف من الزجاجات المكسوة بالتراب على إفريزها، إلى خط ذرى التلال الأسود الذي كان يشكل حداً فاصلاً متموجاً بين الأرض والسماء، وقد اكتسبت السماء شيئاً من الزرقة من قمر مكتمل يسطع فوق سقفها. رسم سهمٌ إشارات خطاً وهو يصعد من التلال ولكنه انطفأ عندما تحول نحو المنحدر، على صورة يد رشيقة لم تستطع مطاولة النجوم. كانت الريح المقبلة من الجنوب الغربي تحمل رائحة النيران الخامدة، مما جعله يرتعش من قوة الرائحة وحكاية الدمار التي تحملها في آن معاً. أخذ الرجال إلى الخلف منه يتحدثون بأصوات منخفضة. طفق واحد منهم في الضحك. وكان آخرون يلعبون الورق على المائدة المؤقتة، بينما راح الكثيرون يطالعون الكتب أو الصحف القديمة. خيمت وحدة من طلائع السحب الرمادية فوق خط ذرى التلال، فحجبت الكوكبة الأولى من النجوم التي كانت تتألق فوقه، فما كان من إيفارت إلا أن حوّل نظره عنها وعاد إلى رفاقه، لأنه لم يكن يرغب أن يكون شاهداً على اختفائها.

كانت ستة مصابيح تضيء مساحة كبيرة في وسط الحظيرة، وكان الدخول إليها يشبه التخلي عن عتمة الغابة الموحشة والدخول إلى ضوء الأكواخ المريح. كان عدد من الرجال قد خلدوا إلى النوم، فأخذ إيفارت يتحاشى السيقان والسواعد الممدودة لكي يصل إلى المكان الذي نشر به سترته.

عندما سمعه ستارنبرغ يجلس، سأله: «هل معك لفافة»؟

قذف له علبة من الدخان، وتناول كتاباً لم يشعر بأية رغبة في

فتحه، فرد له ستارتبرغ علبة الدخان وقال: «سألتك عن الدخان من أجلك أنت».

- أشعل إيفارت لفافة، واتكأ في رضا، بينما سقط عود الثقاب من يده وهو لا يزال مشتعلاً. شب لهيبه عبر كومة من القش. وبعد أن انطفأ بالظاهر فقط، مد لساناً أصفر معقوفاً نحو رزمة أكثر قابلية للاحتراق من هذه المادة المشتعلة. شاهده إيفارت من طرف عينه، فغطى اللهب بمعطفه، وانهال عليه ضرباً بحذائه حتى أخمده وأورده حتفه. وبعد ذلك قال: «إن علينا أن نكون في منتهى الحرص. إن من الجنون أن يدخن المرء وحوله كل هذا القش».

- «ما هو الشيء الآخر الذي تستطيع أن تفعله إذا كنت تشعر بالاكتئاب»؟ سأل ستارنبرغ مبتسماً بلا سبب، وكثير من القلق والاضطراب قد فارق محياه بعد أن وصف له إيفارت لقاءه مع الجنرال. تعالت الأصوات في لعبة الورق:

- «سوف أزيد الرهان عليكما».

- «سوف أنزل الرهان».

وتعالى الضحك والتصفيق والأيدي المنتصرة، وخشخشة النقود المتجمعة. تمعن إيفارت في النموذج المعقد المصنوع من عيدان القش، ولما لم يقع بصره على ما يستطيع أن يقيس به مقدار حجمها، فقدت تراءت له على شكل عوارض خشبية لسقف بيت متداع.

- «هل شاهدت شيئاً يثير الاهتمام من النافذة»؟

- «عدداً قليلاً من النجوم»، أجاب إيفارت. «لم أر بالتأكيد وحداتنا المظفرة قادمة لإنقاذنا من هنا». اتجه إليه وسأله: «ماذا كان يدور في ذهنك هذا الصباح؟ هل كنت تتصور أننا سنكون هنا»؟.

- «أنا رجل جبان»، أجاب ستارنبرغ، «إنني دائماً أعيش في المفاجآت قبل وقوعها بحيث أنها لا تقع، ولاسيما المفاجآت غير السارة. غير أن هذه المفاجأة لم تكن متوقعة بكل ما فيها، وعندما يحدث ذلك، أرده لمشيئة الله».

- «وتترك الموضوع عند هذا الحد، على ما أعتقد».

- «لا، بل أبتهل لتحسن الأمور من جديد».

- «ويسهل عليك معرفة أنني مكتئب، إذاً»؟ سأل إيفارت وهو يعود لوضعية الجلوس.

- «لا، ولكنني أستطيع شم ذلك، الآخرون يعتقدون أن صمتك هو مجرد سكون ورباطة جأش تجاه موقف صعب. إنهم يعتقدون أنك تضرب لهم مثلاً».

- «وهذا مالا تصدقه أنت»؟ سأل إيفارت مبتسماً.

- «طبعاً. كل ما أعرفه هو هول الموقف عليك أيضاً». أخذت ظلال المصباح تتماوج على وجه ستارنبرغ، فثبت إيفارت اللهب بواسطة إنزال الفتيلة إلى آخر حد تقريباً، ثم رفعها من جديد. ها نحن رجلان هنا، فكر إيفارت في نفسه، نواسي بعضنا لأننا لا نملك قدراً من الشجاعة والإقدام. «إنك تعرف حق المعرفة»، قال له: «إنني لا أضرب مثلاً. لا بأس أن يظن الآخرون ذلك، على ما أعتقد، ولكنك تعرف أنه ليس صحيحاً».

- إنقلبت ابتسامة ستارنبرغ العريضة إلى ضحكة لطيفة. وترامى صوت من مائدة اللعب يقول: «لمن الدور في توزيع الورق»؟.

- «ليس دورك».

- «آمل أن يحالفني الحظ هذه الجولة».

- «لا، للمرة الثالثة».

- «انتظر تر».

- «معي فلوس ملكي».

- «قبل مجيئك بهذه الرحلة إلى هنا جعلك أمر من الأمور في مزاج عقلي مناسب لتقبل ما يحدث» ـ قال ستارنبرغ وهو يحرر نفسه من وضعية الجلوس المقيِّدة ويمد ساقيه فوق القش ـ ولذلك فإنني أتساءل في عجب: «هل كنت ستضرب المثل نفسه لو كنت في وضع عقلي طبيعي وعادي»؟.

- «ما الذي يجعلك تظن أنني رهين مشكلتي»؟

- «تكهنت بذلك».

- «كيف»؟.

«لا أدري. كل شيء هنا يبدو أكثر واقعية وصدقاً ولذلك فإن من الأسهل استكناه الأمور والإحساس بها. إنما ذلك يشبه تماماً رؤية المباني في وقت الغسق: إذ إن المرء يرى الجدران والنوافذ تشع وتتألق بضياء زائد، وتبرز الأشياء له بصورة أوضح وأجلى من الأوقات الأخرى. هل تفهم ما أقصده؟ إنني أشعر، كما ترى، أن المدلولات قد تغيرت منذ الصباح. لقد تغير الهواء الذي نستنشقه من جراء ما ألمّ بنا». أنعم نظره لحظة فيما وراء مجال نور مصباحه، إلى المجموعات الأخرى التي زاد قهرها وكبتها الآن، والعازفون يتحدثون على هيئة فصول في مدرسة تُعلِّم التآمر. صارت ألسنة الضوء في بعض المصابيح أقل استقراراً، وراحت ظلالها تتموج بصورة غير منتظمة على الجدران. بدأ الذين يلعبون الورق يفقدون اهتمامهم وشغفهم باللعب، فلم يحدثوا كثيراً من الضوضاء، وإن كانوا بين كل دورة وأخرى من دورات اللعب يزلون في حديث عابر غير مترابط؛ أما أولئك الذين تمددوا وأخلدوا إلى النوم

فقد فعلوا ذلك والفوانيس ما تزال مشتعلة مضيئة. اتجه مرة أخرى إلى إيفارت وسأله: «لماذا لا تقول لي: ماذا يدور في ذهنك»؟.

- «ليس ثمة ما أقوله».

- «إن في تبادل الأحاديث مع الآخرين تنفيس للكرب. لازال بمقدورنا الحديث فيما بيننا؛ ولا يستطيعون تجريدنا ذلك وحرماننا منه»، قال ستارنبرغ، رغم وجود نبرة من الأسى في صوته.

- «إن بمقدورهم أن يقطعوا ألسنتنا». قال إيفارت وهو يبدي عدم الرغبة في الاستطراد والتعمق في الحديث.

- «إشاعة كاذبة».

- «ويقطعون أيدينا أيضاً بحيث لا يعود يوسعنا الكتابة أو استعمال الإشارات كما يفعل الصم البكم». راح بعد ذلك ينزع القش بأصابعه، ثم أطفأ لفافته على الأرض الترابية تحت القش.

- «حتى قتلنا بمقدورهم». قال ستارنبرغ ضاحكاً.

- «إن هذا الحديث شبيه بجدرانك ونوافذك وقت الغسق»، قال إيفارت بلهجة السخرية نفسها، وليس فيه شيء من الواقع.

- جُرحت كبرياء ستارنبرغ فقال: «إذا كنت تريد الواقع فتحدث بنزر قليل منه أنت».

- «لا بأس، سأفعل ذلك. أعطني رأيك بهذا: لو تمكنا بطريقة من الطرق أن نندفع خارج الحظيرة، أجمعين، إلى الظلام الدامس، كم واحداً منا سيصل إلى أعلى تلك التلال، في نهاية الأمر»؟

- «الحراسة علينا شديدة تماماً»، قال ستارنبرغ، «والتلال بعيدة جداً».

- «لا، ليست بعيدة. لقد نظرت إليها من خلال النافذة ساعة كاملة، وهي ليست مرتفعة أيضاً، كما أن الأرض بيننا وبين التلال ليست مستوية كما كنا نعتقد. إن في المنطقة غابات، وجداول، وتجاويف، وأمكنة كثيرة للتستر والاختفاء. إن عدداً قليلاً منا سيصل إلى التلال».

- «أي نفع من وراء ذلك؟ كن مخلصاً مع المبدأ: إن ينجُ ستة منا، سنظل بحكم المدمرين».

- «ذلك هو رأيك». من خلال لمعات ذهنك وما تسوله نفسك.

- «وهو رأيك أيضاً، وأنت تعرف ذلك»، صاح ستارنبرغ وقد اعتراه الغضب آخر الأمر.

- «ليتني كنت أعرف ذلك حقاً»، قال إيفارت بشيء من الندم. «تلك هي المشكلة: إنني لا أعرف إذا كان يجدر بنا أن نحاول شق طريقنا بثمن غال خارج هذا المكان أو لا».

- «لقد فقدت خلق العمل ورداءه»، قال ستارنبرغ مذكراً.

- «بمقدوري أن أسترده فوراً»، صاح إيفارت بسرعة، وكأنه اتهم بجريمة منكرة، «لو كان ثمة ما يدعو أو ما يستحق. إنني أميل إلى التفكير بأن الفرار عملية يجدر القيام بها ولو لم ينجُ منا غير ثلاثة فقط».

- «لازلت أرى أن عليك أن لا تحاول ذلك».

- «ليتني أستطيع. ولكنني لم أعد أقوى على حمل بندقية إلا بقدر ما أقوى على حمل أفعى سامة، وأنت تعرف ذلك حق المعرفة».

- «وأنا لا أقوى على ذلك أيضاً».

- «ولا حتى في حال الدفاع عن النفس. إن هذا عنصر ضعيف

في هذه الأيام، مثل عمى العيون والعرج. لقد كان ذلك دائماً عامل ضعف وإعاقة بالنسبة لنا، على ما أعتقد، وسوف يظل كذلك».

- «بالنسبة لنا، نعم»، قال ستارنبرغ موافقاً، «ولكن ليس بالنسبة لأناس مثل الجنرال. إن سبب احتباسنا في هذه الحظيرة كالحيوانات هو أن شخصاً من الأشخاص قد مجَّد الحرب وبجّلها ورأى فيها طريقاً لحل المشاكل أو ميداناً لاختبار النظريات. إنها على درجة من القوة تجعلنا عاجزين عن محاربتها، كما يبدو، إلا باستعمال أساليبهم نفسها».

- لم يستطع إيفارت أن يستوعب ما وراء المظهر الباهت لكلمات ستارنبرغ: فكل كلمة بصيغتها المفردة كانت واقعية ومحسوسة، حتى أنها تعطي شيئاً من المعنى عندما تتصل ببعضها، غير أن المغزى الكامن وراء هذا المعنى منقطع الصلة بالموضوع. كان يتوخى إعطاءها مغزاها، ولكنه عندما أخفق في ذلك، راح يطوف بنظره في أرجاء الحظيرة، ويركزه على لعبة الورق التي عاد لها شيء من الحيوية الجديدة. «هيا»، كان أحد اللاعبين المتبرمين يصيح، «إرم ألا تعتقد أن من الأفضل أن نوزع الورق أولاً» ترامت إليه طقطقة ورق اللعب والضحك. لم ير جواباً ولا مجاملة.

- «كيف يمكنهم الاستغراق في اللعب بصورة كاملة»؟

- «لأنهم مبتهجون بالاستراحة»، أجاب ستارنبرغ. «من الحسن أن يلقى بالمرء في خواء بعد أسابيع من العمل الشاق. إن كثيرين منهم يستطيعون الاسترخاء والتخفيف عن أنفسهم أخيراً».

- «نحن من بين النزر القليل الذي لا يستطيع ذلك»، قال إيفارت معلقاً. «فما هو السبب بالنسبة لك أنت»؟.

- «لقد فقدت متعة الاسترخاء»، قال بسرعة «لا أستطيع مجرد التمدد على القش والتفكير باللا شيء. ليتني أستطيع».

- «ذلك لأنك قلق ومنشغل البال فيما سيحدث. إنني أتساءل في

عجب عما إذا كانوا سينعمون بالراحة لو عرفوا وأدركوا ما تخبئه لنا الأيام».

– ربما إنهم الآن أسرى، وهذا كل ما يعرفونه فعلاً، فك الزر الأعلى في قميصه الذي صار فجأة ضيقاً على عنقه وأردف، إنهم يعرفون فقط ما يجري في لحظة وقوعه، ولذلك يعرفون الصدق والحقيقة.

– «وهل نحن الذين نعيش تصورات ما يمكن حدوثه لا نعرف الحقيقة»؟ سأله إيفارت، وهو سؤال مطروح أساساً عليه شخصياً.

– «الأنبياء وحدهم يفكرون بالمستقبل»، قال ستارنبرغ مضيفاً كتفسير لاحق: «وأنا أقصد بذلك المستقبل الواسع البعيد، ولا أقصد إمكانية تناولهم الطعام غداً».

– «ولكن إذا كان المستقبل خادعاً، فلا بد أنهم حمقى»، رد إيفارت.

– «لا، في بعض الأحيان تتحقق نبوءاتهم، ولولا ذلك ما كانوا أنبياءً! أنظر إلى الآخرين»، استطرد يقول في حماسة، وهو يلوح بيده نحوهم. «إنهم نائمون، أو يطالعون، أو يلعبون الورق. إنهم يعيشون في مجالات واقعهم الضيقة. ولو حاولنا أن نخبرهم حقيقة الموقف حسب فهمنا، فإن القسم الأكبر منهم لن يصدق ذلك، وسيتعرض عدد منهم للقتل وهم يحاولون الهرب. يبدو والحال على ما هي عليه أنهم في حصن حصين مما يدعى الحقيقة عن طريق نوع من أنواع الحماية الطبيعية، التي هي مناعة أرجو أن تنقذهم، وتنقذني بذلك أيضاً. إن ما تحسبه حقيقة قد ينقلب شيئاً مغايراً تماماً».

– كانت شرذمة من الجنود تعبر الطريق في الخارج، وبعضهم

يغنون بأصوات عاليةٍ بأنغام غريبة متنافرة وشجارية توحي برغم ذلك بشيء من المرح والحبور. وقفوا أثناء مسيرتهم. ارتفع صوت جر الأقدام وضرب النعال، وتصفيق الأيدي في رقصة عاجلة مرتجلة لم تنته إلا عندما صارت الأنفاس ثقيلة متقطعة لرجال هدهم التعب ونفدت قواهم، وارتفع صوت فاصل بين آخر خطوة أتاها الجنود وتصفيق المشاهدين. عبر الجنود وابتعدوا، وعندما خف صوت ضجيجهم أزّت طلقة بندقية وحيدة من نهاية القرية.

تضايق عدد من النائمين داخل الحظيرة وندّ عن قليل منهم أصوات كنخر الخنازير وهم يتقلبون في أحلامهم. هزَّ إيفارت رأسه باتجاه الجنود المبتعدين وقال: ذلك هو كل ما يوجد من الحقيقة، ذلك هو، وهؤلاء الرجال يفوت عليهم النوم بمرورها.

– أشاح ستارنبرغ نظره، وهو يخفي قناعاً من وهن العزيمة والتثبيط. «ذلك غير صحيح»، قال لإيفارت، «وأنا أرفض تصديقه». إن سيل حججه التي جمعها بثقة وثبات للحديث في صالح المستقبل الذي ينتظرهم انهار تحت وقع ضربات شرذمة من الجنود السكارى مرُّوا بجانب الحظيرة. أراد أن يستأنف النقاش واستدار قليلاً لكي يعيد وضعه إلى ما كان عليه، لكن كلماته أبت أن تتحد مع بعضها لأنها فقدت بؤرة تركيزها. لم يستطع بدء الحديث. هل ألمَّ به هذا الكرب لأنه كان عاجزاً عن التعبير عن شعوره، أم لأنه كان يفكر بقرب أجله؟ راح يتساءل في عجب، وهو يفتح حقيبة نومه، ويسوي كومة من القش، ثم طوى معطفه الخارجي كوسادة للنوم، وهو يقوم بذلك كله بحركات بطيئة متعبة.

انتقل إيفارت إلى وضعية جلوس أفضل، ويداه تلفان رأسه. «الآخرون يفهمون الموقف بالقدر الجيد الذي نفهمه به، ويعرفون تماماً

ماذا يتوقعون من الغورشيك. إنني واثق كل الثقة من أنهم يملكون من الشجاعة مثل ما نملك».

- «لا بأس. إنني أحاول فقط أن أسوغ مخاوفي الشخصية»، قال ستارنبرغ، وهو يتوقف عن تحضير فراش النوم، «والمخاوف التي تشعر أنت بها بطبيعة الحال».

- «ليتني كنت أشعر بها».

- «بالطبع، إنك تشعر بها»، رد ستارنبرغ بحماسة. «ربما أصابها الخدر من شيء ما، ولكنها موجودة على نفس الحال».

- «لا بد أنها موجودة دون أدنى ريب». قال إيفارت معترفاً. «إنني لا أحاول إخفاء مشاعري. إذا لم يكن لدى المرء ما ينشد العيش من أجله، فإن ذلك لا يعني أنه يريد الموت. إن من يعاني الألم لا يريد الموت بغرض التخلص من الألم، وإنما يريد دفع الألم عنه». أخذت عيناه تتلظيان من شدة الإرهاق، ولكنه استمر في حديثه: «قد يكون النبي أحمق، أما إذا قضى شهيداً في سبيل حماقته، فإنه يموت بأقل الدرجات وهو يأمل، وهذا ما نعجز عن فعله نحن. ذلك هو سبب أول لشعوري بالخدر: إن نمت، سنموت في يأس وقنوط، وأنا لا أريد أن أموت على ذلك الشكل».

بدأ يستطيب الانطلاقة التي وفرها استرساله في الحديث، وتابع يقول: «لقد قضيت القسط الأكبر من هذه الرحلة منشغل التفكير بزوجي».

- «إن هذا أمر عادي فلقد فكرت بزوجي مثلك».

- «نعم، أعتقد أن من السخف بمكان إفشاء مثل هذا الخبر والحديث فيه، ولكنني لا أستطيع تجنب ذلك. لقد كنت أقارن الموضوع في ذهني بالموقف الذي نعيشه الآن».

- «ليس ثمة وجه للمقارنة». قال ستارنبرغ معترضاً.

- «قد لا يكون هنالك وجه للمقارنة بالنسبة لك. أما بالنسبة لي فالأمر يمثل قفزة من شرك فردي ضيق إلى شرك ومشكلة أوسع وأعم. كان الفخ الأول يطبق على ثلاثة أشخاص فقط: أما هذه المشكلة العويصة فإنها تعني كل إنسان في العالم، رغم أن نفراً قليلاً من الناس عرفوها وأدركوها. إن مأساتي الصغيرة الشخصية - التي كانت في الماضي ولا تزال كما يبدو - هي مأساة تحدث كل يوم؛ أما هذه المشكلة فتحدث مرة واحدة. الأولى كانت تعني موتاً صغيراً، في ذاتي، أما هذه فتعني موتاً كبيراً، موتاً في كل ذات. المأساة الصغيرة لم أكن أتوقعها، أما هذه فكانت دائماً تخيفني. إنني لا أخاف من أجل ذاتي أو من أجل جلدي وحدي، صدقني، فأنا أخاف على الفرقة الموسيقية كوحدة متكاملة». رفع نظره إلى الأعلى، ورأى أن ستارنبرغ يعرف بأنه لم ينه حديثه: «لقد وقعنا في الأسر هذا اليوم فقط»، تابع يقول، «غير أن الإنسان يفكر كثيراً في ساعات قليلة محدودة. إن خاطرة فكرية أولى تنقله إلى عالم الألم والأوجاع والخاطرة الثانية التي تعقبها تلقي به في عالم اليأس. وعندما تلتقي الفكرتان تشكلان صورة صادقة. إن أفضل شيء للإنسان هو الاقتصار على أقل قدر ممكن من التفكير، على الرغم من عدم وجود مجال كبير لمنع الإنسان المفطور على التفكير من القيام بذلك. لعل الإمعان لفترة طويلة في التفكير يقود الإنسان إلى رؤية ما يدعو إلى الأمل، مع أنني أشك به في الوقت الحاضر».

- أخذت يداه ترتجفان، فوجد صعوبة في إشعال لفافته. كان سائر الرجال في الحظيرة نائمين تقريباً، فنهض وهو يستند على رزمة من القش لكي يقف منتصباً. كانت بعض المصابيح قد انطفأت بسبب نقص الوقود، وصارت الظلال على الجدران أكثر وضوحاً وتميزاً. عاد إلى النافذة في مؤخرة الحظيرة، ونظر من خلال قضبانها إلى فجوات

السحب في السماء، حيث أحيا ضوء القمر والنجوم بارقة من الأمل في داخل فؤاده. ترامى صوت قصف مكتوم من الشمال وترددت صيحات قليلة في القرية الصغيرة. أخذ بُعّد السماوات يتضاعف ويتضاعف كلما أطال نظره إليه، حتى أجبره آخر الأمر على إشاحة النظر عنها. كان يرجو ويتمنى أن تغمر الغيوم السماء بصورة كاملة وتمحو الفجوات الزرقاء، فحنى رأسه إلى مستوى الأرض كأنه يعطيها فرصة زمنية للتنفيذ، ولكنه عندما رأى السماء مرة ثانية كانت أعداد كثيرة من السحب قد رحلت، وراحت مساحات شاسعة من اللون الأزرق الفاتح تتألق بأعداد غفيرة من النجوم. لم يمنحه منظرها الجميل شيئاً من الأمل. في المرة الأولى التي قرأ بها عن النجوم في طفولته، عرف أن أقرب النجوم إلى الأرض يبعد سبعة وعشرين مليون ميل عنا. طفق يحدق النظر إليها ويطيل التفكير حول هذه المسافة الرهيبة، وركز تفكيره فقط على استحالة الوصول إليها حتى أخذ يبكي، وشعر الآن بآلام مشابهة لأن شعور الإلهام الذي شعر به عند رؤيتها يمكن أن يبتعد ويفارقه هو ورفاقه. فهنالك مشاكل كثيرة، بعيدة ومعقدة إلى درجة غير محدودة، ولا يمكن تعليلها وتفسيرها.

ظل واقفاً حتى أخذ جسمه يؤلمه من الإرهاق، ثم سار عائداً إلى موضع نومه في الحظيرة. كان مصباح واحد فقط مشتعلاً، ولكن نوره كان كافياً لكي يهديه الطريق إلى المكان الذي وضع معطفه عليه.

الفصل السابع

كانت العمليات العسكرية كلها على وتيرة واحدة، وكانت الخسائر تتناسب تماماً مع قيمة الأرض المكتسبة. إن هذه العقيدة القتالية الغورشيكية التي لم تدوّن حتى الآن في صيغة محددة والتي كان الجنرال يحارب عن غير وعي بكل طاقاته الخيالية لإثبات بطلانها، فرضت نفسها عليه كحقيقة أكيدة يتعذر على أي قدر من الديالكتيك دحضها والنيل منها. لقد عرَّضت هذه الرؤية السليمة الصادقة الجنرال لآلام جديدة بينما هو يقرأ رسالة مطولة عن احتياطي الوحدات والذخيرة من أجل الهجوم القادم، فأحدث صوت قرعة مفاجئة على الباب انقطاعاً ساراً ومقبولاً في سلسلة أفكاره، وجعلت عقله يخضع من جديد لنداء الواجب.

– «ادخل»، صاح الجنرال.

– «برقية يا سيدي»

– راقب الجنرال الحاجب وهو يخرج، ثم ألقى ناظريه على درفتي الباب المغلق الخاليتين من أي شيء. أهمل مخه المتطفل نداء الواجب

وراح يحدثه: إذا كان هنالك إله ـ حرب؛ فما هو إلا صيدلاني مهين شحيح تتوازن كفتا ميزانه بصورة متكافئة، على الكفة الأولى نجد الدماء، وعلى الكفة الثانية نجد التراب. لو حالفك الحظ ما يكفي للتقدم بضعة أميال مقابل خسارة زهيدة، كن على ثقة أن الحظ العاثر يتربص لك أثناء التراجع بعد ذلك؛ أو أثناء التقدم ميلاً واحداً آخر بعد معركة دامية تتوازن فيها كفتا ميزان الصيدلاني مع ثمن التقدم الأول. مرد ذلك أن الشجاعة قد وصلت منذ أمد طويل إلى درجة كبيرة من الارتفاع، وأن العناد بلغ درجة كبيرة من الشدة، وأن اللوجستيك وقراءة كل طرف لأفكار الطرف الآخر بلغت أقصى آيات الدقة والكمال، مما جعل إحراز النصر الحاسم ضرباً من ضروب المستحيل. حتى لحظة تنفيذ هجوم الجنرال، كان الجيشان يجابهان بعضهما ولكنهما لم يتحركا قط وراء شريط من الأرض عمقه عشرون ميلاً تتأرجح فيه خطوطهما الدفاعية الشريطية إلى الوراء وإلى الأمام مع مرور السنين، هذا على الرغم من أنهما خلال تلك المرحلة تكبدا خسائر فادحة وكأنهما اشتبكا في اثنتي عشرة معركة قتالية خسرها الجيشان بنسب متساوية. كان الجنرال يعرف حق المعرفة أنه إذا لم يجمع العدة الكافية ـ من بشرية وآلية ـ لاقتحام واحتلال سلسلة الجبال في الربيع، فإن خط الجبهة سيتعزز من جديد، وسيجد الغورشيك أنفسهم في وضع هش مكشوف على الأراضي المنخفضة بحيث أن خط جبهتهم كله سيتحطم عاجلاً أم آجلاً ويلقى بوطنه وشعبه إلى محرقة الموت في غابات الجليد الشمالية أو في مياه المحيط الغربي الكبير القارسة، أما إذا كان هجومه الربيعي مظفراً، من جهة أخرى، (وهو لا يزال على ثقة تامة بأنه سيكون مظفراً)، فإن مصيراً مشابهاً ينتظر العدو. بنصر مؤزر، أو بهزيمة منكرة، سيتم تهشيم إله الحرب وهو يحمل موازينه المتعايرة بالتمام والكمال ويلقى به إلى الأرض.

إجتذبت صورة البطل الغورشيكي المتدلية إلى جانبه خط نظره، وكأنها كانت تحاول خلال فترة من الزمن الاستيلاء على انتباهه تحذيراً له من مغبة الوقوع في مكيدة شطوح ذهنه الخصيب. أحس الجنرال إحساساً مباغتاً أنه سبق أن شاهد ذلك الوجه، على الرغم من أنه لم يستطع تحديد زمان ومكان رؤيته لأنه لم يكن يعرف اسم الرجل الذي تمثله الصورة، ولم يكن يعرف تاريخ وفاته (هذا إذا كان قد توفي، وهو أمر كان يشك في صدقه، إذ خُيِّل إليه أنه رآه من فترة قريبة جداً). لم يكن الوجه منفراً، بعينين رماديتين معبرتين، وفك صلب متين، وأنف وثغر جميلين، وابتسامة لطيفة لا تكاد تُلمح ربما تكون العلامة الأولى لنوبة صرع وربما تكون علامة على مرح جوهري متأصل بالقدر نفسه. فحاول الجنرال أن يقرأ في قسماتها فحوى البرقية التي أحضرها الحاجب لتوّه. غير أنه لم يستطع أن يرى جواباً مدوناً هناك، فقد كان وجهاً قادراً على الإفصاح عن أعماق سحيقة من وراء مظهر يبدو فارغاً تماماً، أو أنه قادر على التمويه عن عقل فارغ وهو يهندس مظهره لكي يبدو عميقاً ومفكراً. لذا ألقى الجنرال نظره إلى الأسفل وراح يتفحص الحروف الكبيرة المدونة على قصاصة الورق الرقيقة:

- «بالنسبة لمشكلتك الخاصة بالأسرى غير المحاربين، يجب أن يرموا بالرصاص فوراً - المارشال القائد».

- لم يكن الجنرال قد نام نوماً جيداً، لأنه كان منشغل الذهن كثيراً بمصير الفرقة الموسيقية، كما كان يراوده طول الليل أمل مجنح بأنه قد لا يضطر للإجهاز عليها، وأنه إذا ما تلقى برقية مواتية من القيادة العليا فقد يستطيع أن يقنع الفرقة بإحياء حفل موسيقي واحد على الأقل في الحظيرة قبل أن يتم نقلها إلى أية منطقة أخرى تحدد لها. لم يكن ثمة مجال لإنكار قوة البرقية الماثلة أمامه بورقها الصقيل، كما أنه شعر بالأسف الشديد والندم في قرارة نفسه للأمر الصادر عن

القيادة لأنه كان يعرف أسلوب القيادة العليا في اتخاذ القرارات. لم ينظروا إلى مشكلته بعين الاعتبار والتبصر على الإطلاق، وهو واثق كل الثقة من ذلك. كانت قوانين الدولة وسياساتها تُفرض بكل قوة وصرامة كي يظل الوطن سالماً مصوناً، حتى أن كتيباً عن شؤون الحكم تم تلقيمه في عقل إلكتروني، دون أي اعتبار للمسائل التي ينبغي حلها والقرارات التي يتوجب اتخاذها، ثم أدخلت فيه كل التساؤلات، وتمت المصادقة عليها بعد ذلك من قبل الوزراء المختصين. لكل فرع حاسوبه الخاص - الحرب، والطعام، والذخائر - ليقوموا جميعاً بدور أزلام أكفاء موثوقين للنظام لا يخفقون مطلقاً في ترجمة ولائهم له. كانت الإجابات السليمة في الامتحانات الحكومية تخضع لتدقيق العقول الإلكترونية، كما أن الأوراق التي لم تتطابق مع ميكانيزمات الحواسيب الدقيقة الحساسة كانت تفيض على شكل مزق وقصاصات. بهذه الصورة الراسخة في ذهنه، راح الجنرال ينظر إلى البرقية: فهي صورة مميزة لدقة الحاسوب وقراره، مع مصادقة القيادة العليا: فوراً، المارشال القائد.

تشبث بطرف الطاولة، وقلبه ينبض سريعاً من الغضب. لقد وردت البرقية بصورة مباغتة تماماً، على الرغم من أنها لا يمكن أن ترد بأية صورة أخرى. جلس الجنرال وأنامل يده تعبث بذقنه، وسلوى انتصاره العسكري الأخير لم تملأ ذهنه سوى بالذرائع والمسوغات التي تجعله غير قادر في هذه اللحظة على سماع سيمفونية يعزفها الأسرى في الحظيرة. إنضم إلى محاربته إحساس طاغ من الإحباط في داخله، فسدَّ أمامه الطريق في وجه كل الحلول التي قد تكون ذات عون وفائدة له لو أن مشكلته مشكلة عسكرية.

لقد كنت أبلهَ إذ راودتني الآمال، قال يحدث نفسه، فالأمل هو الذي يجعل الإنسان يعاني ويتعذب، ولذلك ينبغي ضبطه واجتثاثه من جذوره. قد يكون تحطيم الأمل المنشود مصدراً لصنوف العذاب والمعاناة،

وقد يكون صفة من تلك الصفات اللا واقعية الأصلية التي تجعلك في حالة خصام انفعالي مع القيادة العليا بسبب إصدارها أمراً بقتل الناس الذين تؤثر أنت عدم قتلهم، وهذا لعمري موقف سخيف تجد نفسك غارقاً فيه، هذا ما دار في ذهن الجنرال. تمنى في لحظة من اللحظات أن يحدث شيء ينقذ الفرقة ويخلصها من الموت، وفي اللحظة التالية اعتراه الأسى والندم لأنها وقعت في الأسر، فراح يكيل السباب والشتائم على النقيب كوندال.

لقد أتاحت هذه الوقفة المتمهلة المجال لبروز إحساس عميق من الالتزام بالنظام، تأصل في شخص الجنرال خلال سنوات عديدة قضاها في الجيش. إنه بالدرجة الأولى، كما وجد لزاماً عليه أن يذكّر نفسه، جندي ينبغي عليه إطاعة الأوامر إضافة إلى إصدارها، وإذا ما قالت القيادة العليا بأن عليه إعدام الفرقة الموسيقية، فليس ثمة شيء آخر يستطيع القيام به سوى التحقق من تنفيذ ذلك. إن عليه أن لا يفسح المجال للمشاعر السطحية أو العاطفية في التدخل مع الواجب، وعليه أن يكبح الأسى والندم، ويمنع الأمل من مراودة ذهنه، كما ينبذ الغيظ والغضب باعتبارهما سلوكين صبيانيين لا يجديان فتيلاً.

أخذ يسترجع في ذاكرته المصير الأسود الصعب الذي حل بالذين خالفوا الأوامر. لقد جرت محاكمتهم أمام المحاكم التي، وإن كانت هيئاتها من قضاة بشر، كانت أحكامها تصدر سلفاً عن عقل إلكتروني محلف. كانت الأحكام صارمة عنيفة لمثل هذه الجرائم: فالمذنبون كانوا يجردون من مراتبهم ويصنفون من المدانين المحكومين، ثم تستبدل بزاتهم الرسمية وشاراتهم بجلباب من قماش الأكياس من نوع أشد سوءاً من لباس جنوده، ثم يسلحون بالمعاول ويرسلون بسيارات شحن مكشوفة بموجب بطاقات سفر للذهاب فقط إلى منفى بعيد ناء في زاوية سفلى من زوايا القارة، حيث لا يسمع أحد بأخبارهم مرة ثانية على الإطلاق.

لم يمنُّوا عليهم حتى بالقتل. كانت عبارة الحكم تعرف وتتميز بفعل معين هو «يسوى». التسوية مع أي شيء؟ راح الجنرال يتساءل، ثم استجمع أفكاره وقال لنفسه: يسوى الواحد منهم مع ديدان الأرض، ويكبل بالسلاسل في الفلاة تحت رحمة تعاقب الفصول والحرارة والبرودة والجوع وسياط الأعمال الشاقة الإجبارية. وإلى جانب الضمير ونداء الواجب، كانت هناك دواع كثيرة ترتب على المرء إطاعة الأوامر والامتثال لها.

تناول الجنرال قلم حبر لكي يتفحص ويدقق أرقام مخزونات الذخيرة، غير أن ذهنه تشوش وانزعج من الألحان والإيقاعات شبه المكتومة القادمة من العدم، في تهويمة رقيقة لطيفة والتي كانت تشبه دخاناً يزينه ريش وهي تتداخل ببعضها بعضاً في عزف مشترك إلى أن أخذت تعلو وتعلو وتزداد ملحاحية؛ فهز الجنرال رأسه لكي ينفضها عنه وكأنه يحاول أن يبعد ذبابة. كانت مجابهتها صعبة مهلكة، لأنها أقبلت إليه بإيقاع أقوى من أي وقت مضى، متخللة أنغام المسيرات العسكرية والأغاني الشعبية، صدّاحة بالألحان القوية عن الوطن والتقدم، والبقاء والحرب، حتى أخذ عقله وتفكيره يسبح في جو من الأمن والهدوء لم يشعر حتى تلك اللحظة أنه عاشه في الماضي.

– دق الجنرال أحد الأجراس، فانفتح باب المكتب، ووقف كوندال أمامه قائلاً: «نعم، سيدي».

– «اصطحب حارسين وأحضر قائد الفرقة الموسيقية».

– إنتظر إغلاق الباب، كأن أفكاره يمكن أن تكتشف إذا ما شردت في الممشى خارج المكتب. كان هنالك صدع يتنامى في داخله، ولم يعرف إلا بشق النفس كيف حل به. كان الصدع أشبه بغرسة سامة تشطأ في الليل من تربة نظيفة ماحلة، على غير توقع وانتظار، فتوزعه بين الواجب

وبين عاطفة من نوع جديد جعلته يتوجس خوفاً، راح يحاكم الأمور، ضارباً بعرض الحائط أي نوع من المحاكمة التي اعتاد اللجوء إليها في الماضي، مسجلاً أن القيادة العليا لا تملك ما يبرر إصدار الأمر بقتل ثلاثة وتسعين موسيقياً، وأنه ليس لقتلهم أي هدف، وأنه غير ضروري إطلاقاً. راح يتساءل عما يمكن أن يفعله، ومن خلال التأمل والتفكير بشتى وسائل العمل راح ينظر بحذر إلى حيث كانت المدافع تدوّي على بعد أميال قليلة منه، إلى حيث لا يزال يوجد نوع من الحرية الحذرة المتحفظة، غير أن الخط الذي يفصل بينه وبين ذلك الجزء من العالم كان على درجة كبيرة من القوة بحيث أنه وجد صعوبة في تحطيمه ولو في محض تفكيره.

وقف إلى جانب النافذة فشاهد قائد الفرقة الموسيقية مقبلاً من الحظيرة، يحيط به حارسان، ويتقدمهم النقيب كوندال بمشيته العسكرية النظامية. أخذ الجنود يحدقون النظر إليهم وهم يجتازون الساحة المكشوفة أمام المنزل، كما أخذ الجنرال يراقبهم وهم يصعدون السلالم حتى غابوا عن بصره. راح يناقش الموضوع لنفسه: أعتقد أنه لا مفر من إعدامهم ما دامت القيادة العليا ترى ذلك، ولكنني إذا ما وجدت مسوغاً كافياً لتعديل أمر القيادة العليا وتلطيفه وجعلت الفرقة تحيي حفلات موسيقية لي ولبقية الضباط، فإنني أفضل أن افعل ذلك. تناول البرقية مرة أخرى، متوخياً أن تكون الكلمات قد تبدلت واختلفت عن آخر مرة شاهدها بها. «يُرمَون بالرصاص فوراً، ولا شيء سوى ذلك».

أشاعت خيبة الأمل القذى والمرارة في نفسه بصورة غير متوقعة. الفشل في احتلال تلة، أو غابة، أو تأمين معبر نهري أشياء يتقبلها بروح طيبة، أو بهزة كتف، أو ربما بساعة ندم وندب حظ على خطة عسكرية عصفت بها الريح، أو ربما ببضع ساعات من الحسابات المتروية حول كيفية إعادة تعزيز خطه الضعيف، أما لأن القيادة أصدرت أمراً كان

يتوقعه بكل الأحوال، فإن الانفعال الذي كان يجعل تفكيره وحكمه في الماضي أكثر تطرفاً في فن الحرب يهدد الآن بجره إلى أعمال سخيفة قد تكون محفوفة بالمخاطر.

تذكر قامة إيفارت الطويلة النحيلة وهو يمشي بين حارسيه، فكانت ذكرى صريحة دالة على أن الصراع لم يبدأ بعد. إن الشيء المعقول الأول الذي يتوجب عليه القيام به، كما حدث نفسه، وهو يلقي البرقية في الصينية أمامه، هو تنفيذ القتل بالسرعة الممكنة، فيهزم بذلك غارات الأمل والألم التي بدأت تغير عليه، انتظر في لهفة قرعة الباب وعندما سمع القرعة أجفل إجفالة شديدة بحيث أن عدة ثوان مرت قبل أن يتمكن من الرد عليها. طلب من كوندال والحارسين الانتظار خارج الغرفة، وتم بعدها إغلاق الباب خلف إيفارت.

تناول الجنرال البرقية عن الصينية ونظر إليها كأنها وثيقة مطولة ومعقدة لا يستطيع فهمها.

ظل إيفارت واقفاً، فشاهد شعاع الشمس يسقط على شكل حزمة عبر حاملة النشافة فوق طاولة الجنرال، ولاحظ بثرة صغيرة حمراء بشكل الدبوس على جبين الجنرال عندما انحنى فوق الورقة. وعندما طاف بنظره في أرجاء الغرفة شاهد سحلية تتمايل بسرعة فوق الحائط، وتجري بسرعة عبر «دلتا» مرسومة على أحد المصورات، ثم تعبر زاوية، وتختفي خلف الصورة الغورشيكية المتدلية قرب الباب. اتجه نحو الجنرال فرآه ينظر إليه، وهو ينفث الدخان من لفافة تبغ أشعلها حديثاً فقال الجنرال: «أرجو أن تكون العناية بكم على ما يرام».

- أجاب إيفارت إجابة متزنة قائلاً: «ليس ثمة ما نشكوه، على الرغم من أننا نريد بالطبع معرفة ماذا تنوون فعله بنا».

- «أنا مهتم بمستقبلكم أيضاً». قال الجنرال مبتسماً، وهو

يلاحظ القلق الذي حاول أسيره إيفارت إخفاءه بكل ما أوتي من صبر وتجلد. تناول البرقية وسأل: «من هو معاونك في قيادة الفرقة».

– تملك الشك إيفارت وأجابه: «رجل يدعى ستارنبرغ».

– كتب الجنرال الاسم على قصاصة ورق، وألقى قلم الرصاص جانباً فأحدث وقوعه صوتاً، شاهد الجنرال النظرة القلقة المرتبكة لا تفارق وجه إيفارت، ولكنه بدلاً من أن يعلل سبب سؤاله الأول سأل برباطة جأش من جديد: «هل نعمتم بنوم طيب في الحظيرة الليلة الماضية»؟

– «بين موجات القصف المدفعي».

– «قصف مدفعي؟ لم يكن هناك قصف، عدد محدود من القنابل في الشمال فقط. إننا ندّخر الذخيرة لهجوم الربيع».

– اغتاظ إيفارت وانزعج من موقف خصمه الغريب المضحك وقال: «يبدو أنك الآن تعطيني معلومات عسكرية».

– «ربما، ولكنك لن تتمكن من استعمالها. ذلك هو وجه الخلاف».

– «ماذا لو هربت»؟

– وقف الجنرال على قدميه واتكأ إلى الأمام حتى أصبح وجهه ملاصقاً لإيفارت تقريباً. ثم قال محتداً: «إن أي شخص يحاول الفرار سيرمى بالرصاص من قبل حراسي. لن يفلح أحد في الهروب».

– «ربما يفلحون. إن رجالي يتحدثون عنه ويدرسونه».

– «رجالك لا يدرسون ذلك، وإلا ما تجرأت أنت على إفشائه لي. على أية حال لن يكون هناك حراس بعد صباح غدٍ». جلس من جديد، واتكأ إلى الخلف. تقلصت حواف عيني إيفارت لمغزى هذا التضمين

الكلامي فقال لنفسه: إذاً هذا هو سبب وجودي هنا. ولكنه كان يتمنى في قرارة نفسه أن يكون استنتاجه خاطئاً.

هذه هي الحيلة رقم /2/ للإيقاع بي، لعل ذلك هو ما يرمي إليه، ثم وضع يديه خلف ظهره منتظراً ما يصدر عن الجنرال من كلام جديد.

تناول الورقة التي كتبت عليها البرقية، ووضعها على الطاولة، ثم طواها، كأن مضمونها أثار فيه الخوف والفزع، إذ تردد عدة مرات قبل استئناف الحديث تردداً واضحاً جلياً. «الحقيقة»، قال بنبرة تنمّ عن نفس من عدم الانحياز: «عندي بعض الأنباء السيئة». كان يعرف أنه ليس بحاجة لذكر المزيد، ولكنه فعل ذلك لأن التكرار اللفظي لأمر القيادة من شأنه أن يعزز قراره الخاص في إطاعته وتنفيذه. «أنت ورفاقك جميعاً ستعدمون صباح غد».

- رانت فترة صمت وهدوء طويلة. استحالت سحنة إيفارت بيضاء وامتقع لونه من خبر مصاص الدماء المتوقع والجارح إلى أقصى الحدود؛ كأنما تم قصره وتبييضه، بصرف النظر عن النظريات العلمية الدقيقة الخاصة بالقصر والتبييض، من هذه الفكرة الرهيبة المروعة المتعلقة بتوقيع القتل الجماعي. وكأنما الأمر يشبه شيئاً كان يدور حوله عن بعد لسنوات وسنوات وإذابه يُدفع إلى القرب منه ليرى بعين الخوف والرعب أنه فراغ بفراغ.

- مع ذلك كله، استطاع بعملية ضبط أعصاب عنيدة أن يصمد ويبعد عنه كل مخاوف مشاعره البدائية وأن يسترد أنفاسه وشجاعته من قلب الجليد الملتهب، فانتحل مظهر الهدوء الظاهري وهو يحدق نظره بشدة إلى الجنرال «لسنا جنوداً»، قال في نهاية الأمر.

- «فنحن لم نحضر إلى الجبهة من أجل القتال».

- «أعرف»، قال الجنرال «ولكن ذلك ليس هو بيت القصيد. لقد

أصدرت قيادة الغورشيك العليا الأمر لي. وليس بمقدوري أن أفعل شيئاً إزاءه. ليس ثمة ما يقال أو يناقش لأن قرارهم نهائي وحاسم».

- «ألا تستطيع مناقشة صحته؟ أنت لا تعطي أمراً بإبادة فرقة موسيقية. ذلك مستحيل».

- كان الجنرال منهكاً، يبدو وكأنه قضى عناء يوم كامل. «إن قيادة الغورشيك العليا لا تأخذ أسرى بالعادة»، قال وكأنه يقرأ في كتاب تعليمات، «وأمر قتلكم مرده أنكم تكلفون طعاماً ووقتاً وجهداً وقلقاً لتأمين حراستكم. لن يفيد شيئاً من فرقة سيمفونية، ولا نريد أن نهدر طاقات رجال ممتازين في حراستكم، في وقت يمكن توظيفهم فيه للقتال والحرب. تلك هي غايتهم من إصدار الأمر بقتلكم. وذلك هو ما يسمونه المنطق. وأنا لا أستطيع أن أجد تسمية أفضل من ذلك بالنسبة لي».

- حنى إيفارت إلى أمام واتكأ على طاولته ثم صرخ: «إنهم لا يعرفون ما يفعلون. إن قومكم يجب أن يعرفوا بأن من الجريمة بمكان ما يفعلون. إن قومكم يجب أن يعرفوا بأن من الجريمة بمكان قتلنا والإجهاز علينا، وأنه لا يوجد مسوغ أو عدل في فعل ذلك». نظر وراءه إلى الباب الموصد، وإلى المصورات على كل جانب منه، ثم اتجه بنظره إلى الجنرال، وهو لا يزال يجلس وراء طاولته، يرفع الجرس الصغير ويهزه ويسمع صوته: فقد كان صوته مثل قطرات الماء ترش برذاذها جو الغرفة المكفهر.

- «أنا متأسف»، قال الجنرال وهو يضع الجرس في مكانه، ويقلب أصابع زوج من القفازات البيضاء وراءه، «ولكن ليس هناك ما أستطيع فعله». فُتح الباب الآن، ووقف النقيب كوندال منتظراً أوامر الجنرال.

- «هل تريد مساعدتنا إذا استطعت ذلك»؟

- «ماذا ترى أنت»؟ قال له الجنرال. غير أن إيفارت كان قد مشى إلى مكان وقوف الحارسين. ولكنه استدار لكي يقول بسخرية ساخطة: «لن تتاح لأي منا الفرصة على ما يبدو لحل مثل هذه المشكلة العويصة».

- «ما دمت حياً ترزق، بمكنك دائماً أن تتطلع بعين الأمل لسنوح الفرصة».

- «ليس بعد أن يصدر الحكم ضدك»، رد إيفارت.

- «إذاً ليس لي إلا أن أعبر عن أسفي تجاهكم». قال الجنرال باقتضاب. «إنني بكل صدق وإخلاص أرثي لحالكم لأنكم لا تستطيعون فهم أسلوبنا في الحياة، ولن تستطيعوا ذلك أبد الدهر كله. الحقيقة أننا نحن الغورشيك، عبر مسيرة التطور التاريخي للعالم، نواصل حمل شعلة العذاب والموت والخطر والولادة. نحن في وطننا وبطابع وجوده الأوتوقراطي وحده، نرعى العصيان ونربيه، ولكننا دائماً نجهز عليه. ذلك هو سر قوتنا الداخلية، وهو شيء ربما لم تسمعوا به أو تدركوه أبداً. بهذه الطريقة وحدها نؤمن المحافظة على استمرارية التاريخ والطبيعة الإنسانية جنباً إلى جنب. نحن مأثرة عظيمة في هذا العالم. إننا نَعِد قومنا الغورشيك الذين لا يتمردون علينا برغد العيش في حدود إمكاناتنا. إن من السهل اليسير علينا الوفاء بمثل هذا الوعد لأن مشاكلنا السابقة كانت كبيرة جداً (فقد واجهنا مجاعات فاجعة، كما تعرف)، بحيث أنهم لا يتوقعون غير النزر اليسير. لقد صارت مطامح بطونهم المشدودة متواضعة جداً بحيث نستطيع تلبيتها جميعاً تقريباً. فكر بذلك يا إيفارت ! أما أنتم، من جانبكم، فلن تتمكنوا بأي وقت من الأوقات من الوفاء بوعودكم الطائشة، ولاسيما وأن وطننا يواصل استنزافكم إلى أقصى حد ممكن، إن وطننا سيظل على قيد الحياة أبد الآبدين. أقول ذلك دون أدنى تبجح أو مغالاة».

- غير أن إيفارت استشف التبجج في نبرات صوته. حاول إيفارت محاولة أخيرة لصالح الفرقة الموسيقية وقال: «أليس هناك إذا ما أستطيع تقديمه لك مقابل عدم الإجهاز علينا؟ ماذا لو قبلتم، مثلاً، قتلي وحدي والإبقاء على حياة الآخرين»؟

- «كنت أتوقع منك هذا الطرح. مادمت رجلاً ضعيفاً مهيض الجناح، ماذا بمقدورك أن تقدم غير حياتك الشخصية؟ لا، إن عليك أن تقدم ثمنا أفضل من ذلك. حياتك لا تغني عن شيء. كل ما علي أن أفعله هو رفع إصبعي الصغيرة، فتتسربل أنت بالطلقات، وتغدو بعدها جيفة تنهشها الكلاب. قدم لي شيئاً ذا قيمة». ثم طفق الجنرال في الضحك.

- فكر إيفارت وقال في نفسه: إنه مجنون. ثم توجه إلى الجنرال وقال: «إنك الشيطان، تبغي روحي».

- قهقه الجنرال بضحك غير مصطنع وقال: «روحك. أي قاموس غريب لديكم، لقد حُذِفت هذه الكلمة من قواميسنا منذ عهد بعيد».

- «لماذا لا تجهزون علينا الآن وينتهي الموضوع»؟ بلغ النقاش نهايته على ما يبدو: وأي زيادة فيه إنما تكون في سبيل إشباع رغبة الجنرال كما يحدث للقط وهو يلاحق الفأر. مع ذلك كانت المناقشة لا تزال في نظره الأمل الأوحد المرجو.

- «هل تعتقد أنني إنساني النزعة»؟ استرسل الجنرال في الكلام «حسناً، لست كذلك. أنا جندي. ولكن بما أنني لست مخلوقاً بشراً؟ إنك تعتقد أنني إنسان أوتوماتيكي (ربوط)، ورجل بلا قلب، ومجرد آلة متحركة تسير عندما تقرن وتملأ بالوقود. لعلك على صواب، ولكن إذا كان هذا هو رأيك، فإن عليك أن تقول ذلك عن أي شخص آخر في العالم، إنك تظنني إنساناً أوتوماتيكياً لأنه ليس على القيادة العليا إلا أن تطلب من عمال أجهزة اللاسلكي الضغط على مفتاح المورس فأنطلقُ أنا

في الحركة. هذا ما تظنه، أليس كذلك؟ لا بأس، إنك مخطئ. لا شيء يحركني غير الله وحده».

- «آمل ذلك».

- «أتأمل ذلك»؟ غرق الجنرال في الضحك وقال: «لا بأس، وإياك أن تخدع نفسك في التفكير بأن إلهي هو إلهك نفسه، أو أنني سأعرِّض حياتي للخطر في سبيل إطلاق سراحكم. لا، لن أفعل ذلك. إنني على أتم الثقة بأنك ستقبل ذلك لو فعلته، لأنك متشرب بالروح العسكرية مثلي، ولكنني أفضل منك بمليون مرة».

- «بأية مقاييس»؟ سأل إيفارت.

- «بمقاييسي. فمقاييسي في الوقت الحاضر هي الوحيدة المعتمدة».

- «في الوقت الحاضر، ربما. ولكن ما أن تمر لحظة من الزمان حتى تنتقل لحظة أخرى انتقال الضفدع وتتخطاها نحو المستقبل. ألم يخطر لك ذلك أبداً؟ ثمة مستقبل عظيم مُدّ خَرٌّ في عالم الغيب للذين يفكرون بالخلود والأبدية، وأنت لست واحداً منهم». لم يكن إيفارت يشعر، خلال حوار تراشق الصواريخ هذا بالراحة وسلاسة العبارة وكأن كلماته أنغام توافقية غائصة تحت مياه البحر وتحمل شيئاً من مدلول أرفع؛ غير أن هذا المدلول الأرفع كان في منأى قصي جداً في ارتفاعه عن أن تبلغه بلوغاً توأمياً أي من روحيهما المتضاربتين مما جعله يقتنع بأي شكل من أشكال البرهان على وجوده، ويشعر بالرضا إذ تتوفر له بأية حال إمكانية إدراكه إدراكاً غامضاً.

- ابتسم الجنرال وقال: «من سيكون الحكم على ذلك»؟

- «أنا. فذلك هو حقي وامتيازي. لقد أدنتنا لتوك وأنت تريد الآن أن تقاضينا أيضا. لا يمكنك القيام بالدورين معاً».

- «لا أريد القيام بالدورين كليهما، جوهر الأمر هو أنه لا فرق كبير عندي سواء قتلتم أم لم تقتلوا. وإذا كنت تريد معرفة الحقيقة، فالحقيقة هي: لو كنت صاحب الأمر، لأطلقت سراحكم فوراً. غير أن القيادة العليا تأمرني بقتلكم. لست عديم الفؤاد، ولكنني لست مغفلاً أيضاً. أعرف على أي الجانبين أنا. ذلك هو مصدر قوتي، وهو أنني أعترف بأنني على أحد الجانبين. أما ضعفك فهو أنك تأبى الارتباط بأي من الجانبين».

- «لن أرتبط مطلقاً. ولن أنحاز بأقل الدرجات للطرفين الخسيسين المعروضين لي. لا بد من وجود طرف أفضل من هذين الطرفين. وربما تكون وحشيتكم في الإجهاز علينا دليلاً ثابتاً على وجود هذا الطرف الأفضل، الطرف الثالث، الذي يتعذر عليك وعلى بني قومك معرفة أي شيء عنه، وبذلك لن تفرضوا سلطانكم عليه».

- «بالنسبة لي شخصياً»، قال الجنرال، «لن أنعم بشيء من الارتياح من الانصراف إلى التأمل على هذا النحو. ولكنني أرجو أن يكون ذلك ذاعون وفائدة لك كما يبدو، رغم أنني أشك في ذلك».

- استدار إيفارت ، وقد عجز عن إيجاد الجواب المناسب، لمغادرة الغرفة.

- «ثمة شيء واحد آخر أريد أن أقوله لك»، ناداه الجنرال. «يمكنك أن تبلغ أفراد الفرقة بأنهم إذا عزفوا سيمفونية لي ولعدد آخر من الضباط، فإنني سأرجئ تنفيذ إعدامهم يومين كاملين».

- ارتسم بريق مفاجئ جديد على ناظري إيفارت. كان الهزل والدهش جزءاً من البريق، ولكنه كان بالإضافة إلى ذلك زاخراً بالأمل والرجاء، فانتشله تماماً من عالم استسلامه وانصياعه المنبهر، وسأل الجنرال: «لماذا تمارس الألاعيب معنا»؟.

- «إنني لا ألعب أية لعبة على الإطلاق. إنني أريد أن أسمع سيمفونية، وهذا هو كل ما أستطيع عمله».

- «ولكن إذا كان بمقدورك تأجيل إعدامنا يومين كاملين، فإنك تستطيع إطلاق سراحنا».

- «مستحيل»، قال الجنرال، بنوع من الجزم والتأكيد بحيث أن إيفارت استشف عدم اقتناعه بما يقول.

- «لا أصدق ذلك، ليس عليك إلا أن تبعد حراسك وتتركنا نمشي خارج الحظيرة». سدد نظراته إلى عيني الجنرال، يحاول قراءة الأفكار المنعكسة فيهما حتى يعرف المسار الذي تتخذانه في التفكير. ولكن الجنرال أشاح بناظريه بعيداً وهو يستشيط غضباً لشعوره المفاجئ بالخجل.

- «لقد عرضت عليك اقتراحي»، قال الجنرال، «وإذا كنت لا ترغب في قبوله فصرح بذلك. ولكن تذكر أنه قد يكون للآخرين وجهات نظر مختلفة». قطعت لهجة حديثه الصارمة حبل التواصل الآني بينهما.

- وقف إيفارت على مسافة لا بأس بها من الطاولة وقال: «سوف أسمع وجهات نظرهم». نظر الجنرال إلى النقيب كوندال الذي كان ينتظر الأوامر، وقال له : «عد به إلى الحظيرة». يبدو أن إيفارت لم يلاحظ الربتة الخفيفة التي ربتها كوندال على ظهره، ولكنه تحرك بصورة آلية نحو الباب، احتل إيفارت مكانه بين الحارسين بكل دقة دون أن يعرف ذلك، ثم جعل يمشي عبر الممر والنقيب كوندال في أعقابه.

- قفز الجنرال في مكانه، ولم يستطع أن يدور بكل هامته الشاهقة إلى الوراء. لقد قدم طلبه إلى الفرقة الموسيقية وطرح شروطه، ولكن الشرخ الكبير الذي كان يفصله عن إحساسه بالنظام والانضباط

أخذ يتسع ويتسع. وفي غمرة تفكيره وانشغاله بهذه الأشياء، لاحت له على حين غرة إمكانية محتملة في أن لا تقبل الفرقة الموسيقية عرضه هذا، بدافعٍ مما تراه كبرياء وشمماً، وما يراه هو غباء وبلادة.

- اندثرت الضوضاء الخلفية وفارقت ذهنه. لم يعد يلاحظ المدافع، والجنود وضوضاء الحرب الأخرى المصطخبة خارج حدود نافذة مكتبه. وحتى الجدران المغطاة بالمصورات كفت عن تأثيرها عليه وانحسرت عن مجال تفكيره.

صعدت ذبابة كانت قد حطت على شعرات معصمه السوداء إلى الهواء من جديد بكثير من الاشمئزاز والقرف لأنها لم تنعم بفرصة المضايقة من قبل يده الغاضبة الأخرى. طفق ينظر إلى الفراغ الأسود على طاولته ، كأنه يشاهد فرقة سيمفونية تؤدي العزف في نطاقه المركزي الفارغ، ولم يحرف نظره عنه حتى أخذت الغابة تطلق أنغامها الموسيقية الهادرة. طفق يفكر بعد أن قام بحركة تصويرية متخيلة وقال لنفسه: عندما ينتهي هذا الموضوع كله، سوف أعيش مرحلة تساؤل وتعجب عن الكيفية التي قضيت بها وقتي في اتخاذ قرار بصدد هذه المشكلة العويصة الشائكة، وكيفية توصلي إلى تنفيذ مثل هذا الأمر اللا معقول.

هدهدته أفكار في متاهات لا يخشى فيها لومة لائم، فغابت عن باله العقوبات التي تدفع ثمناً للقرارات التي تصدر عن مثل هذا الوضع. لقد عُزِفت السمفونيات على مشهد منه ومسمع في الماضي، وكان واحدا من جمهور لا يعود يتلقى وقع ألحانها الساحرة. لم تختزن ذاكرته أياً من الألحان التي سمعها في حياته، ولكنه تذكر عددا كبيراً جداً منها بحيث اخذ يفرق بين ما يريد سماعه وبين ما يمكن إرجاءه إلى مناسبة أخرى، مفعم الحس بفرحة الناس وهم يُصيخون أسماعهم مثله، ومفعم بالحس

بالإلهام والإيحاء الذي يبعثه أفراد الفرقة وهم يمارسون العزف. أخذ الجمهور يتكاثر، وأخذت الفرقة الموسيقية تتعاظم في أصدائها وتنوع ألحانها حتى بلغت أسماع الأنام جميعاً في سائر أرجاء الكون. بلغت الألحان في إحدى اللحظات درجة تيتانية جبارة، ثم أخذت تخبو شيئاً فشيئاً حتى صار من المستحيل سماعها، مع أن الناس كانوا يُصيخون آذانهم لسماعها حتى آخر حدود الفضاء الكوني.

لا بد أن حالة بسيطة من الاضطراب والخبل قد دبت بصورة من الصور في ركن من أركان عقله، إذ راحت الجماهير تتساقط وتفارقه مثل تساقط أوراق الشجر الذابلة، وصولجانات الألحان الموسيقية اللا مرئية لم تعد تصور وتكتنف مجالاً واسعاً كانت تصوره من ذي قبل. أخذ تأثيرها يتضاءل رويداً رويداً وبصورة ساحرة عجيبة، حتى انتبه لأمر رؤية اللوحة التي تشبه جهاز التلفزيون على طاولته، وهدد الخوف والفزع بإبعاد آخر آثار الموسيقا عنه. عادت إليه أفكار الشعور بالذنب المنغِّصة، تفسد عليه تفكيره بالموسيقا والألحان حتى رفع بصره إلى الأعلى وشاهد الجدران من حوله مفروشة بالمصورات. حطت ذبابة على يده من جديد. راح يراقبها، ومنحها الفرصة كي تستقر، ثم نقل يده الثانية فوقها بصورة مفاجئة وبسرعة أقوى من لسعة الأفعى رماها إلى الأرض، وأحس بالخيبة والخذلان عندما أخذت أوجاع ظنونه ووساوسه تعتريه من جديد بعد لحظات قليلة من غياب إحساسه بأي شيء سوى ذلك الفعل الظريف الذي لا معنى له المتمثل في قتل ذبابة. رقدت الذبابة على الأرض بلا ألم الآن، فراح يستشعر خلو عمله من أي معنى ويقارنه بعمليته الخاصة في تسوية معضلة، حيث لم يقده كل إسرافه في التفكير والاستغراق إلا لقرار مؤقت بديل.

إن من غير الواقعي بالنسبة لهم أن يرفضوا عرضي، قال يحدث نفسه. تناول، بعد أن فتح درج طاولة تحت ركبته، مصوراً ذا مقياس كبير

لآخر المواقع الدفاعية، ثم راح ينظر إليه بإمعان بضع دقائق، وراح بعد ذلك يحرك إبهامه بخفة على طول الطريق المعلمة باللون الأسود والتي تتعرج مطوقة خطوط سفوح التلال المحيطية المتاخمة البرتقالية اللون. جعل يعلّم بالقلم الرصاص حول البيوت التي يتعين تحويلها إلى قلاع محصنة، وعندما وصل إلى إحدى القرى، راح يتفحص مخطط شوارعها بزجاجة مكبرة. سأجعل راسمي الخرائط يكبرون تلك المنطقة أربع مرات، قال لنفسه، ثم أطلب من عناصر الاستطلاع ملء التفاصيل الدقيقة. وعلى مصورات أخرى، استدل على المواقع الدفاعية، ودرس القطاعات المتداخلة مع قطاعاته، متناسياً لحين من الزمان المشكلة التي خُيِّل إليه أنها كانت تعذبه وتقض عليه مضجعه منذ ولادته حتى الآن، فيما كان يكتب ملاحظات وخلاصات على قصاصات الورق وضمها معاً في حاملة.

إلى متى سيتعين عليّ انتظار ردهم؟ أخذ يتساءل وهو يضغط القلم في ذقنه. نظر إلى ساعته: فوجد أنه لم يبق غير نصف ساعة على موعد الغداء. عاد إلى مصوراته. دخل عليه حاجب يحمل حزمة من البرقيات، فقرأها واحدة واحدة على مهل ورويّة وهو يسجل ملاحظات من بعضها على هامش المصور، ويلقي بالبرقيات الأخرى جانباً في الصينية. تهادى دويُّ نيران المدفعية من التلال، فشاهد وهو يقف إلى جانب النافذة أشكالاً متباينة من الدخان تتصاعد نحو السماء. ثم سكتت المدافع، وانقشع الدخان، ولم يبق شيء سوى السماء الزرقاء الدافئة فوق التلال، وجعل يطوي الخرائط وأعادها إلى الدرج، ثم نسق البرقيات الهامة لكي يعمل على تنفيذها فيما بعد أثناء النهار. أتعبته ساعات عمل الصباح المجهدة، فقرر أن يخلد للنوم ساعة بعد الغداء. بقبعته وقفازيه، راح يمشي نحو الباب الذي يؤدي إلى حجرة نومه، وعندما كان على وشك أن يُدير مسكة الباب، سمع قرعة على الباب

الآخر الذي يؤدي إلى المشى.

كان النقيب كوندال يحمل رسالة فقال للجنرال: «إن هذه الرسالة من الأسرى في الحظيرة، يا سيدي».

تناول الجنرال الرسالة دون تسرع ووقف بجانب طاولته، ثم فتح الورقة وقرأها: ابتسم وهو يقرأ ما ورد فيها:

إن فرقتي الموسيقية ستعزف السيمفونية السادسة لتشايكوفسكي (the pathetigue) من أجلك في الحظيرة في السابعة من ليلة غد.

الفصل الثامن

بعد أن تم فصل المواد المعدنية في عدة الخيل الصدئة عن الجلد بسكاكين الجيب الصغيرة وتم استخدامها ضد أقسى أنواع الآجر، أصبحت بسرعة عديمة الجدوى بسبب تلفها والتوائها. راح ستارنبرغ، من مكان جلوسه، يراقب الذين يهيئون أنفسهم للفرار وهم ينهمكون ساعتين أخريين في العمل على حفر وتوسيع باعٍ من الألواح وجرف الحجارة والدبش بأيد عارية.

لقد تطرق أفراد الفرقة لموضوع الفرار قبل زيارة إيفارت لمكتب الجنرال، ولكن ذلك لم يناقش بصورة جدية، فقد كانوا يتصورون آنئذ أن كل ما عليهم هو انتظار عودة جنودهم لإطلاق سراحهم، وأنهم في أسوأ الأحوال سيقضون سنة أو زهاء ذلك في الأسر قبل أن يكسبوا الحرب. غير أن النبأ الذي جاء به إيفارت قلب الوضع رأساً على عقب فأخذت مجموعة من عازفي الكمان الساخطين، بقيادة آرمغاردسن، يعملون بأيديهم في نوبة مسعورة، من تمزيق، وحفر، وإزالة للإسمنت والحجارة بكل هدوء، وسرية حتى صار من السهل على الرجل، عند ظهيرة ذلك اليوم، التسلل داخل الحفرة وإلقاء نظرة على الحقول، ثم العودة متسللاً

نشوان وهو يقبض على كمشة من التراب الطري الذي كانت رائحته توحي بحياة ونماء نباتات لا تنصاع للأهوال كما توحي بعفن الموت الذي كان يحيق بهم - مع كل ما يكمن بين هاتين الحالين من جوهر فعل الطبيعة.

كان القسم الأكبر من أفراد الفرقة في حالة من الفتور واللا مبالاة، لا يود أي منهم أن يغامر أو يضايق نفسه بمحاولة الفرار، فيما بات الذين يؤثرون الفرار فعلاً متعصبين في رغبتهم للقيام بذلك حتى أنهم يفضلون عدم انتظار حلول الظلام، بل رفضوا الأخذ بنصيحة ستارنبرغ السديدة التي أشارت عليهم بالانتظار. أخذوا يناقشون ويرون في كل مسوّغ من مسوغات الهروب في النهار حجة قوية حصيفة تعنيهم في وضعهم الراهن: فبما أن أحداً لن يتوقع منهم محاولة ذلك في وضح النهار، سيكون عنصر المفاجأة لصالحهم، ثم كيف لهم أن يهتدوا الطريق ضمن منطقة مجهولة بالنسبة لهم أثناء الليل؟ النهار إذاً هو الوقت المناسب، لأنهم يستطيعون التوجه نحو الشرق قبل حلول الظلام. وكلما عجلوا في الخروج من الحظيرة، كان الأمر أفضل بالنسبة لهم، فمن ذا الذي يضمن أن لا يقتلهم الجنرال خلال ساعة أو حتى خلال خمس دقائق، على الرغم من رغبته العارمة في الاستماع إلى سيمفونية؟ ومهما يكن الأمر، لم تكن حراستهم مشددة الآن كما كانت عليه قبلاً. ثم ألم يلاحظ الجميع، مثلاً، بأن هناك مزيداً من الحراس يجوبون المنطقة أثناء الليل؟ الوقت المناسب هو الآن، راحوا يؤكدون ذلك بقوة، وبعد أن سمعهم ستارنبرغ يزدادون اقتناعاً بذلك مع ارتفاع وتيرة نقاشهم، انسحب مبتعداً عن صخب وضوضاء مشاريعهم.

- كان إيفارت يفضل أن لا يرى شيئاً مما يحدث، على الرغم من أن ستارنبرغ حاول تبديد هذا المظهر القوي بقوله: «يجب أن لا تسمح لهم بالفرار، سوف تسوء الأمور بالنسبة للباقين. وسوف يلقى القبض

عليهم جميعاً».

- «ربمـا، ولكـن مـاذا يسـتطيع الجـنرال أن يفعـل بـهم لـو ألقـى القبض عليهم؟ هل يرميهم بالرصاص؟ ذلك هـو ما سيحل بهم على كل حال».

- «كيـف تعـرف ذلـك»؟ صـاح سـتارنبرغ. «ربمـا يقتلـون وهـم يحاولون الفرار، وإذا ما أطلق سراح الباقين فيما بعد، سيكون هـؤلاء قد قضوا نحبهم مقابل لا شيء».

- «لا أظـن ذلـك»، قـال إيفـارت بلهجـة حاسـمة. «إذا أرادوا أن يجربوا حظهم الآن، فليفعلوا ذلك».

- حـاول سـتارنبرغ محاولـة أخـرى وسـأله: «ألا يمكنـك إقناعـهم بأقل الدرجات بالهروب في الليل، عندما يحل الظلام».

- «إنهم يعرفون ما يفعلون». رد إيفارت.

ازدادت حفرة الجدار اتساعاً، ووراء الحفرة في الخـاج كـان هنـالك حقل مكشوف مزروع بالشمندر الذي لم يُجنَ بعد ووراء الحقل منطقـة شبه محروثة عليها أجمات متفرقة من الأشجار المتقزمة. وعلى بعد مئة ذراع من الحظيرة كان هنالك خندق خال من الجنود، فـاتفقت الآراء على أن يزحـف عازفـا الكمـان إلـى هـذا الخنـدق، ويسـتلقيان فيـه دون حـراك حتى ينجلي كل شيء، ثم يشقان طريقهما على مهل نحو التلال.

- وقف إيفارت عند النافذة المشبوكة بالقضبان لكي يراقبهم وهـم يغادرون. لم توقع نيران المدفعية سوى قليل من الضجيج والإزعـاج خـلال السـاعات القليلـة السـابقة، فأسـعده ذلـك تمامـاً. إن الجـنرال يسـعى للمحافظـة علـى هـدوء الجـو من أجل حفلتنـا الموسـيقية، هـذا مـا دار في خلـد إيفـارت. ومـع ذلـك، فقـد كـان الصمـت فـألاً سيئاً، إذ لـو كـان الجـو ملتـهباً بالقتـال سـتكون فرصتـهم أكـبر في النجـاة، راح يحـاكم الأمـر في نفسـه، وهـو يرى عازفي الكمان الاثنين بوجهيهما الأبيضين يزحفـان عـبر

الحفرة المشقوقة الضيقة.

غرق إيفارت في التفكير بأليات هروبهم، مستعرضاً في ذهنه العمل الذي قاموا به، فلم يجد فيه من ثغرة إلا انعدام الفرصة السانحة - من قصف المدفعية العنيف الذي كان يمكن أن يشكل ستاراً واقياً فوقهم. كان العالم يغط في صمت مطلق كبير لا يتناسب مع مثل هذه المغامرة الطائشة، كما فسر لنفسه سابقاً، مثل المطر الذي يفقد دائماً ثقله قبل وقوع البرق الخاطف الرهيب. غير أنهم كانوا مصممين على الهروب، والظروف بوضعها الراهن لم تسمح له أن يفعل شيئاً للحيلولة دون ذلك.

انبطح الاثنان في الخارج - وكان الباقون على أهبة الاستعداد للحاق بهم بعد أن يبلغوا الخندق - كأن يداً جبارة لا مرئية تجعلهم ينبطحون على الأرض وعلى أوراق العشب الخريفية الذابلة ارتفعت اليد اللا مرئية عنهما، فراحا يركضان عبر المسافة التي توصل بين الجدار والخندق وهما يدبان على أربعة أطراف كالسعادين، يفصل الواحد منهما عن الآخر بضعة ياردات فقط. وفي منتصف الطريق إلى الخندق سقطا أرضاً وتشبثا مرة ثانية بالأرض لمدة تراءت طويلة الأمد بالنسبة لإيفارت. إلتفت أحدهما ليرى ماذا يوجد على كل جانب من جانبيه، فلمح إيفارت وجهه القلق صورة قناع أبيض بشفتين خاليتين من الدماء وعينين استطاع أن يكتشف فيهما، لأنهما غير بعيدتين كثيراً عنه، خوف وخبل من الوحوش وهو يحاول أن يتخطى آخر شرك نُصب له. ما هو الشيء الذي سمعاه أو شاهداه ولم يعرف به الآخرون الذين يراقبونهما من الحظيرة؟ راح أحد المدافع يطلق نيرانه من التلال، مع ارتداد صوتي خفيض ناء، كما تفجرت قذيفة بتباطؤ كبير، فبدا ذلك لهم مثل عملية نقر إبعاد البعوض أو مثل طنين الحشرات. ربّما ينقذهما من ورطتهما مئة مدفع، أما مدفع واحد فهو مجرد مهزلة واضحوكة، راح يفكر في نفسه.

تقلصت فرائصهما تأهباً لآخر اندفاعة نحو ستار الخندق. وقف آرمغاردسن في الحظيرة مستعداً للحاق بهما حالما يصبحان دون مستوى

الرؤية. كان على مسافة تسمح برؤيتهما من الخرائب الموجودة على طول الطريق، فأبطأا في تقدمهما من جراء ذلك، آملين أن لا يراهما أحد. أخذ أحدهما يتردد في التقدم، ثم توقف والتقط حجراً لسبب من الأسباب: أما الثاني فمضى في طريقه قدماً ثم بدأ الرجل الذي توقف بالتقدم من جديد، وهو ما يزال ممسكاً بالحجر. شاع صمت مطبق في أرجاء الحظيرة لم يدركه أي من الموجودين فيها، لكونه جزءاً منها.

وصل الفارّان إلى قمة الخندق، بينما راح آرمغاردسن يشق طريقه بكد وعناء لكي يصل إلى الهواء الطلق في الخارج. جعل إيفارت يراقب العازفين الموجودين قرب الخندق منتظراً منهما الهبوط فيه إلى نوع من الأمن المؤقت. لم يأتيا بأية حركة. فأخذ يفكر ويقول لنفسه: لا بد أنهما، وهما هناك، تنتابهما مئات الأحاسيس والمشاعر التي لا نتصور ونحن في الحظيرة وجودها. بماذا يشعران؟ لماذا لا يتحركان؟ وعندها خطرت له خاطرة في أن الفارق الوحيد بين عازف الكمان في الخارج وبينه هو داخل الحظيرة إنما يكمن في عقرب الثواني الذي ينتقل على مينات ساعاتهم اليدوية المختلفة المخفية، الذي كان يمشي بسرعات متفاوتة، ويتوقف بأوقات غير متوقعة، منسجماً مع دقات فؤاد كل منهم داخل صدره في عزمه على التحرر.

دفع الرجل الذي يحمل الحجر ذراعه إلى أمام حتى لامست طرف الخندق، وعلقت عيون الذين كانوا يراقبونه بالحجر التي كان يمسك بها أكثر مما علقت بحركات جسمه. وعندما بدأ إطلاق النار كانت الحجر هي الشيء الوحيد من هذين الفارين الذي وجد له مأمنا بين نباتات القصب العطشى هناك.

وفي وقت متأخر من عصر ذلك النهار فتحت أبواب الحظيرة على مصاريعها، ودخل الجنود يحملون صفائح النفط، وتركوها داخل الحظيرة لكي تملأ منها الفوانيس النائسة. سطعت الأنوار ناصعة وقوية،

فهزمت الظلال التي ما انفكت تكرر في ذهن كل منهم الصور المسرحية المتعلقة بمحاولة الفرار الدامية المجهضة التي وقعت في وقت مبكر من ذلك النهار. وتمثل عامل آخر من عوامل الارتياح في عدد من الكراسي المتينة ذات المساند الظهرية العالية وبعدد من الطاولات الصقيلة اللامعة المنوعة من خشب «الماهوغاني»، وكلها هبة من أسلاب الجنرال شغلت أفراد الفرقة ساعة كاملة من الزمان في جدال صاخب حول المكان الذي ستوضع فيه بين رزم القش والتبن. لقد منع هذا الكوكتيل المتنافر الغريب أياً من أفراد الفرقة من استخدام الأثاث لفترة من الزمان، ولاسيما وأنهم اعتادوا جميعاً على القش الأكثر ملاءمة وتجانساً، ولكنهم في نهاية الأمر مضوا إليه وتحلق نفر منهم حول إحدى الطاولات، بعد أن ركّزوا مصباحاً في وسطها، لكي يلعبوا الورق. كانت لعبة الورق هادئة لم يصدر عنها سوى همهمات خفيفة من الأصوات، وهذه حقيقة نظر إليها ستارنبرغ بعين الاعتبار وطفق يفكر ملياً فيها، فقد كان يعرف حق المعرفة أنهم في مجتمعهم المستقر استقراراً زائفاً هنا لا وجود لأي قانون يضبطهم ويسوس أعمالهم. وإذا كان هنالك من يخشى إمكانية ارتكابهم لأية جريمة بحق بعضهم بعضاً، فقد كانوا على عكس ذلك لا يأتون بأية حماقة لأن هنالك جريمة أكبر ترتكب بصورة جماعية بحقهم جميعاً. إنهم في وضعهم الراهن بين القش والأعشاب اليابسة، وبين الأثاث والأنوار المتراقصة النائسة، لن يشهروا سكاكينهم للقتل لأن ما من أحد بينهم يملك القوة أو الرغبة في توقيع العقاب. هل بينهم من واحد يحمل درجة عنيفة من الحقد والضغينة تكفي لتحقيق إثارة هذا النزوع الإجرامي؟ لحسن الحظ، ليس بينهم، لأن كلمة «جريمة» لم تكن تعيش داخل الحظيرة، والجريمة لا يكتمل معناها إلا عندما تتوفر وسائل الاقتصاص منها. لقد أصبحت الأقوال المأثورة حقائق أكثر منطقية: فالسبب الذي يجعلنا قادرين على الحياة بسلام هنا هو حرصنا الكبير على البقاء - أو لأننا لم نقض وقتاً طويلاً كافياً هنا. عندما تتمكن جماعة

من الناس، العيش بصورة طبيعية، يصبح القتل الذي لا ينفذ في سبيل البقاء جريمة منكرة. لعلّ قتل اثنين من عازفي الكمان بالنسبة للغورشيك ينفَّذ في سبيل البقاء دون معرفتهم لذلك.

راح إيفارت يتناول طعام العشاء ببطء، يجلس وكأنه ضمن غرفة صغيرة لمفرده واستمر على ذلك حتى قطع ستارنبرغ حبل الصمت وانضم إليه يشاركه عشاءه قائلاً: أرى أنهم يعتنون بنا عنايتهم بخيول السباق المطهمة. الطعام فاخر، والحراس لبقون كيّسون، وحتى الأثاث قدم لنا. إن الجنرال حريص كل الحرص على إحياء حفل موسيقي رائع.

لم يكن من الوارد بتاتاً أن نحول بينهما وبين الفرار، قال إيفارت معترفاً بكل صراحة بما يدور في ذهنه. كأن أغلب ظني أنهما سيلقى القبض عليهما مرة ثانية ويعادا إلى الحظيرة. غير أنه يستحيل التنبوء بما يفعله الجنرال. لم يخطر ببال أي منا أن الجنرال سيعين حراساً على السطح للقيام بمراقبة أية عملية فرار. تناول إيفارت صحيفة الملح وذر قليلاً منه في صحنه بمسكة الملعقة. كان الباقون قد فرغوا من تناول الطعام وجعلوا يغسلون صحونهم في براميل الماء قرب الباب. ترامى إليهم صوت تساقط المطر في الخارج، ولاحظ إيفارت أن فصائل الجنود المارة في الطريق لم تكن تهرب تفادياً للغرق عندما يصبح المطر استوائياً غزيراً.

- «لا زال يراودني الأمل»، قال ستارنبرغ وهو يسحب ربطة من الخبز الأسود ويقطعها، «في أننا سنخرج من هذا المكان أحياء سالمين. الأمل يراودني كثيراً في أن ضمير الجنرال لن يطاوعه على ارتكاب مذبحه بحقنا».

- «لا وجود لشيء اسمه الضمير»، قال إيفارت وهو يدفع عنه صحن الطعام. «لعل الشيء الموجود هو الخوف من أن يفعل شخص ما الشيء نفسه معك، وهؤلاء الناس فقدوا ذلك النوع من الخوف». بحث عن لفافة تبغ وأشعلها ثم قال: «على الرغم من ذلك كله، عندك كل ما

يدعو للتعلق بحبال الأمل والرجاء. إنني أتفق مع ما يدور في ذهنك من أفكار. ليس للأمل أية علاقة بالعقل، لأن المستحيل قد يحدث دوماً. وهو إذا ما حدث أو عندما يحدث ينجلي بصورة دائمة تقريباً أنه شيء لم يفكر به أو يحسب حسابه أحد».

ذهب ستارنبرغ إلى مهجع نومه وحاول قراءة عدد قديم من أعداد مجلة الفرقة الموسيقية، لكن المطر الغزير الذي يضرب السطح والجدران أزعجه. لقد تواصل هذا المطر جنباً إلى جنب مع دوي المدافع أثناء الليل كله تقريباً. الجميع كانوا ينامون نوماً قلقاً، وهم يتكلمون أثناء نومهم، ويصرخون بأصوات عالية عند نشوب أية حركة. كان إيفارت مدركاً لتعرضه للبرد، لأن سترته السميكة لم توفر له كثيراً من الدفء وتدرأ الرطوبة عنه، فأحس عند الفجر أنه كان يشدّها بقوة ويحاول أن يغطّي نفسه بصورة كاملة، وهو شيء يستحيل تأمينه بتلك السترة. لقد راودته أحلام كثيرة ولكنه لم يستطع تذكر أي شيء منها.

توقف المطر في الصباح، فكشف عن مظهر طبيعي قاتم مخضوضل بالماء. سطعت شمس خفيفة بين السحب المنخفضة المشبعة بالمياه والتي كانت تلقي ظلالها على التلال البعيدة،

فتحدد شكل وارتفاع كل سلسلة من التلال. لقد جعل المطر كل شيء، بالنسبة لستارنبرغ، يبدو ميئوساً منه أكثر مما كان عليه حقاً، أو أن إيفارت كان يرجو أن يكون المطر سبب سوداويته. طفق يحدث نفسه ويقول: الأمل بكل أنواعه له قيمته وجدواه سواء تمخض عنه شيء أم لم يتمخض. إننا لا نأمل لأننا نريد الأشياء على ما يرام. وهو أمر لا يتعدى كونه خدعة وألعوبة. لكننا نأمل لأن علينا أن نفعل ذلك.

أقبل الجنود يحملون مزيداً من الكراسي وبدأوا ينظفون الحظيرة استعداداً لإحياء حفل الجنرال تلك الليلة. هب ستارنبرغ لمساعدتهم، راجياً بفعله ذلك أن ينجلي الحفل الموسيقي الساهر عن خلاصهم أجمعين.

الفصل التاسع

كان الجنرال يرنو، وهو يصعد إلى مصطبة سطح منزله المضاءة بنور الشمس، بعين الأمل إلى حفل موسيقي ناجح. وقف ويداه في جيوبه يُشيح الطرف عن دوي نيران المدافع فوقع نظره على قافلة من العربات البطيئة الحركة مثل ثعبان يتلوى على طول طريق تؤدي إلى قرية بعيدة. صارت السماء صافية لا تشوبها إلا بعض بقع السحب الرمادية فوق التلال الحصينة، فأخذ يبتهل ويرجو أن لا يعود المطر خلال بضعة أيام حتى يتمكن من نقل إمدادات إضافية من الذخيرة إلى الجبهة. وعندما استدار قليلاً، رأى أن شارع القرية الرئيسي قد أصبح الآن نظيفاً وخلواً من الدبش والحجارة المكسورة، تحف به من جانبه هياكل البيوت وأكوام الخبث المترسبة من الآجرّ والملاط. وعلى مسافة بعيدة من ذلك ظهرت مباني المزارع مثل نقاط سوداء، بعد أن نجت من حومة الدمار التي أصلى بها المنطقة من حولها، فصارت ملاذاً ومأوى لمن أصيبوا بجروح طفيفة يستريحون فيها من وعثاء المعركة. وفي قسم آخر من القرية، كانت مجموعات من المدنيين المكرهين على العمل ترمم البيوت من أجل فصل الشتاء، يتسلقونها بسرعة وبحماسة كافية وهم يحملون سلالاً

صغيرة من الإسمنت والآجر، فيما كان الجنود يقفون في الساحة الرئيسية من القرية أرتالاً أرتالاً لكي ينالوا حصصهم من الطعام والمؤونة.

خلفت هذه العلائم التنظيمية المنتشرة في كل حدب وصوب أثراً طيباً ومريحاً في نفس الجنرال. كانت المواقع التنكرية المزيفة في سفوح التلال محفورة على صورة كبيرة من الكمال والدقة، ومتوضعة، ومدعمة ومموهة وفق الصورة التي يمكن لخبرته وحدسه تصوّرها. أخذ الجنرال يتنقل بسيارته من موقع إلى موقع يتفقد أهمها ويعطي ملاحظاته وتوجيهاته. شهور معدودة، ثم يبدأ الهجوم الكبير، ولقد جعله حدسه وتوقعه في تحقيق النصر برماً نافد الصبر حتى كاد يبلغ حدود البؤس. لم يعرف قط في حياته مثل هذا الشعور بين ما كان ينتابه من مشاعر قبل شن أي هجوم في الماضي، فبدأ لأول مرة يصنف تلك المشاعر التي كانت أخف أذى ومضرة: من قلة كلام، وسكر، وتخطيط شامل كان يستغرقه وقتاً طويلاً أحياناً ويناقض نفسه، فيوقع فيه الأرق ، لكنه لم يوقع فيه البرم أبداً، ولم يوقع فيه تلك الخلة الشيطانية التي أودت بعدد كبير من القادة إلى المنفى.

ومع ذلك فإنه عندما بدأ يفكر بحفلة المساء - التي كانت ضوضاء التحضير لها تترامى إليه من الحظيرة عبر الطريق - خفت مشاغل ذهنه وخلدت إلى حال من الترقب الصامت الأكثر انسجاماً واستساغة مما أتاح له مجالاً للدخول إلى عالم من المشاعر والأحاسيس الغامضة. عندما كان يافعاً، كان يتطلع بلهفة وأمل لسماع السيمفونيات - هذا عندما كانت إمكانية أدائها متيسرة - أما السيمفونية التي سيستمع إليها عما قريب فقد فصلت بينها وبين السيمفونيات السابقة مرحلة تقاس بالأحداث لا بالزمن وكان سبر أغوار هذه المرحلة بالنسبة له يعني الانغماس في حوادث القتل وسفك الدماء التي لا تقبل أدنى درجات

الإيقاع الشعري الموسيقية لأنها لا مكان لها في صنعة القتال والحرب. كان يشعر بغياب هذه الألحان عنه، ولكنه الآن سوف يتقبل عودتها بحنكة وإدراك رجل بلغ أواسط العمر.

هبّت نسمة مفاجئة فحولته عن الدرابزين، وأخذ يسمع من جديد ضوضاء النشاط والحركة في الحظيرة - من أصوات دوزنة الآلات الموسيقية الناشزة، وتحريك الأثاث، والمناقشات الدائرة حول مسألة تافهة دون ريب، فأغمض عينيه علّه يزيد من الطمأنينة والراحة التي يشيعها في نفسه هذا الصخب. تلاشى من ذهنه وأحاسيسه نداء الاستعداد للحرب، وما أن فتح ناظريه على السهل الأخضر والمنازل البيضاء فيما وراء القرية حتى تبدى له منظر جلي مفترس من خلال الحقيقة الأكيدة في أن الفرقة الموسيقية التي ستحيي الحفل تلك الليلة لا بد من الإجهاز عليها وإبادتها خلال يومين من الزمان.

أبى أن يصدق ذلك ولم يدرك حقيقة الأمر إلا عندما استجمع في ذهنه سيرة أوامر القيادة العليا من ألفها إلى يائها. غطّى عينيه بيده، كأن الشمس كانت قاسية جداً عليهما، أو كأنه كان يخفي بذلك عن ذهنه صورة شنيعة مروعة من صور الإعدام المنظم. كانت هذه الأفكار تحمل في طياتها تهديداً بتخريب استمتاعه الشخصي بالحفل الموسيقي، فأخذ يحدث نفسه بطريقة أكثر تعقلاً وحكمة في أنه لو نفذ أمر القيادة العليا عندما تلقّى برقيتها أولاً بأول، لكان أفراد الفرقة الموسيقية جميعاً في عالم الأموات. إنني لا أتوانى عن بذل كل جهد مستطاع، راح يسوّغ لنفسه ويروّح عنها من خلال لجّة غامرة من التعب والإعياء.

وقف الجنرال بقامته القصيرة، ورزانته، ووحدانيته، إلى جانب حاجز السطح يعب النظر مسافات بعيدة عن البيت ولكنه لا يعكس في مقلتيه سوى نزر يسير من تفاصيل المنظر الطبيعي: ولم يدخل إلى عالم

أفكاره إلا تمازج انطباعي من الألوان. راح فكره يراجع الحقائق نفسها على صورة جناس لغوي بالغ التكرار: من وقوع الفرقة الموسيقية بصورة عرضية في الأسر، إلى القرار المرفوع للقيادة العليا، إلى البرقية التي تقضي برميهم بالرصاص، ثم إلى استسلامه لرغبة متعاظمة في نفسه بالاستماع إلى سيمفونية. هاهو الآن سيستمع إلى إحدى السيمفونيات، ثم يتم الإجهاز على الفرقة الموسيقية وبعدها تسير به الحياة سيرتها الأولى.

أتراها تسير به وتستمر؟ اشتد هبوب الريح. وضع قبعته على رأسه وجعل يمشي على مهل على طول المصطبة، ويداه مشدودتان خلفه، يراقب نعلي قدميه واحداً بعد الآخر وهو يمضي قدماً إلى أمام، رافعاً رأسه ليرى معسكراً مموَّهاً للجنود لن يغير موضعه إلاّ بعد أن تغطي الأمطار والثلوج القارة كلها. أسلم الجنرال نفسه، متناسياً موضوع الفرقة الموسيقية، لسحر الحركة في القرية وعبر المنطقة الريفية إلى المدى الذي تتيحه له قوة الرؤية: من تحركات الجنود، وطوابير التموين والإمداد، وسحب الانفجارات فوق التلال، وهي تتصاعد وتلتحم ببعضها بعضاً مشكلة وشاحاً أبيض فوق المنحدرات الرمادية الداكنة. تناهت إلى مسامعه عدة فواصل موسيقية من السيمفونية، ثم فتحت الطريق لدوي نيران المدافع. وعندما صدحت الموسيقا مرة ثانية حاول الجنرال جاهداً أن يسمي ويحدد نوع كل لحن يتردد غير أن المدافع انتصرت وتفوقت في قوة الصوت فاجتذبته في نهاية المطاف إلى إيقاعها الداوي اللامتناغم. جعل يمشي جيئة وذهاباً حتى لم يعد باستطاعته سماع الموسيقى أو نيران المدفعية، وعندما وصل البوابة، هبط داخل سلم أشبه بالنفق يؤدي إلى المنزل في الطابق الأول.

دخلت مجموعة من ضباط الغورشيك إلى الحظيرة المضاءة جيداً، ظل الضباط على انفراد، يدخنون ويثرثرون بأصوات منخفضة

إلى جانب أنساق من الكراسي خصصت لهم قرب المدخل. كانت المقاعد المخصصة للفرقة الموسيقية، والتي وضعت في الطرف البعيد من الحظيرة، مفصولة عن مقاعد جمهور المشاهدين والمستمعين بفسحة كبيرة من الأرض الحرام التي لم يجرؤ أحد على انتهاك حرمتها. وكانت أرض الحظيرة قد كُنست ونُظِّفت ولم يبق عليها غير ترابها الأصلي، كما كوِّمت رزم القش حول الجدران بصورة متناسقة لا يظهر فيها أي نتوء. طفق إيفارت يبتسم بسخرية لمثل هذا التنظيم الممتاز الذي أسهم في تكوين جزيرة زمنية تتاح فيها الفرصة للفرقة الموسيقية بعزف سيمفونية، وتتلاشى فيها جميع الأفكار السوداوية عن الفناء والعدم. الحق أنه لم يستطع إلا بشق النفس أن يتذكر حفلاً موسيقياً، حفلاً كانوا يطفحون فيه بالحيوية وخفة الروح قبل مباشرة الأداء والعزف. صاح أحد ضاربي الطبل بصوت عال وهو يضحك:

«هذه هي أول مرة أعزف فيها داخل حظيرة في حياتي».

– «وأرجو أن تكون آخر مرة»، صاح رجل آخر متهكماً.

– «أظن أنهم سيرسلون نفراً من الجنود بعد الحفل الموسيقي لمساعدتنا على إعادة القش إلى مكانه».

– رد عليه أحد عازفي الكمان قائلاً: «إن تعزف بقيثارك عزفاً ساحراً فإن القش سيعود وحده بالتأكيد».

– «نحن سنقوم بهذا العمل، فهو عمل سهل. فضلاً عن أنه يوفر لنا شيئا نقوم به ونفعله».

– ارتفع صوت متشكك يصيح قائلاً: «لا يستطيع أحد أن يسحر هؤلاء البرابرة الهمجيين».

– «لقد استطاع ذلك فيكادي»، رد صديق من أصدقائه. بعض

العازفين حبسوا أنفاسهم عن الكلام، ووقفوا بين الكراسي وأدواتهم الموسيقية على الأرض، أو جلسوا في المؤخرة وهم يدخنون بهدوء في ركن ضئيل مظلم خصص لهم.

– «جو غريب يسود هنا»، راح ستارنبرغ يقول: «وأكثر الموجودين لا يعرفون ماذا يفعلون، لا أفراد الفرقة ولا الضباط. لا نملك رغبة كبيرة بالعزف هذا المساء». راح قوس كمان يضرب الأوتار فأرسل صوتاً فجاً لا متناغماً، في حين أن كماناً آخر، وهو يرتفع بأنغامه درجة درجة إلى طبقة موسيقية من الصفاء الساحر، سرعان ما غاب عن الأسماع عندما حجبه صوت طبل خشن أجش.

– «سيكون هذا الحفل حفلاً ممتازاً»، قال آرمغاردسن على سبيل الملاحظة والتعليق، فأجفل ستارنبرغ ضمنياً واهتز لهذه السخرية.

– «أعتقد أنهم سيؤدون خير أداء»، قال إيفارت.

– «ليس لأننا نريد ذلك»، قال ستارنبرغ وهو يتناول الكمان من جعبته «لن يكون بوسعنا عمل أي شيء غير العزف بصورة حسنة في وقت كهذا، إذا كنت تفهم ما أعنيه».

– «لا أريد ضوضاءك»، قال أحد العازفين بنبرة عالية لعازف آخر.

– راح إيفارت ينظر إلى أعضاء الفرقة المعزولين عن سواهم وقال: «يخيل إليّ أننا لم نقم بأي عمل غير النوم منذ وصولنا إلى هذا المكان. لم نفعل شيئاً أياً كان. إنني أدرك الآن بأنه كان علينا أن نتدرب على العزف كل هذه المدة، وكان علينا أن نبادر بعرض إحياء الحفل على الجنرال بدلاً من انتظار طلب منه بذلك».

– احتل عدد من الضباط الآن مقاعدهم، وأخذوا يتحدثون

بأصوت عالية. «عرضُنا على الجنرال أو طلبه منا يؤديان إلى نتيجة واحدة تقريباً»، قال ستارنبرغ، وهو يركز كمانه بين ذقنه وكتفه، ثم يضعه على الأرض بجانبه مرة أخرى. «غير أن العمل لا يناسبني من قريب أو بعيد في هذا الوقت. إنني لا أشعر بغير الرغبة في الاستلقاء على الأرض طوال الوقت وعدم مزاولة أي عمل».

- «هل نملك متسعاً من الوقت لتدخين لفافة قبل الشروع بالعزف»؟ سأل ضارب الطبل بصوت مرتفع.

- «إذا أعطيتني لفافة»، قال رجل نحيل متوسط الحجم يحمل آلة الفيولونسيل. «فقد دخنت آخر لفافة أملكها أمس».

- شاهد ستارنبرغ إصبعاً تنقر لفافة وتلقي بها من فوق الكراسي ومن فوق رأس رجل أسود الشعر، فرفع عازف الفيولونسيل يده لالتقاطها. «إن غريزة البقاء هي التي تجعلني أرغب في الاستلقاء على الأرض»، قال إيفارت. «أعتقد أن المرء يشعر بالأمن بشكل أكبر على هذه الصورة».

استمتع إيفارت بفترة الصمت والسكون التي تلت، إلى أن شغلها بالحدس والتخمين من نوع قاتل معذب بمنتهى السرعة. إن المحافظة على الذات. غريزة تتشعب إلى شعبين، يؤديان إلى حياة مديدة أو فناء عاجل، وقوة الفناء السلبية تظل وثيقة الصلة بالبقاء لأنها قد تحافظ على ذات أجل شأناً وأهمية منا على المدى الطويل، وتشاهد من القمة العارية المكشوفة لأولئك الذين اختاروا سبيل الحياة. رباه، طفق إيفارت يفكر ويقول: إن أشد الأمور سوءاً هو امتلاك عقل غير قادر على ركوب متن أي من هذين المسارين. ولكننا إذا ما قمنا بأداء موسيقي جيد، قال يذكر ستارنبرغ، «فإن ذلك قد يجلب لنا النجاة من الموت».

أرسل ستارنبرغ لحناً صارخاً مهدهداً شق متن الأثير رغم

الضجيج، ثم أنزل كمانه إلى الأرض لكي يشد أحد مفاتيحه. «إن ما سنعزفه سيكون سيمفونية أمل ثقيلة الوطء علينا»، قال وهو يبتسم على مضض.

- «من الأفضل أن لا تشغل فكرك في ذلك». قال له إيفارت. ثم ذهب باتجاه كراسي العازفين وهو يصيح بأعلى صوته: «لا، أريدكم وفق هذا الترتيب. وأنتم الثلاثة، ابقوا هنا، أما الباقون، فارجعوا إلى الخلف». نفذ الجميع تعليماته دون اعتراض، ثم تنبه لشيء لم يكن قد تنبه له من قبل. «يبدو أن الجنرال سيتأخر»، قال وهو يعود باتجاه ستارنبرغ.

- «ذلك هو امتيازه».

- «ربما، ولكنني سأبدأ خلال خمس دقائق حضر أم لم يحضر».

- «أتصور أنه رجل منضبط». قال ستارنبرغ. «وسوف يحضر في الوقت المحدد».

- سوف لا أدخن هذا التبغ مرة ثانية، صاح صوت من نسق عازفي الكمان الثاني. راح أحدهم يضرب الطبول، فشاع في أرجاء الحظيرة صوت رنان خفيف. توقف الضباط لحظة عن الكلام، ثم طفقوا في الضحك. عندما أعود إلى بيتي، سأدخن التبغ الممتاز. صرخ صاحب الصوت الأول نفسه، وسوف يتسنى لي وقت طيب، أعوض به عن هذا القرف كله.

- «ذلك هو ما يخيفني»، قال ستارنبرغ لإيفارت. «إنهم لا يزالون يتحدثون وكأنهم عائدون في الأسبوع القادم».

رمى إيفارت لفافة تبغ لم يدخن إلا نصفها على الأرض وداسها بعقب حذائه ثم قال: «أرجو أن يصدق حدسهم. يسعدني أنني لا أملك

سلطة على مثل هذه الأفكار. دعهم يواصلون التفكير على هذا المنوال. سأكون سعيدا إذا كانت النتيجة خيراً».

بدأ ستارنبرغ يردد هذه العبارات ويؤكدها مسروراً، غير أن إيفارت أندفع عبر أفراد الفرقة الموسيقية يمشي قدماً إلى المنبر الخشبي في الأمام. نظر إلى أفراد الفرقة دقيقة كاملة، وعندما سمع بوابة الحظيرة الخشبية تفتح وتغلق لم يتجه لرؤية من هو القادم الجديد بل استمر في ترتيب أفراد الفرقة في أماكنهم المناسبة. هب الضباط واقفين بوضعية الانتباه فأشار الجنرال لهم بالجلوس.

عندما عمت السكينة وخمد الصخب والضجيج. إذ كانت الأوامر قد صدرت لطواقم المدفعية بالكف عن إطلاق النار أثناء الحفل الموسيقي. إتجه إيفارت نحو الجمهور وحياه بانحناءة كبيرة. ثم نظر إلى الجنرال وضباطه، بعد أن انتصب في وقفته، وعصا قيادة الفرقة تلامس خط الدرزة في سرواله، فرأى أنهم جميعاً على أكمل هدوء ينتظرون بدء العزف الموسيقي. سمع أصواتاً مختلطة صادرة عن أدوات العزف من ورائه، وهي الأصوات المتنافرة التي تصدر عن فرقة موسيقية في آخر لحظات دوزنة الآلات، كما لاحظ من ناحية أخرى أن الشخص الوحيد بين الجمهور الذي لم يجرؤ على النظر إليه هو الجنرال، الذي شخص بناظريه إلى زاوية فارغة من زوايا الحظيرة. هل حقيقة شعوره بالخجل لقتلنا فأل حسن أم سيء؟ راح إيفارت يتساءل وهو يحافظ على وقفته المنتصبة، مستشعراً نعومة شعر رأسه الذي سرحه، ومستشعراً عدم الارتياح من ارتداء بدلة أخرجها لتوه من الحقيبة، وألم الوخز في الموضع الذي جرح به وجهه أثناء الحلاقة، ومستشعراً تلك الطاقة الكامنة في جسده التي بعثت في نفسه الغبطة والحبور وهو على أعتاب أداء سيمفونية موسيقية. كانت الفرقة في صمت كامل وجاهزية، ولذلك استدار بصورة مفاجئة وألقى نظرة على الصفحة الأولى من كراس

العلامات الموسيقية الماثل أمامه، ثم ضرب عصاه ضربتين علامة على بداية العزف.

من خلال حجاب الصمت القاتم الذي كان يغلف القرية ندّ في الجو صوت موسيقي غريب ناشز. كان صوتاً غريباً ومروّعاً، أشبه بشبح طيفي يهوّم بلباس القبور ليلاحق الناس الذين يبدو أنهم تناسوا ذكره. أخذ الصوت يعلو ويعلو، حتى شاع في كل أركان الحظيرة وحاول، ولم تكن محاولته كلها عبثاً، الوصول إلى الجو خارج الحظيرة وهو يحتفظ بذلك الصفاء الوضاء الذي ندّ به عن الفرقة الموسيقية. كان الجنرال يجلس بساقين متصالبتين، وينظر إلى يديه المتشابكتين مع بعضهما في حجره كأنه بذلك يقرأ البرنامج الذي وضعه ذهنه هناك. أخذت الألحان، بعد أن صارت أكثر سلاسة وانسياباً، تصب الزيت على مفصلات شريط ذكريات الجنرال، وفتحت أمامه أبواباً ساقته إلى ماضي أيامه، فراح يسافر عبر دروب الزمن، يشق الطريق مقارعاً عواطفه واحدة بعد واحدة، حتى نزل إلى دهليز ضيق ينتهي به إلى عروس الموسيقا الرزينة وهي تومىء إليه وتغويه من عالم ضل دربه عنه بأبخس الأثمان.

لماذا ضللت الدرب؟ سأل نفسه وأجاب: السبب أنني اخترت ذلك. وفيما كان يطرح هذا السؤال والجواب أخذ يستمتع بالموسيقا بصورة أعظم بينما يتواصل أداء السمفونية. أما الأشياء التي لم يكن يريد تذكرها فقد طرحها جانباً وطردها عنه إلى عالم الرؤى والأحلام المبهم، في حين أن الذكريات الأخرى مثلت أمامه صارخة جلية، تتحدى بازدراء سلسلة تساوق الألحان إلى أن بلغ حد الإيمان الصادق في أن بمقدوره أن يبلغ نهاية الدهليز وأن يعيش من جديد في إطار هذا الماضي البديع الرائع الذي انبعث للحياة من جديد.

رفع ستارنبرغ الصفحة من كراس رموزه الموسيقية، وتركها

تسقط، ثم راح يتتبع كل علامة موسيقية بقوس الكمان. كانت بعض العلامات تعبر عن لحظة، من لحظات الأمل عندما تعزف، بينما أصبحت علامات أخرى، وهي تكشف عن وجود مساحات ضئيلة من البياض على الورق لم تُعلّم فيها حروف الطباعة التالفة، أصبحت بالنسبة لستارنبرغ لحظات منقطعة بالموت والفناء، تظهر للعيان فوق رؤوس العلامات البيضوية الشكل، لا تغيب عن ذهنه إلا عندما تتحول كل واحدة منها إلى لحن وصوت. وبعد أن فارقته الرغبة في النوم الآن، صار هدفه هو الاستمرار في العزف والأداء، وأن يلعب دور المقامر في كل طبقة لحنيّة عالية أو منخفضة، وفي وزن وتدرج كل فاصلة موسيقية، حيث كان كل شيء منظماً وموزعاً بواسطة عملية توزيع الوقت الفنية المحكمة. ولكنه قال محدثاً نفسه في إحدى الاستراحات القصيرة: لا وجود للأمل أو للفناء وأنا أمارس العزف.

لم يحاول الجنرال أن يتحرك، وبدا كأنه يحبس أنفاسه حتى نهاية أحد المقاطع الموسيقية، إذ لم يستطع أن يسعل لكي يتخلص من التهيج في حنجرته، أو أن ينقل قدميه، أو يهشم رأس شخص بالقرب منه يرفع يده دون سبب داع.

ومع نهاية المقطع الموسيقي الأول توفرت استراحة قصيرة شغلها أفراد الفرقة والنظارة بالسعال، وبتحريك أوراق الكراسات الموسيقية وضبط وتعديل مفاتيح الأدوات. لم ينبس أحد ببنت شفة. أخذ الجنرال يفرك جانبا من وجهه بيده، وكأنه يوقظ نفسه من النوم، ولكنه كفّ عن ذلك عندما أبى خبل الانبهار في داخله مفارقته. راح إيفارت ينظر وراء مكان وجود الفرقة الموسيقية باتجاه قضبان النافذة التي لم يستطع أن يرى من خلالها أي شيء لأنه كان على مقربة كبيرة من مركز النور.

بدأت عاصفة الشعور بالذنب؛ على شكل سلسلة متعاقبة من

دقات القلب الرنانة، كطلائع لوقعات أقدام صاخبة مرتطمة. لم تكن الممرات المظلمة مضاءة بأية مصابيح، وازداد ذهن الجنرال كآبة عندما أخذت الموسيقا تطغى عليه دون رحمة أو شفقة، تصول صولة الحرب ضده في لحظة، وفي اللحظة التالية تغمره وتنقلب عليه، إلى أن أخذت الحقيقة تدق طبول الحرب ضد حدود اللا معقول والمستحيل. كان مخه الموزع في وضعه الناعس هذا معه وضده في آن معا ، كأنه وحش نهم ذو أسنان حادة قاطعة، إستيقظ من النوم في أحشائه. هذا ومن غير أي فاصل أو توقف تقريباً، ومع ذلك فإنه يحتضن كثيراً من الإمكانات، فاتخذ شكلا آخر أرق وأبرع من أشكال الإنذار والتحذير، كأنه يطلب منه أن يهزم من كل ركن وزاوية الشخصية العاطفية الحنون التي أخذ يكتشفها في داخله. لكنه قهر عاطفته، ومحق كل ما يشغل ذهنه من أفكار بعد أن حقق النصر في معركة وفرت له أرفع مستويات السعادة التي هي أجل وأعظم من أية سعادة بلغها في حياته، فأفسح المجال للموسيقا العذبة الطهور لكي تحمله على أجنحتها حتى نهاية مقطع موسيقي.

لم يحرك إيفارت عصا القيادة أثناء أداء اللحن العسكري. كان كراس السلم الموسيقي مليئا بأنساق من الجنود يشمل سلسلة من النعال السوداء المترابطة أو المنفصلة في مسيرة عسكرية أحادية الاتجاه، والخطوات تهبط فتحدث الخراب والدمار، وتشكل صفوفاً لجيش خاص به يعمل عمل المبرر في دماغه؛ وهو جيش، كان يعرف حق المعرفة، أنه غير قادر على إلحاق الهزيمة بأي شيء. كان كل نعل أسود ضربة موسيقية تنتقل في التو واللحظة من عالم خيالها إلى حركة عصاه، تلك العصا التي تدل على طاعة عمياء لتلك النعال التي كانت مسيرتها المتواصلة تأخذ به إلى نهاية الحفل السيمفوني. إنها تهشم وتسبي، قال الجنرال مبتسماً، شأنها في ذلك شأن الأفكار التي قلبت عقلي عندما

قررت الانخراط في صفوف الجيش.

لكم أود الآن أن أضطجع في أكثر الغرف هدوءاً من منزلي، حيث لا توجد ضوضاء حركة المرور، أو المدافع، أو الناس والموسيقا من نوع هذا اللحن العسكري؛ وحيث لا أواجه مشكلة الأمل أو اليأس، ومشكلة الحياة أو الموت أو الخوف. الراحة والحرية هي كل ما نريده ونصبو إليه، إضافة إلى التبغ والحفلات الموسيقية والنساء في المدن التي نزورها: إننا لا نزال نريد أن يستمر ذلك ردحاً طويلاً من الزمان.

استمتع الضباط باللحن العسكري وسعدوا به، كما سعدوا بالمقطوعات الموسيقية العالية التي يهيمن عليها ضرب الطبول. ولما صار النقر منضبطا وخفيفا عند نهاية آخر مقطع من اللحن العسكري، هاجت مشاعر الضباط أمام قوة الموت وعظمته ووعده الحق (وحقيقة كونه نهاية سريعة بلا ألم لجسد عنيد متشبث بالحياة ومباهجها) وشعروا بسرور قائدهم الذي يحتل مكانه في وسطهم، رسم ذلك البسمة على وجوههم الفارغة البلهاء، وأتاح لهم الفرصة في تحريك أيديهم تحت ستار قوته وتأثيره.

ناست شعلة فتيل المصباح وراء ستارنبرغ وانطفأت، فراح يقرأ كراس السلم الموسيقي بصعوبة كبيرة في الظلام تقريباً. ووصلت إليه النغمة الموسيقية الأخيرة وهو غارق في التخطيط لإحدى الهجمات الجماعية المفاجئة التي اشتُهر بها. فانتزعته منها كما تنتزع رشقةُ قذائف مدفعية قاعدة تمثال كان مستقراً عليها، وراحت الألحان الهمجية الصاخبة تسلب لبه وتهزأ به، وتكشف لناظريه آثار عمليته الهجومية: من علامات جذوع الأشجار الدامية التقليدية والمألوفة لديه، إلى أكوام الدبش والحجارة، وسهول أفقية مستوية من الأراضي المحترقة، إلى مرتفعات عينية مغطاة بأجزاء صغيرة تمثل أجساداً تقطعت أوصالها،

إلى جداول من الدماء الحمراء بعد ساعة من شروق الشمس، إلى أزقة من النار، ودروب من الدخان وخطوط ظليلية مسفوعة كقرينة دالّة على رفعة ودقة تسديد رمايات مدافعه. لم يحل دون تحول الأرض إلى صحراء غير الدماء وغير حراثة القصف المدفعي، فكان هذا هو كل مسوغ استطاع أن يجده له. لقد أنارت الموسيقا له الرؤية، وتزامنت ضرباتها السيمفونية الختامية مع حالة خضوعه واستسلامه لخطوات القدر الحثيثة المقبلة.

وجد نفسه واقفاً دون أن يعرف سبب ذلك. ليس ذلك ضرورياً، راح يفكر، وهو يصفق بيديه لأن ضباطه كانوا قد بدأوا بالتصفيق، بعد أن أدركوا ما يتطلبه الموقف منهم قبل أن يرفع هو يديه بالتصفيق، سار إلى أمام، ووقف وجها لوجه أمام إيفارت وبدأ يتحدث، مستخلصاً كلمات أخرى مما كان يدور في ذهنه من أفكار عند انتهاء الأداء الموسيقي. كان التصفيق يُصمُّ مسامعه: فقد طاب تصفيقهم للجنرال إلى درجة جعلتهم يستمرون في صخبهم دون توقف، كما أنه لم يشعر قط بالحب تجاه جنوده أكثر مما أحبّهم في تلك اللحظة، لأنه كان قادراً على السباب وإطلاق كلمة الصدق دون أن يتمكن أي شخص آخر من سماع ما يقوله.

استدار الجنرال وشق طريقه وسط الظلام باتجاه أنوار المنزل. وعندما أصبح بكامل وعيه ويقظته في نهاية المطاف، أخذ يصعد سلم المنزل بتثاقل وعزيمة واهنة، وهو يشعر بقطرات ثقيلة من المطر تضرب كم سترته العسكرية. فرّ كلب من طريقه في اللحظة التي خطر له أن يركله فيها، وأدى الحارس التحية له عندما دخل ممر البهو. أدار مسكة باب المكتب الأول وفتحه، فهب الكاتب المرتبك واقفاً بوضعية الانتباه فيما هو يدخل المكتب. سار الجنرال إلى الطاولة، ودور قرص هاتف الميدان ثم رفع السماعة، وهو يدق بأنامله على وجه الطاولة.

– «يا كوندال»، صاح الجنرال. «تأكد من أن ينظف الجنود

الحظيرة». خبط سماعة الهاتف، وأمسك بها بيده لحظات معدودة، ثم أدار المسكة من جديد ثلاث دورات. «يمكنك استئناف نيران لوائك الآن»، نخر يكلم متلقي المخابرة الهاتفية، ثم أعاد السماعة وخرج من الغرفة، تاركاً للكاتب مهمة إغلاق الباب خلفه.

صعد ببطء وتثاقل إلى غرفة نومه بذهن فارغ فاقد الحس، وغير قادر على التفكير بأي شيء بصورة واضحة (فلو سأله أحدهم، أين كنت قبل خمس دقائق؟ لم يكن بمقدوره الإجابة عن السؤال)، حتى شعر باهتزازات خفيفة صادرة عن تفجر القنابل تحت قدميه عند أعلى السلم. كانت مصابيح النور الكهربائية تتأرجح على سقف سلم المنزل، وعند دخوله غرفته شاهد وهجاً أزرق يتراقص عبر النافذة قبل أن يفتح النور. غير أن وهج النور كان بهياً ساطعاً جداً، يحرق عينيه المتألمتين، ولذلك أطفأه وخلع ثيابه في الظلام.

أخذت قعقعة المدافع ودويها تهز ألواح زجاج النافذة وتحركها، كما أخذت ألوان متفاوتة الشدة تنفذ من خلالها. تعذر عليه النوم فترة لا بأس بها من الزمان. لم يكن لأفكاره نهاية أو بداية، كما أن ما ينبثق عنها من شظايا -وهي تكاد تكون صوراً على شريط سينمائي بالغ الرقة والنعومة عُصبت به عيناه- إما أن تلون أو لا تلون بفعل ومضات المدافع التي لم يستطع أن يحمي بصره منها. لم يستطع أي شيء أن يحول دون وصول الومضات إليه: فقد اخترقت النافذة وأضاءت بنورها جدران الغرفة كلها، وانسلت إلى الزوايا، وطافت على السقف، وأحرقت له عينيه عندما كان يفتحهما، كما جعلته يستحم في بركة من العرق المتصبب. ولم يكن هنالك مفر من سماع الأصوات المكتومة المزامنة للوميض التي تطعن وتثقب أذنيه نصف المحميتين، على الرغم من أنه كان يتقلب من جنب إلى جنب في محاولة للفرار منها.

طرح الأغطية عنه بصورة مباغتة، وتناول سماعة الهاتف، وهو مشحون بثورة غضب قاتلة مما جعله غير قادر على الكلام في تلك اللحظة. آلو؟ راح يصيح منقطع الأنفاس. يمكنكم أن توقفوا إطلاق النار الآن. عبس وقطب حاجبيه في الظلام ثم سأل: هل سمعتني؟ يمكنكم أن توقفوا قصف المدافع الآن. باشروا قصفاً من الدرجة الثانية في الساعة الخامسة صباحاً.

وبعد أن سمع صوتاً معتذراً يكرر أوامره خبط سماعة الهاتف بقوة كبيرة جداً حتى اهتزت الطاولة، ثم رقد في فراشه من جديد وسحب الأغطية من فوقه. ثم خلد إلى النوم في جو من الصمت والسكينة.

الفصل العاشر

أخذت عينا الجنرال تسرحان من خلال المنظار عبر امتداد من الأرض المنيعة غير المحتلة التي حرثت واستثمرت في الماضي، ووراء هذا الامتداد برزت تلال سفحية تظهر على سطحها الأعلى بقع من التراب والأشجار الخفيضة. وبالعين المجردة كانت تصعب رؤية الأماكن التي تنخفض فيها الأرض وتغوص عند المرتقى، غير أنه بمساعدة الآلات البصرية يمكن تمييز كثير من الانخفاضات بصورة ضعيفة باهتة. وكانت مناطق التربة الأكثر وضوحاً ترمز إلى وجود حفر رديئة التمويه ومصائد مفخخة نصبت لمنع تقدم المشاة، كما أن زاوية سوداء لأيكة من الأشجار تم إحراقها بالقنابل الحارقة أصبحت الآن موقعاً محصناً للعدو. وأما الجلاميد والصخور، بما تحمل معها من بقايا الأشجار فكانت تبرز خارج الأرض آحاداً آحاداً أو على هيئة أكوام وأجمات، ضد أية قوة عسكرية يمكن أن تحاول الوصول إلى القمة والسيطرة عليها. وراء هذا كله وفوقه، وليس على مسافة بعيدة من خط إطاره، كانت توجد مساحة من الأرض السهلية المستوية المحمية بحقول الألغام والأسلاك الشائكة

والمخافر الأمامية المستورة. وبما أن هذه كانت أكثر النقاط انحداراً في سلسلة الجبال، من حيث كثافة الدفاع، وكانت هي النقطة التي سيتسلقها جنود الجنرال في ليلة من الليالي، صعوداً إلى القمة، ونزولاً مندفعاً مع تباشير الفجر إلى السهل الذي لا تحميه أية دفاعات على الجانب الآخر. وعندما يحققون التفوق في القوة يتجهون نحو الجنوب مسافة عدة أميال إلى مؤخرة الشّعب الجبلي الرئيسي، ويسدون طريق انسحاب العدو. سوف يتم حمل الراجمات المضادة للدروع في موجة الهجوم الثانية. سيحاول العدو، وهو غير قادر على الانسحاب، تحت ضربات الدروع والمدافع وانقضاض المشاة من الجبهة، سيحاول الفرار من المعركة، فيباد عن آخره أثناء ذلك. وفي هذه الأثناء، سيبدأ جيش غورشيكي آخر يرسل في أعقاب الجيش الأول زحفاً أشبه بالطوفان باتجاه الشرق، تاركاً الشعب الجبلي لرحمة الحصار والتطويق. وعندما يسقط الشعب الجبلي، يتضخم الهجوم ويزداد بعد أن يرفده مئتا ألف عسكري إضافي. إن نجاح هذه الخطة العسكرية يعتمد على عملية اختراق خاطفة حاسمة في هذه النقطة شمالي الشعب الجبلي. هذا وعلى الرغم من صعوبة تصدع هذا الجزء من خط الجبهة، فإن الصعوبة نفسها تواجه العدو في إعادة تعزيزه ضمن مهلة إنذار قصيرة في وجه عملية هجوم مباغتة، وبعد أن يتم الاستيلاء على الشعب الجبلي لن يستطيع العدو إعاقة تقدم الغورشيك حتى يصلوا عاصمتهم القديمة. لم تغب عن ناظر الجنرال أبداً إمكانية التقدم مسافة ألف ميل فيما وراء ذلك، والحق يقال إنه أنجز التدابير الاحتياطية المركزة في سبيل ذلك، من أجل أن يوصل الغورشيك من جديد إلى قلب القارة الشرقية وأعماقها.

ستكون طلائع هجومه، التي يعتمد عليها نجاح الزحف، كتيبتين من الرجال المتعصبين الأشداء والمسلحين بالمُدى الطويلة، يتسللون زحفاً

على أيديهم وأرجلهم تحت جنح الظلام. سوف يعلق كل واحد منهم قنبلة منشار كبيرة في نطاقه، وقد حدد لكل القنابل أن تنفجر في وقت واحد عندما يشتبك حاملوها في القتال فوق مواقع العدو. إن انفجارات هذه القنابل، المتميزة عن سواها في الصوت، ستكون إشارة للكتائب المسلحة تسليحاً عادياً وراءها في الاندفاع إلى القمة، فيما العدو لا يزال مذهولاً مرعوباً بهول ما أصاب الدفاعات الأمامية من فواجع وما قدمته من أضاح. لن يكون جنود كتيبتي المدى على علم بما يحملون، فقد كان يفترض إخفاء القنابل وتقديمها للجنود على شكل جرابات طعام، مع الأوامر بعدم فتحها حتى يبدأ الجنود استراحتهم الأولى وراء القمة، وبذلك الوقت يكونون قد أنجزوا عملهم في الإجهاز على كل رجل يلتحمون معه التحاماً مباشراً، إضافة إلى أعداد غفيرة ممن يحاربونهم.

لقد كان من السهل عليه أن يجهّز، بدلاً من كتيبتي المدى هاتين، عدداً من الرجال الذين تربوا تربية خاصة على بذل أرواحهم رخيصة في سبيل نظام الحكم – وفي كل الجيوش الوطنية يوجد كثير من هذه الوحدات التي يمكنه الاعتماد عليها – ولكنه خدمة لهدفه المعقد القاتل كان يريد جماعات حرة قادرة على الاحتمال من أشجع الرجال الذين يؤثرون الحياة على الموت. في ذلك كان يكمن جوهر البراعة في خطته وخديعته، وهي رؤية لا تحمل بالظاهر أهمية كبيرة، ولكنها رؤية. كان الجنرال يشعر بحدسه وأعماقه أنها ستوفر النجاح لسلسلة أحابيله وحيله العسكرية.

رفع الجنرال منظاره مرة ثانية، وسدد ناظريه إلى النقطة التي ستفتح فيها وحداته بالنار ثغرة عرضها ميلٌ كاملٌ على القمة، محدقاً نظره إلى هذه النقطة فترة طويلة من الزمان، على صورة وحش يواجه وحشاً آخر، وكأنه ينوم الأرض تنويماً مغناطيسياً لكي يجعلها تمنح معبراً سهلاً لجنوده حين تقع الواقعة. حاول أن يرفع المنظار إلى أعلى ولكن

حمالته علقت ما بين صدره وحافة نافذة السيارة، فأخذ ينادي بأعلى صوته، ياكوندال! وهو يلقي المنظار أرضاً. تناول مصوراً من مقعد السائق وأخذ يسجل ملاحظات على هامشه، ويرسم مثلثات صغيرة وخنادق تمثل المواقع الدفاعية بالخط الظليلي بين خطوط الكفاف المتذبذبة وفق تذبذب سفح الرابية. وبعد أن يتم تطهير الشعب الجبلي، ستنقل كتائب الخدمات المدافع الخفيفة إلى قمة الجبل وتعزز الوحدات العسكرية الأولى التي تقاتل دفاعاً عن الشِّعب. كان الجنرال على إدراك كامل بالقيمة الكامنة في: أ- أن لا تنفجر قنابل كتيبتي المدى قبل التحامهما بالعدو، ب- أن تنطلق كلها في لحظة واحدة. إن الأمل بوقوع الشرط الثاني ليس معقولاً، ولكنه في أدنى الدرجات سيحدث موجة من الدّوي خدمة لغاية طيبة منشودة. لعل إجراء التمارين الأولية على تلك (البروفة)، يجعل الخطة عملية أكثر، على الرغم من أنه كان يتساءل في شك عن إمكانية القيام بذلك دون التضحية بكتيبتي مدى أخريين كمواد لحقل التجارب في مشروعه.

نظر إلى ساعة يده، وراح يطوي المصور المصنوع من الورق المصقول متسائلاً في عجب: متى سيعود كوندال؟ لقد غادر السيارة قبل نصف ساعة بحثاً عن آثار كتيبة يفترض أنها تقوم بحراسة الغابة والدفاع عنها. فتح الجنرال باب السيارة على سعته ولكن الباب توقف بزاوية خمس وأربعين درجة، وحرن عن الرجوع إلى الوراء أو التقدم، لكي يتيح مجالاً أمام الخروج من السيارة أو الإغلاق على من في داخلها. انتشرت رائحة أمطار رطيبة منعشة تتساقط على الأوراق من أجمة قريبة مؤكداً حالة الصمت التي تحيط به، حالة من الصمت التي لا يمكن تصديقها، كأنه استمرار لذلك الصمت الذي شعر به في حلم الليلة الفائتة، يطبق عليه وهو يتسلق جبلاً في الظلام الدامس تقريباً، وهو يخبُّ في الأرض ويخوض حتى ركبتيه لساعات وساعات -كما تراءى له-

بين أطراف دامية ولكنها لا تنزف وملطخة بالأوحال الجافة الرمادية، دون أن يحقق خطوة تقدم واحدة. لقد كانت عملية تسلق انفرادية لا نهاية لها أشاعت في نفسه الخوف والغضب عندما أفاق من نومه وأدرك سبب خوفه وارتعابه.

«كوندال». صاح بصوت عال، وهو متلهف للشروع بعملية التفتيش. «يا كوندال»! راح يتلمس جيبه بحثاً عن لفافات تبغ واكتشف أنه لم يحضر معه أية لفافة. البارحة لم أرتدِ قبعة وأنا أشرف على عرض عسكري. لقد بدأت أقع في الخطأ والتقصير، راح يفكر بحزن وأسف، وهو يمد رأسه من السيارة ويصيح موجهاً أصواته وجهة أشجار الغابة. «ياكوندال! ياكوندال» بدأت القنابل تنفجر على مسافة بضع مئات من الياردات في الجنوب الشرقي، منطلقة من مدافع على الطرف الجنوبي من الغابة. قفز خارج السيارة ومشى إلى الخلف حيث كان اللاسلكي منصوباً. علقت كاحله بشجرة شائكة فأخذ يركلها بكل قوة وعناد حتى أبعدها، وهو يدير المفتاح الثلاثي الرؤوس إلى وضع الإرسال ويفك الميكروفون.

– «البطارية 16»، راح ينادي.

– تلقى الإجابة، فطلب الحديث إلى قائد البطارية.

– «لا تطلق النار حتى منتصف النهار، ثم أطلق مدافعك على الغارب، ضمن المدى المجدي. أنا في النقطة /069196/ في جولة تفقدية ولا أريد أن تسقط على الغابة نيران الرد الانتقامية».

– توقف القصف، والطيور التي كانت قد تضايقت وانزعجت من دوي القنابل عادت إلى أعشاشها المتقلقلة، أعشاش زمن الحرب. سقط كوز من شجرة صنوبر على الأرض الصلبة القاسية، وسمع الجنرال أصوات ارتطام أعواد الشجر في منطقة قريبة. فظهر النقيب كوندال مقبلاً من بين شجرتين.

- «ألم تسمع ندائي»؟ سأله الجنرال.

- «كانت المدافع تطلق نيرانها، يا سيدي». قال كوندال معللاً، وكان أداؤه التحية للجنرال بحركة محرجة بفعل ما كان يحمل من أسلحة. «وكنت على مسافة بعيدة يتعذر فيها سماعك».

- «إنك أبله بليد التفكير إذاً، وكان يجب أن لا تظل بعيداً عني هذه المدة الطويلة، أضف إلى أنك كاذب ومنافق، لأنني ناديتك قبل فترة طويلة من إطلاق النيران، ولابد أنك سمعتني».

- وقف كلاهما قرب مؤخرة السيارة، وكان وجه كوندال مغموماً يطفح بعلائم الاعتذار، على صورة من يستحق كل ما يكال له من سباب وشتائم. ثم قال: «لقد توغلت مسافة لا بأس بها داخل الغابة عساي أقع على أية آثار للجنود. لقد أمضيت وقتاً طويلاً في البحث والتفتيش، لأن فراء الأرض والأشجار كثيفة جداً كأنها من غابات الجنوب، ورأيتهم فجأة على مسافة غير بعيدة من مكان وجودنا الآن. لم يروني لأنني ذهبت نحوهم بكل هدوء وسكينة». وبعد أن شد بقوة حمالة رشاشته الآلية المتدلية على كتفه، أخذ يشير بيده نحو مكان وجودهم. ولكن الجنرال، بعد سماع أقواله، تجاهله تماماً وسار نحو السيارة وأحضر مصوراته. «إهدني الطريق»، قال الجنرال وهو يغلق بابي السيارة بكل قوة وعنف.

كان ممر الغابة مفروشاً بارتفاع الكاحل بأوراق الشجر الذاوية الرطبة، ولم ينتبه الجنرال، على الرغم من أنه كان يخب فوقها، للفرقعة المنبعثة عنها، أو للاتجاه الذي كانا يسيران فيه، ذلك لأنهما سرعان ما ابتعدا عن طرف الغابة وغابا بين أشجارها. كان الزمن والمسافة يمران مرور الحلم بالنسبة له بحيث أن كل ما كان يعرفه هو أن الأميال كانت تمر تحت قدميه والأيام تدبر من حياته. أخذ كوندال يمشي عبر منعطفات كثيرة في ممر الغابة - الممر الذي بدا أنه لا يحس به إلا تحت

أكوام أوراق القش – وذلك لكي يتفادى الأكمات والتباب الصغيرة، كان الجنرال يرفع بصره بين الفينة والفينة، ليرى كوندال وهو يتقدمه دائماً مسافة بضعة ياردات، بخوذته الواقية التي تركزت بصورة دائمة على رأسه المولع بالنظام، وبندقيته الملقاة على ظهره بشكل معزّ ومريح.

– توقف كوندال عن السير وأصاخ سمعه.

– «كم يبعدون الآن»؟ سأل الجنرال بصوت خفيض.

– «لقد وصلنا، يا سيدي. ليس علينا إلا أن نجتاز ضفة أمامنا، فنصل إلى مواقعهم خلفها».

– «تابع سيرك بكل هدوء»، قال الجنرال، وهو يلاحظ الاستحكام المنحدر المغطى بالأشجار الصغيرة. «لم يسمعنا أي منهم حتى الآن، وأنا أريد أن أقف على مقدار فاعلية نظامهم الدفاعي».

– اعترض كوندال وقال: «إذا اتجهنا نحوهم بكثير من الهدوء فإننا قد نتعرض للرمي. سيعتقدون أننا دورية معادية، بينما إذا رفعنا أصواتنا ودخلنا بصورة علنية سيسمعون خطونا ولن يطلقوا النار».

– أخرج الجنرال مسدسه من جرابه وصوبه إلى ظهر كوندال وقال هامساً: «تقدم، افعل ما أطلب منك».

– عندما أحس كوندال بخطم المسدس الصلب مضغوطاً على ظهره، راح يحبو بين الأشجار دون أية ضجة. تبعه الجنرال، وهو يبعد عن وجْهه بعض أوراق الشجر ويفكر: إذا رُمينا بالرصاص ومُتنا تُحلّ المشكلة لأنه سيترتب على شخص سواي الإجهاز عليهم عندئذ. لماذا تلقى على عاتقي مهمة تنفيذ مثل هذا العمل المشين؟ كيف نشأ هذا الموقف؟ لا أدري. لقد نسيت كل شيء. لماذا لم يكن هنالك بد من أن يمسك هذا الموقف بتلابيبي؟ كان السؤال الذي يتبادر إلى ذهنه مع كل خطوة يخطوها: كيف لي أن أجد مخرجاً للإبقاء على حياتهم؟ هل يمكن تحقيق ذلك دون أن تعلم به القيادة العليا؟ بدأت الأرض ترتفع تحت

قدميه. كانا يتسلقان الضفة، يمشيان يمنة ويساراً نحو الأعلى. لا، قال يحدث نفسه، إنه مستحيل. لقد انتهكت حتى الآن النظام انتهاكاً خطيراً صارخاً عن طريق الإبقاء على حياتهم هذه المدة الطويلة، في الوقت الذي حددت فيه البرقية بعبارات بسيطة واضحة وجوب قتلهم فوراً.

– اتجه كوندال، وهو واقف فوق سطح الاستحكام المستوى، كي يتأكد من وجود الجنرال معه. طرقت مسامعهما دمدمات الجنود المتنافرة، كأنهم نهضوا لتوِّهم من النوم، فبعضهم كانوا يتلقفون بنادقهم، وآخرون يستلون سكاكينهم يغشاهم جميعاً سكون مطبق كأنهم يتحسبون وقوع هجوم عليهم ولا يملكون العزم على فعل الكثير لرده برغم ذلك.

– «أين الحراس»؟ سأل كوندال مزمجراً، بعد أن هبط عن كتف الاستحكام وصوب بندقيته إليهم. أعادوا أسلحتهم إلى أماكنها، وأخذوا يتراجعون قليلاً إلى الخلف وهو يمشي بينهم، وما أن شاهدوا الجنرال حتى هبوا واقفين كتماثيل من حجر.

– «أين ضابطكم»؟ سأل الجنرال أقرب الجنود إليه، والذي هم بالإجابة عندما سمع الجميع وقع أقدام قادمة من الغابة، وشاهد الجنرال ضابطاً على رأس دورية يدخلون جميعاً المتراس. كان وجه كل واحد منهم هزيلاً ومتعباً، وكانت ثيابهم مبللة وملطخة بالوحل، فتقدموا بكل إعياء وخمول، يهد من حيلهم وزن المعدات التي يحملونها. لاح من ظهر آخر رجل بينهم هوائي رفيع لجهاز لاسلكي. بدأوا يجلسون على الأرض واحداً بعد آخر، دون معرفة بأن الجنرال قيد أنملة منهم.

– هؤلاء هم من يحق القتل عليهم، لا أفراد الفرقة الموسيقية. مطلوب مني أن أقتل تسعين موسيقياً، أما هؤلاء البجم الرعاع فيجب أن يعتبروا روحاً قدساً. «لماذا لم تعين عدداً كافياً من الحراس»؟ سأل الجنرال ضابط الموقع بعد أن تقدم المذكور نحوه وأدى التحية العسكرية.

- «الحراس معينون، يا سيدي»، أجاب الضابط مستغرباً.
- «أين؟ لم أرهم». قال الجنرال ساخراً.
- «لقد أرسلتهم إلى جدول الماء في الطرف الجنوبي وفي الشمال الغربي»، رد الضابط. تناول الجنرال ورقة شجر من شجيرة قريبة وهشم قصاصتها مسحوقاً ناعماً بأصابع يده، وأحس بنار الغضب في عينيه، وبالدم يجري سريعاً في أطرافه التي لابد لها أن تصرف طاقتها بفعل شيء من الأشياء. «لقد أرسلنا دوريات إلى الشرق أيضاً»، استطرد الضابط يقول ثم وقف صامتا واجما يستعد متهيبا لمواجهة ثورة الغضب البادية على وجه الجنرال أمامه.
- «وهل دورياتك في الخارج الآن»؟ صاح الجنرال.
- «لقد أتيت بواحدة منها لتوي».

زمجر الجنرال وهو يقترب كثيراً من الضابط حتى شعر الأخير بأنفاسه على وجهه: «لقد جئنا لتونا من الطريق العام ولم نقابل أية دورية أو حارس من أي نوع. كما أننا لم نسمع صوتاً لدورية تقوم بأداء مهماتها. أريد منك أن تتفقد الدفاعات على سفح التلة وترسل لي تقاريرك عن ذلك. أريد كل المعلومات التي يمكن الحصول عليها عن الأرض في هذه المنطقة. هل تفهم»؟ طفق يتكلم بحماسة وصوت مرتفع، وكلماته تتردد بين الأشجار. «أرسل دورية أخرى. حافظٌ على نشاط جنودك. إبعثْ فيهم شيئا من الحيوية».

راح كوندال يحدق نظره بعينين جامدتين وإن كانتا تشاهدان كل شيء. ألا تعرفون أننا في حرب؟ سأل وأجاب: طبعاً، نحن في حرب؟. ولستم في منتجع هنا. أخذ بعدها يضحك من ضحالة وسخف تعليقه. «هيا، انهضوا». وعندما وقعت عيناه على جمرات متفحمة من النار عند أسفل شجرة من الأشجار، اتجه للضابط من جديد وسأله: «لماذا تضرمون النار؟ هل تريدون أن تشعلوا نقطة علام لنيران مدافع العدو؟

لا أريد اجتذاب مزيد من الانتباه لهذه الغابة». بقي وجه الضابط وجهاً مكفهراً. «كان بمقدوري - وبجماعة من اثني عشر رجلاً فقط - أن أذبح كتيبتكم عن آخرها خلال دقائق معدودة. وخلال الليل بمقدوري أن أفعل ذلك بأقل من جماعة لأنني أعتقد أنكم تغطون في النوم. ألا تعرفون أنكم مطالبون بعدم التقاعس لحظة من اللحظات».

- «كان ثلثا رجالي، يا سيدي، خلال الليل يقومون بأعمال الدورية على الرابية». قال الضابط. «ودوريتان منهم لم تعودا حتى الآن». كان يقف بهامته التي يزيد طولها قدما كاملا عن طول الجنرال، ومع ذلك يغض له الطرف خائفاً وجلاً.

- «لا»، صاح الجنرال، «طبعاً لم يعودوا. ولن يعودوا أيضاً لأنهم جنود خائنون خاملون إلى درجة أنهم لا يعرفون حماية أنفسهم ورعايتها». شخص بناظرين مستوحشين إلى فسحة الأرض التي قطعت أشجارها من الغابة، كأنه يبحث عن نقاط اتهام أخرى يصفع بها الضابط. «وماذا عن تقاريرك؟ ماذا عن المعلومات التي جمعتها دورياتك خلال الليل؟ أم تراهم كانوا في حرص شديد على سلامتهم تعذر عليهم معه جمع أية معلومات».

- «لقد أرسلت تقرير الصباح لأركان العمليات، يا سيدي، بواسطة مراسل خاص». قال الضابط بروية وهدوء.

- «كان يجب أن ترسله باللاسلكي». من الواضح تماماً أن عليهم أن يفعلوا ذلك، قال الجنرال لنفسه، ولكن لعلني كنت أتحدث إليهم أيضاً من عالمي المنعزل الخاص. إنهم لا يزالون يجترون ويتمثلون أهوال آخر معركة خاضوها ويحتاجون شهرا كاملا بأقل الدرجات لاسترداد عافيتهم والإبلال منها.

كانت إجابة الضابط متناقضة قليلا على الرغم من أنها طرحت بلهجة عاقلة. «لقد خشيت أن يلتقطه العدو، يا سيدي».

- أنزل كوندال رشاشته الآلية عن كتفه. وهيمَنَ تقدم مسمار الأمان فيها على فترة الصمت. فجاءت ثورة غضب الجنرال المستمرة منجاة ومخرجاً من حرج الموقف إذ طفق يقول: «هل تعتقد أنني أوجه الأوامر عبثاً؟ لقد طلبت منك إرساله باللاسلكي، وأنا آمل أن يلتقطه العدو. أريدهم أن يعرفوا مدى اهتمامنا بكل شبر من الجبهة».

- «اعتقدت أن التقرير على درجة بالغة من الأهمية والخطورة بحيث لا يجوز إرساله باللاسلكي»، قال الضابط بسرعة، بعد أن استبدّ به توق إرضاء الجنرال، ورغبة في تفادي ملاسنة كلامية تدفع النقيب كوندال لأي تصرف أرعن. «لقد ذهب عدد من جنودي إلى قمة الرابية في الليلة الفائتة دون أن يراهم أحد، ورصدوا تعزيزات هائلة للعدو في حركة صعود من السهول الفسيحة المنبسطة. كانت المنطقة كلها بحراً يزخر بالأنوار».

- «إنه يكذب، إنهم لا يظهرون أنوارهم أبداً». ومع ذلك أخذ الجنرال يعيد النظر بملاحظاته هذه ويقول في نفسه. ربما كان ذلك صحيحاً.

«وإذا كان ما يقوله صحيحاً، فإننا قد نواجه هجوماً شتوياً معوقاً يحضرون له الآن. أبهؤلاء الرجال نحاربه»؟

- «ولكن ماذا عن أوامري وتعليماتي»؟ صاح به الجنرال. «لماذا عصيتها»؟

لم يحر الضابط جواباً عن هذا السؤال. وقع نظر الجنرال لأول مرة على الرجال الذين كان يصب جام غضبه عليهم، بوجوههم التي لا تحمل أي طابع غير الجلد والشجاعة المتأصلين بها. كانت عيونهم تشخص من تحت الخوذات عبر جو كله كلال وملل. كان بعض منهم يرتعشون في الجو البارد الرطيب، فاتكأوا على أقرب الأشجار إليهم، لا يجرؤون على التمدد والاسترخاء بصورة كاملة لأنهم كانوا يعرفون أن

الجنرال يحدجهم بنظراته. كان أحد الرجال يستلقي جاثياً إلى جانب جذع شجرة، وفرائصه تتشنج وهو يحشرج ويلفظ أنفاسه، وعيناه تتقدان بقذى الحمى كأن سويعات الزمن المتبقية له من العمر تجمعت فيهما تعبيراً عن وقفة تحد أخيرة. كان كل منهم صورة ملصوقة على لوحة، ينتظر ما يصدر عن الجنرال من قول أو حركة.

- «ما هو قوام كتيبتك»؟ سأل الجنرال الضابط.

- «مئة وثلاثة وتسعون، يا سيدي».

- استشعر الجنرال بريقاً غريباً في عيون الرجال من حوله. لقد سبق له أن شاهد مثل هذا البريق في نهاية المسيرات العسكرية، وإبان عمليات الانسحاب الجماعية الكبيرة التي كابد منها في أيام شبابه، عندما صارت البلاد حصيداً جرزاً ولم يبق غير لحم البشر يفصل بين ومضة الحياة والفناء من الجوع.

«أين تدفنون موتاكم»؟ سأل الجنرال.

- دفن الموتى كان واحداً من الأشياء التي لم يفعلها في حياته، ولكنه كان يعرف الطعم المر والنظرة الكئيبة التي يخلفها في عيون الرجال، ويعرف النظرة المتفرسة الشالّة وسرعة العمل التي يبعثها فيهم، كدليل ساطع على موت قدراتهم العقلية وموت كل ما يرشدهم للقيام بأي عمل نبيل غير أعمال التعقب والقتل وتلقيم الأسلحة الآلية وتكرار أعمال القتل. مرات ومرات، كانوا ما أن يهيئوا أنفسهم لتقبل الطعام حتى ينقلب الطعام السائغ في نظرهم شيئاً بغيضاً مقززاً.

- «وماذا تفعلون بجرحاكم»؟ سأل الجنرال.

نظر الضابط نظرة فارغة من أي معنى وكأنه يغط في النوم، بينما حملق الآخرون ببلاهة ووجوم. فعرف الجنرال أنه لن يتلقى جواباً عن سؤاله حتى إذا لم يبرح مكانه قرناً كاملاً من الزمان. «هل جُعالاتكم من الطعام كافية»؟

- «نعم، يا سيدي».

«سأضاعفها لكم وإن كافية».

ربت الجنرال على كتف كوندال وسار الاثنان باتجاه نهاية الفسحة، ثم دخلا بين الأدغال وغابا عن الأنظار بين الأشجار. راحت الأغصان اليابسة تفرقع تحت أقدامهما، ومن خلال السقف الذي تشكله أوراق الشجر ظهرت السماء بلونها الأشهب مشكلة سقفاً ثانياً أعلى. لقد تراءى له بأن كوندال، برغم سعادته، لم يكن يعرف بأنه سعيد، ولكنه راح يمشي شامخاً متصلباً في المقدمة، حاني العنق كأنه يقود إحدى الدوريات نحو مخفر أمامي مستور، يستبد به خوف العارف بأن الموت قد يواجهه في أية لحظة. إن راحة باله هذه، وشجاعته محض الخيالية، بدت قمة في التمرد واستقلال الشخصية بالنسبة للجنرال، مع أنه وجد لزاما عليه أن يقر ويعترف بأن كوندال لم يكن مغفلاً أبداً. كل عيبه أنه لم يبلغ درجة من الوعي يدرك معها أن المواقف الحاسمة تقتضي وتنطوي على ما هو أكبر وأجل شأناً من دافع الغريزة، قال الجنرال محدثاً نفسه، ولن يبلغ تلك المرحلة على الإطلاق، وإن كان برغم ذلك كله ذكياً عاقلاً، سعيد الحظ في عدم الابتلاء بما يزعزع راحة باله. ألستُ سعيد الحظ أيضاً؟ قدماي تسحقان الأوراق اليابسة؛ أستطيع سماع دورية تنطلق من فسحة الغابة التي تركناها قبل هنيهة، وساقاي تستمتعان بالسير عبر هذه الغابة الهادئة، يملأ السرور نفسي لأنني علمت بوجود سلسلة من الهضاب في المنطقة المجاورة يتمركز فوقها جيش كامل، وأنني مع حلول فصل الربيع سأضع مخططاتي كلها موضع التنفيذ العملي لتحطيم ذلك الجيش، وأدوك أية تعزيزات قد يُعدّها العدو لملاقاتي وحدي، وأبطل مفعولها. ولكن عقلي مشغول وتعيس لأن الفرقة الموسيقية تسكن فيه، تعمل به تمزيقاً ونهشاً بمخالب كمخالب الأسود.

توقف الجنرال بغتة، رغم أن كوندال واصل سيره، دون أن يلتفت لغياب وقع أقدام قائده. ماذا يجب أن افعل؟ سأل نفسه. كيف لي أن أحافظ على حياتهم؟ صورت له عيناه صورة عن البرقية التي تلقاها من القيادة العليا قبل مغادرة مكتبه: الطلب تأكيد تنفيذ إعدام غير المحاربين. مع الجواب فوراً.

كانت البرقية ضربة مطرقة تسحق العقل، وتقسم المخ إلى نصفين، كأنها جرح يشقه مبضع طبيب جراح في متن لحم بشري لم يمت ولم يُخدّر. إنها الشرخ الفاصل بين الماضي والمستقبل، وعليّ أن أحدد قراري على وجه السرعة. أشعر وكأني أصبحت رب نفسي. ليس هناك ما أستطيع فعله. لعلهم بالأصل وضعوا إشارة إزاء إسمي من أجل النفي والإبعاد، على الرغم من أنني أستطيع لفلفة موضوع تأخيري وتمويهه إذا رميتهم بالنار الآن. إن نيران البنادق تتهادى من التلال ولكن هذه الغابة هادئة صامتة. لم أعد أستطيع سماع صخب الدورية. كما غاب كوندال عن مجال الرؤية، وموسيقا مدافعي لن تمد يد العون وتشارك بهذا الجدل، على الرغم من أنني أعتقد بأنني أعمل على تكبير مشكلتي حتى لأخال أنني على رأس قدر العالم، أو شيئاً مغفلاً آخر من هذا القبيل. هل أنا كذلك؟ الأمر يثير الضحك. بالطبع لست مغفلاً. إنني جندي ولست شهيداً. أريد أن أموت مدافعاً عن نفسي، وفي سبيل شهرتي من خلال موقف مثير، ولا سيما في معركة، تسحقني قنبلة أو قذيفة خلال ثانية واحدة، لا أن أصبح في منفى بعيد دون داعٍ، أعاني نزع الموت بين الفطور النامية في اسفل شجرة من الأشجار كذلك الجندي الذي رأيته في فسحة الغابة. لقد منحتهم يومين للحياة بعد الحفل الموسيقي، أليس كذلك؟ ألم يكن ذلك كافياً؟ (ألا يساوي اليومان مئتي سنة؟) كان ينبغي قتلهم هذا الصباح. ليتهم ماتوا ولم يبقوا أحياء يرزقون.

– بدأ يتحرك من جديد، متقدماً إلى الأمام في حذر.

- «كوندال»! أخذ الجنرال ينادي وهو يشق طريقه إلى المكان الذي اعتقد بوجود كوندال فيه بالتأكيد. لماذا ألمّ بي كل ذلك بصورة مباغتة على هذا النحو؟ أنا عسكري. أليس من السهل علي إصدار أمر عسكري، حتى وإن كان غير معقول؟ ليس عليَّ إلا أن أتلفظ بقليل من الكلمات وينتهي الموضوع كله. أتناول الهاتف وأقول.. وأقول.. لا، ليس علي حتى أن أفكر بما سأقوله. إرموهم بالرصاص. هذا ما أقوله وهذا نهاية الموضوع.

- «يا كوندال»!

صارت طلقات المدافع قليلة نادرة، وصار رجع الأصوات المهوّم في الغابة نادراً، وصار وقع الأقدام الذي يبدو في خفته ونعومته كالطيوف قليلاً جداً، وغاب نهائياً دوي نيران المدافع على جانبي الجبهة كليهما، ومع ذلك فقد كان الجنرال يشعر أنه مثل رجل محاصر يهتز ويتحرك لكل صوت أو حركة. سائر ضباطي يعرفون أنني أعاني هذه المشكلة: أتنمّر عليهم فيبتعدون عن طريقي. إنني أركل جنودي فأشعر بضغنائهم الحاقدة تحرق نعالي. لا أحد بينهم يستطيع مساعدتي أو يود ذلك، ثم إنهم لا يجرؤون على محاولة ذلك بأي شكل من الأشكال. الأشجار صديقة وفية للنقيب كوندال لأنها تجعله يشعر بالسلامة واتقاء شر الرمايات الشاردة، ولكنها تمنعني من رؤية طريقي بصورة واضحة عبر سهل مليء بالأشواك. من حسن طالع كوندال أن غطاءً سميكاً يغلف عقله. إن هذه الأشجار تحرقني بأغصانها اللعينة المجرمة. إنها أعدائي. إنني سأرسل خمسمئة جندي من جنودي إلى موت محقق عقيم على قمم هذه التلال، لو تمكنت من إنقاذ الفرقة الموسيقية.

- كان كوندال في انتظاره بين الأشجار.

- «تابع مسيرك»، أمره الجنرال، «هيا».

– دفع أحد الأغصان عن طريقه، ثم تركه يرتد إلى الممر الخالي. ليس هنالك مشكلة بالنسبة لي. لا أستطيع تركهم أحياء يرزقون، لأنني بكل بساطة تلقيت أمراً بإعدامهم. ليس لهذه العواطف أي تأثير أو حسبان، فهي من بنات تفكيري وحده، وينبغي أن تبقى فيه، بحكم الميتة. إذا عصيت الأوامر، سأتعرض للنفي ويصدر الحكم علي بالعيش عيشة المدان، ويعهد إلى شخص آخر بمهمة قتلهم والإجهاز عليهم. ليس ثمة ما أستطيع فعله. سوف يقتلون تحت أي ظرف من الظروف.

– وصل الاثنان إلى حافة الغابة الخارجية. كانت دورية عسكرية، على صورة خط متعرج من النقاط البنية المنقوشة بين جلاميد الصخر ونبات الوزّال، تعبر أرضاً حراماً في منطقة مرتفعة من سفح التلة. إجتاز الجنود أجمة من الأشجار، فجعل الجنرال يترصد خطوهم من خلال منظاره، متنبئاً سلفاً من مكانه بالكمين الذي انقض عليهم. ترامت له ضوضاؤهم المبهمة، كبعد آخر يضاف لأبعاد صورة الخط المنقوط، وهي ترسل أصداءً أشد حدة في أرجاء الوهاد المجاورة والشعاب الجبلية – وشاهد الجنود وهم يتساقطون على الأرض. شق اثنان نجَوا من الموت طريقهما إلى الأسفل بين الأجراف الكلسية، بنية الإبلاغ عن وجود مخفر دفاعي لم يلاحظه الأصدقاء من ذي قبل. حدد الجنرال سمته وموضعه على بوصلته الموشورية. سوف أدفع بعض القوات الاحتياطية إلى الموقع: فهؤلاء الرجال مرهقون. إن لواءً من ألوية الشغل يستطيع أن يشق أنفاقاً تحت أرض الغابة تتمركز داخلها كتيبتا المدى. غير أن الضابط أبلغ عن وجود تعزيزات جديدة. وبحر من الأنوار – فهل على الجنرال أن يغير خططه الآن؟ قد يكون ذلك خدعة، وقد تكون هذه التعزيزات مخصصة لقطاع آخر من الجبهة. سأحتاج إلى كثير من الحلم والأناة لاكتشاف نواياهم الحقيقية.

– «خذني إلى القرية»، قال الجنرال وهو يلقي بالمصور داخل

مؤخرة السيارة. «أريد أن أتناول شيئاً من الطعام».

- سارت السيارة مقتفية آثار الدواليب على طول مجاز ضيق، وتحولت بعد ذلك إلى طريق تم ترميمه مؤخراً، حيث أخذ كوندال يندفع بها في منتصف الطريق مثل رجل واتاه الحظ ولم يمسك بمقود توجيه سيارة منذ سنوات. جعل يميل بالسيارة من جانب إلى جانب حتى، وبعد أن سمع صراخ الجنرال يرتفع فوق ضجيج المحرك، خفف سرعته إلى درجة معتدلة نوعاً ما. ظهرت الحقول على جانبي الطريق وكأنها دُكّت وضُربت حتى رفعت راية الاستسلام والطاعة قبل أن يتم نهبها وسلبها من غلالها، فصارت قاعاً صفصفاً بلا لون ولا طعم تحت سماء تضفي عليها اللون الرمادي، كما انتصبت الأشجار على صورة أيد نحيلة عجوز في منظر طبيعي. طفق الجنرال يفكر، وهو متكئ إلى الوراء في مقعده، وساقاه ممدودتان إلى المدى الذي يسمح به هيكل السيارة، بيأس وقنوط بما يجب أن يفعله، فكانت إمكانات العمل تتمحور وتعود إلى نقطة البداية: ألا وهي أنه لابد من رميهم بالرصاص. سوف يمر موت ضميره مرور الكرام بالنسبة له في غمرة العمل الكتابي الكبير اللازم من أجل الإعداد لهجوم الربيع، وتعديل مخططاته ومشاريعه إذا تبين أن تقرير الضابط عن تعزيزات العدو ضد هذا القطاع من الجبهة صحيح وسديد.

عند المنعطف اللاحق من الطريق، وقعت السيارة في شرك قافلة من السيارات المتجهة نحو الشمال فاضطرت للتوقف. راح كوندال خلال برهة قصيرة من الزمان يجري بالسيارة بسرعة عالية عبر مسلك مليء بالأعشاب تحاشياً للاصطدام بالرتل الأول من الشاحنات، ثم أخذ ينعطف بسيارته يمنة ويساراً حتى توقف عن الحركة.

- «لماذا توقفنا»؟ سأل الجنرال.

- أشار كوندال بيده خارج النافذة إلى الطريق المسدودة بالشاحنات.

- «من الأفضل أن أستطلع الأمر بنفسي، وإلا سنبقى في هذا المكان طول النهار». خرج الجنرال من السيارة وذهب نحو أول شاحنة يسأل عن ضابط المرور. أجابه أحدهم بصورة لا مبالية وبغير اكتراث، مما جعل كوندال، الذي كان يتبع قائده، يتخذ على الفور موقفاً جدياً يتناسب وما قد يحدث، «إنه في الشاحنة الخلفية». وقف الجنرال عند الشاحنة الخلفية وهو يصيح بأعلى صوته: «هل ضباط المرور هنا»؟

- هبط ضابط من العربة المرتفعة ووقف أمام الجنرال. «إذاً أنت هو المغفل المسؤول عن هذه الشاحنات التي تسد الطريق؟ لما لا تحدد لهم الجانب الذي يسيرون عليه»؟

- «الشاحنات تجري بسرعة نظامية، يا سيدي». أجاب ضابط المرور، دون أن يستطيع التعرف على رتبة الجنرال. أفصح له كوندال بعد ذلك عن هوية الشخص الذي يتحدث إليه.

- «وهل من النظام»، أخذ الجنرال يصيح بشدة، «أن تسير الشاحنات على رتلين في الطريق، بحيث يتعذر مرور أية سيارة أخرى».

- لم يجب الضابط. أخذ كوندال ينظر إلى رتل الشاحنات من أوله لآخره. كان السائقون يمدون رؤوسهم من حجراتها، يحدقون أنظارهم بالفوضى الضاربة. شعر بقطرة من المطر تسقط باردة على وجنته، وخطر له أنه قد يكون جائعاً، ثم سمع الجنرال يصيح: «هل من النظام؟ لماذا لا تتكلم؟ هل أنت أبكم؟ لماذا لا ترد على أسئلتي»؟

الفصل الحادي عشر

تسرَّب نور الشمس عبر شقّين في جدار الحظيرة، فبدا لإيفارت على درجة خادعة من الرقة والهشاشة وكأنه يشكل هوائيين لحشرة عملاقة توشك على تحطيم الجدران ودخول الحظيرة. أخذ الألم يفري عظامه من البرد، كأن سكاكين سكنت خللها، ولكنه عندما همّ بالعودة إلى النوم، وتخيل أن السكاكين بدأت تتحرك، قال في نفسه: لم أزل في أقل الدرجات على قيد الحياة. كان مصباحان من مصابيح الحظيرة قد تُركا مضيئين، فألقى وميض أحدهما الضعيف ظلالاً غير واضحة المعالم على وجه ستارنبرغ، كاشفاً شفتيه الفارعتين، وعينيه المغمضتين.

عزف إيفارت عن محاولة النوم، لأن جسده كان على درجة بالغة من التصلب، وعيناه كانتا قد عاينتا ضوء النهار، كما ترامى إليه كثير من الضجيج الصادر عن الطريق المجاورة. تحرر من تمدده على الأرض وراح يطوي معطفه الرطيب فوق حقيبتين من حقائب الثياب ثم أطفأ المصباح.

راحت عينا ستارنبرغ تحدقان بسقف الحظيرة المليء بالعوارض

الخشبية وبيوت العنكبوت ثم قال لإيفارت: «لقد نسيت إطفاء المصباح قبل الخلود إلى النوم».

- «يؤسفني أنني أيقظتك».

- «لم توقظني. إنني مستيقظ منذ الساعة الخامسة». انتصب في جلسته، وراح يتكلم وهو يفصل بين كل عبارة وعبارة بالتثاؤب. «غير أنني أبقيت عيني مغمضتين برجاء المحافظة على شيء من الدفء»!

إرتفع صوت تساقط الماء وتناثره فيما كان أحد العازفين يغتسل عند براميل المياه، وراح رجل متمدد إلى جانب ستارنبرغ يتفتق بالكلام لصديق له عن غمه واكتئابه بسبب غارات البراغيث الليلية التي جعلت نومه يزخر بالرؤى البغيضة المرعبة، ومعبّراً له أيضا عن عزمه الأكيد على التخلص منها هذا اليوم.

- «ولماذا تتخلص منها»؟ قال صديقه ضاحكاً: «إنها ستهرب منا جميعا بعد صباح غد».

«إنك أحمق إذ تقول هذا الكلام.إنك تعرف حق المعرفة أنهم قرروا عدم إيذائنا». تناول منشفة وسار نحو البراميل قرب الباب، قبل أن يتمكن صديقه من إطلاق مزيد من أبيات الشعر ضد هذه الحقيقة التي يعرف الجميع أنها مشوهة وأكذوبة.

«لا أحد يفكر بالفرار الآن»، قال ستارنبرغ متفكراً. «أعتقد أن الفرار مغامرة خطيرة جداً».

- كان إيفارت ينتظر هنيهة بين كل نَفَس و نَفَس من لفافة تبغه، كأن اللفافة محشوة بمادة مخدرة وهو يختبر كل مرحلة من مراحل تأثيرها المتصاعدة. «لماذا لا تفكر أنت بالفرار»؟ سأل أخيراً.

- أجابه ستارننبرغ ببساطة : «لأنني لا أريد أن أرمى بالرصاص.

إنني أفضل التريث لمعرفة ما إذا كان بوسعي الفرار دون مواجهة العنف، ولكن ماذا عنك أنت؟ ربما تكون الرجل الوحيد بيننا الذي يتمتع بدرجة كافية من رباطة الجأش للنجاح بذلك».

– «سأبقى مع الباقين. ثم إنني لا أرى أي شيء يستحق أن أهرب من أجله».

«لا أفهم ما تقصد».

«حسناً، أين سأذهب».

«تعود إلى قمم التلال، بالطبع». رد ستارنبرغ مبتسماً، وكأنه يجيب عن أسئلة في مسابقة من المسابقات.

«لا، لا أريد ذلك لأنه لم يبق لي شيء يخصني هناك. وهذا هو سبب عزوفي عن محاولة الفرار».

«ليس لهذا التفكير أي طعم أو معنى».

جلس إيفارت وقال له : «لن يكون لتفكيري أي طعم ومعنى لو اعتقدت بوجود ما يخصني هناك. لقد زج بنا في هذا الموقف أناس لم ينفكوا يقولون لنا: إنهم يقاتلون من أجل الحرية. هل تعتقد أنني مغفل إلى درجة أرغب معها العودة إلى تلك الحرية في وقت يمكن تكرر حدوث ما حدث نفسه؟ لقد جعلني وقوعي في الأسر أدرك أن ثمة فارقاً ضئيلاً بين تلك الحضارة وبين هذا النمط من الحياة الذي ينهمك قومنا كثيراً في محاربته».

«لا أوافقك الرأي. الحياة التي تركناها ليست غريبة علينا على الأقل، وبمقدورنا تحقيق وجود مقبول وجيد في ربوعها. إنني أريد الحياة بأي ثمن، وإذا ما تمكنت من العودة إلى قمم تلك التلال، سأحصل عليها بثمن مقبول نسبياً».

– لم ينطق أي منهما بكلمة خلال بضع دقائق.راح أحد الرجال يشتم ويلعن بصوت عال لأنه فقد شفرة حلاقة، وهذا ما يترتب عليه البحث بين القش الكثيف للعثور عليها. وكان رجال كثر يتجادلون بجانب الحظيرة حول من سيكون الأول بينهم في استخدام برميل الماء، ثم بدأوا يصيحون ويهددون بضرب بعضهم بعضاً. وبنوبة شجار مباغتة انقلب البرميل فأخذوا ينظرون إلى الماء المنسكب في صمت، كأنهم أطفال حطموا لعبة من ألعابهم الثمينة. أخذوا يرمون بعضهم بعضاً بالاتهامات، ولكن ضوضاءهم خفتت وانتهت في الحال.

– «ماذا ستفعل إذاً»؟ استأنف ستارنبرغ أسئلته. «ماذا لو أعادونا على حين غرة بموجب هدنة»؟

– «أبتهج لذلك غاية الابتهاج، مثل أي رجل آخر».

– فتحت أبواب الحظيرة على سعتها واندفع حارسان إلى الداخل يحملان صفائح من دقيق الشوفان والبخار يتصاعد منه. هرع الرجال من كل أنحاء الحظيرة للقائه، وللاستمتاع بنفحات الهواء العليل التي دخلت من الأبواب في الوقت نفسه. شاهد الرجال شاحنات وسيارات متوقفة خارج بيت الجنرال، وشاهدوا ضباطاً يتسكعون زرافات زرافات على الساحة الفسيحة أمام المنزل. غرق الرجال، وهم يتقدمون شيئاً فشيئاً نحو مدخل الباب، في ضحك صاخب لرؤية جندي يطارد عدداً من طيور البط ويردها نحو بركة ماء شردت منها. وكانت فلاحتان تجران أقدامهما إلى البيت وهما تحملان البيض والخضار، كما كان جندي يصلح أسلاك الهاتف على السطح، ورأسه مشرعة باتجاه السماء الزرقاء المشوبة بالغيوم.

اكتملت عملية تفريغ طعام الفطور، وابتعدت الشاحنة. تلكأ الحراس عدة دقائق قبل إغلاق الأبواب. كما أن قطة صغيرة سوداء

كانت قد دخلت الحظيرة معهم تُركت في الداخل، وأخذت تموء في البقعة التي كانوا يتناولون طعامهم فيها، وهي تخمش قائمة الطاولة بمخالبها الأمامية إلى أن وضعوا أمامها صحناً من الطعام. كان الرجال، وهم يتناولون الطعام فريقين: فريق صامت مكتئب، وفريق يتجادل بكل حرارة وأسلوب لاذع. وكانت مجموعة صاخبة منهم تحيط بآرمغاردسن.

– «استخدموا تفكيركم وخيالكم»، كان آرمغاردسن يصيح بأعلى صوته. «لقد وقعتم أسرى في أيدي تجار الوحشية، لستم في مقهى تمسحون أحذيتكم به».

– «اجلس»، صاح عازف الفيولونسيل. «إنك تثير الخوف والهلع في نفوس الجميع. إنك تتحدث وكأنك إنجيل الحقيقة والصدق».

– مد آرمغاردسن هامته الطويلة عبر الطاولة متكئاً، والشعر الأشقر الخفيف يسترسل على وجهه. «هل سنجلس هنا ننتظر مقتلنا مثل كثير من الخراف إذاً»؟ زمجر آرمغاردسن بوجه الرجل الذي قاطعه.

– «الزم جانب الهدوء، واتركنا بحالنا».

– «هل نحن إذاً؟ هل نحن»؟ زمجر ثانية. صدرت بعد ذلك عدة ملاحظات وتعليقات لم يسمعها أو لم يؤثر الاستماع لها.

– «إنك لا تعرف ما تقوله». قال أحد الرجال إلى جانبه. «لا أحد سيتعرض للقتل: فلقد عزفنا أجود العزف في الحفل الموسيقي، سوف يحتفظون بنا كأسرى مادمنا نعزف لهم موسيقانا من حين إلى حين. إنهم قساة قلوب تجاه قومهم وبني جلدتهم فقط».

– انهمرت صيحات الموافقة والتصديق على هذه الأقوال: «طبعاً! طبعاً»!

– «إذا تقيدوا بالمهلة الزمنية التي تم الاتفاق على منحها لنا بعد

الحفل الموسيقي، لن يكون أي منا حياً يرزق غداً». قال صوت من بينهم مذكراً.

- جعل إيفارت يفتش عن الرجل الذي انبرى لمساعدته، ولكنه لم يهتد إليه بين الجمع المحيط به، على الرغم من أنه ابتسم طرباً وسعادة لسماع وجهة نظر متطابقة مع وجهة نظره.

- «ليس لنا إلا أن ننتظر ونرى ما سيحدث». كانت هذه هي الصرخة المعبرة التي وافق عليها وأيدها أكثر الموجودين. استشاط آرمغاردسن غضباً وعبس بهم، ثم ألقى ملعقته على الطاولة بقوة كبيرة جعلتها تقفز عدة قفزات ثم تسقط على الأرض. راح ينظر إلى الوجوه من حوله، ثم شق طريقه عنوة فيما بينهم، وهو يصيح: «إنكم تتحدثون وتتصرفون وكأنكم ليس لكم شيء تعيشون من أجله».

- «إن عندنا ما يشدنا إلى الحياة مثل ما عندك». صاح أحدهم في وجهه. ذهب آرمغاردسن إلى مؤخرة الحظيرة ووقف على انفراد بجانب النافذة، ينظر من خلال قضبانها. كان إيفارت قد سمع الجدال الذي دار بينهم وشاهد ساقي آرمغارردسن الطويلتين تخطوان خطى مديدة ساخطة وهو يمر من أمامه بعد انتهاء الجدل. كانت النافذة ذات القضبان الحديدية المتشابكة أشبه بمزار مقدس دأب معظمهم تقريباً على الوقوف أمامه منذ وقوعهم في الأسر حتى الآن، والمشهد الذي كانت تشكله هو مشهد مذبح يضم في إطاره كل الآلهة التي ربما كانوا يؤمنون بها قبل مجيئهم إلى الحظيرة. لقد شاهدهم إيفارت مراراً يصلون بصمت وخشوع في داخله، وهم عاجزون عن تقديم القرابين من أيد خاوية لا تملك شيئاً. سار، بعد أن دفع صحن الطعام عنه، حتى وصل إلى آرمغاردسن، ولبث واقفاً إلى جانبه حتى لفت انتباهه.

- «لماذا لا يجهش الجميع في البكاء»؟ سأل آرمغاردسن ووجهه

المتجهم القاسي مضغوط على الجدار.

- «لأنهم لا يعتقدون بأنهم سيقتلون»، أجابه إيفارت، وهو يضع إحدى يديه على كتفه.

- «ألهذا، أم لأن فطرتهم الطائشة العمياء تصدهم عن البكاء»؟ قال آرمغاردسن على سبيل الإيحاء بالجواب، «إنها لا تسمح لهم بمعرفة الحقيقة».

- «يجب أن يسرنا ذلك إذاً. أعتقد أنهم جميعاً على علم بما يجري، ولذلك دعهم يأكلون ويلعبون الورق، يطالعون وينامون. ليس من المفيد ترويع أي منهم».

- تراجع آرمغاردسن قليلاً إلى الوراء، ووجهه قبالة النافذة، وهو ما يزال محجماً عن النظر باتجاه إيفارت. لم أكن لأضايقهم. لكن المرء لا يستطيع تجنب الخوض في جدل مع الآخرين. والواقع أنني نسيت كيف بدأ ذلك الجدل.

- «إننا لا نعرف ماذا سيحدث لنا حتى الآن». قال إيفارت وهو يقدم له لفافة تبغ، «لذلك فإن أفضل الأمور هي المحافظة على الهدوء». وبعد أن انتظره حتى يشعل اللفافة سار إلى الطرف الآخر من الحظيرة، فُتحت الأبواب مرة ثانية، وأخذ الحراس يحضرون الماء إلى داخل الحظيرة. دخلت أشعة الشمس، وقد بلغت قوتها القصوى الآن على مدارج البيوت المقابلة، دخول الطوفان، تمدهم بالأمل والشجاعة والدفء. راح الرجال وقد رفعوا أكمام قمصانهم يسيرون جيئة وذهاباً إلى براميل الماء وهم يحملون المناشف وأمواس الحلاقة، يثرثرون وينكتون: فقد فارق وجوههم ذلك الشحوب الضارب. كانت هذه هي لحظات الأمل الكبير عندهم، لحظات لا يصدقون فيها أن أي شيء شديد الرهبة كالموت يمكن أن يحل بهم، لحظات كانوا يتصورون فيها من

غير وعي أنهم إنما وُلدوا على الأرض للبقاء والخلود، أو أنهم عندما يحضرهم الموت حقاً، سيكونون في شيخوخة طاعنة بحيث يصبح الموت منجاة لهم، أو ينتقلون إلى عالمه دون أن يَلفتوا انتباه أحد. وفي هذه الأثناء، كانوا يقفون تحت أشعة الشمس الدافئة المريحة، يتحسسون بكل لذة ومتعة انحسار البرودة عن سواعدهم ووجوههم بعد عضة المياه العذبة الباردة التي أنعشتهم وأفعمتهم بالنشاط والحيوية.

جعلوا يجلون صحون الطعام، وينظفون الطاولات. طاف رجلان يحملان برميلاً مليئاً بالمحروقات في كل أرجاء الحظيرة يملآن المصابيح من جديد، وفتح آخرون بالمكانس ممراً نظيفاً خلال أكوام القش. «إن بينهم وبين اليأس أشواطاً بعيدة». قال ستارنبرغ لإيفارت. لقد بدأوا لعبة اليانصيب. سجل واحد منهم جدولاً بالأرقام، وثمن كل رقم لفافة تبغ واحدة.

والشخص الذي يتم سحب رقمه من حقيبة بندر يكسب لفافات التبغ جميعها.

– «هذه فكرة طيبة»، قال إيفارت. «إنني آمل أن يستمتع الفائز بتدخينه. لقد كان له بعض القيمة والمغزى بكل تأكيد، فنهايته دليل على التقاط الأنفاس، كما أنه ترجمة سهلة لكتابة هيروغليفية العهد يشكلها الدخان الذي يقول: إنني أعيش، إنني أعيش. ما خطبك؟ لماذا تضحك»؟

– فك ستارنبرغ غطاء المصباح الأعلى وراح يفركه بخرقة بالية، مرسلاً أنفاسه على الزجاج بنفس الطريقة المدققة التي يستخدمها في مسح نظاراته. «هذه أول مرة أسمعك فيها تذكر عبارة: إنني آمل. إن صدور هذه العبارة عنك يبعث فيَّ مقداراً كبيراً من الشجاعة، حتى وإن كانت تنطوي على آية خفيفة جداً من آيات السخرية».

– «أتمنى أن أقنع نفسي بأنها تعني شيئاً»، قال إيفارت، «ولكنني لا أستطيع ذلك على الإطلاق».

- «إنك تستخدم العبارة عن غير وعي»، قال ستارنبرغ مبتسماً، «وهذا ما يعني أنك تأمل عن غير وعي وفي ذلك يكمن من الصدق أكثر مما يكمن عن طريق الاقتناع به تدريجياً بواسطة العقل والرشاد».

- لقد كان تعلقه الشديد هذا بكلمة واحدة فقط، يشكل فرضية علمية لا يمكن إثباتها، لأن الكلمة لم تكن إلا واحدة من كلمات كثيرة يفترّ لسان المرء عنها في لحظات لا يكون فيها على حذر مما يقول. هل كانت الكلمة برغم ذلك تنطوي على ما يوحي بالحقيقة والصدق؟ راح إيفارت يسأل نفسه. ترامت من خط الجبهة أصوات خفيفة متباينة الوقع لنيران المدافع، غير أن الفرقة الموسيقية كانت قد أمضت أمداً من الزمان تعيش ضمن إطار دمدمات المدافع بحيث لم يعد يلفت الانتباه إلا عندما يصغى إليه عمداً. «نعم، لعل الأمل بدأ يراودني، ولكنني لا أعرف لماذا، فليس هنالك أي سبب مسوغ لذلك».

- «إنه تماماً كلعبة من ألعاب الورق»، قال إيفارت، «يوجد فيها الحظ، وهذا هو الأمر كله».

- «بالطبع»، قال ستارنبرغ مصدقاً على كلامه بعد تفكير عميق. «أعتقد أن أكثر الرجال هنا يملكون سبباً من الأسباب يسوغ رغبتهم في البقاء على قيد الحياة، فقد رأيت عدداً منهم يكتبون رسائل لأسرهم وأصدقائهم، رسائل يزمعون إرسالها بالبريد، على حد قولهم، حالما يتسنى لهم ذلك. ليس بوسع المرء أن يتمتع بقدر أكبر من الثقة والإيمان في موقف كهذا، وخاصة من مثل هذه الأرض الفلاة الموحشة التي تخلى عنها الله من العالم».

- «هل تتساءل في عجب مثلي عما يكتبون»؟.

- «ربما يطمئنون عن عودتهم عما قريب، وأن معاملتهم ليست سيئة».

- «لا أستطيع مشاركتهم مثل هذا التفاؤل»، قال إيفارت.

- «ولكنك تستطيع مشاركتهم الأمل»، قال ستارنبرغ، «والأمل هو الذي يهمنا ويعنينا الآن وليس صحة العقل وسلامته».

- «هل كتبت رسائلك أنت»؟

- غض ستارنبرغ طرفه إلى الأرض مكتئباً، وكأنه لم يسمع السؤال، حوّل إيفارت نظره بعيداً عنه، فشاهد أرمغاردسن يرفع القطة الصغيرة السوداء لكي يلاعبها ويمسّد فراءها، وعندما قفزت من بين ذراعيه وانصرفت عنه ببطء متسلقة جدار مؤخرة الحظيرة، أقعى وهو يناديها بالعودة، ولكن القطة أخذت تقيس بدقة كاملة المسافة التي تفصلها عن قضبان النافذة، ثم قفزت إلى الإفريز في الأعلى حيث اتجهت نحوهم وراحت تحدج الكل بنظراتها، تتحداهم على مطاردتها. تقدم آرمغاردسن بضع خطوات نحوها، وعندما شعر أنها ستقفز إلى الخارج، تناول قطعة خشب وألقاها بكل ما أوتي من قوة على النافذة. وقعت القطة على العشب فاقدة الإحساس، كما أحدثت قطعة الخشب صوتاً رناناً عندما ارتطمت بالحديد. إرتفعت الأصوات تطالبه أن يتركها وشأنها.

قال إيفارت كأنه يحدث نفسه: «أشك أنه فاقد العقل. لقد ضرب القطة بقطعة خشب».

- «أوه، لم أر شيئاً. لقد كنت أفكر بسؤالك. إنك على حق. لم أكتب رسائلي، وكنت أتساءل في عجب لماذا لم أكتبها. ولكنني لا أعرف لماذا، على الرغم من ثقتي الكاملة بأنني أملك من الأمل في الخروج من هذا المكان قدر ما يملكه أي شخص آخر. لم أفكر حتى في كتابة رسالة. لم يخطر لي ذلك بكل بساطة. كل ما كتبته هو بعض الملاحظات المتعلقة بسجننا في هذه الحظيرة، ولا شيء سوى ذلك».

– «هل ستكتب أية رسالة»؟

– «لا أظن ذلك، في الوقت الحاضر على الأقل».

– «ولم لا»؟

– «ربما لأنني أملك من الأمل أكثر مما أملك من التفاؤل. ربما كان أمل الحياة وحده هو الذي يراودني في هذه اللحظة، أما عندما يعود لي حق الحياة ثانية فأستطع أن أقول: «إنني متفائل».

– جعل إيفارت يطوي أكمام قميصه للأعلى، ثم تناول منشفة من حقيبته. بعد ذلك، وكأنه نسي اعتزامه حلاقة ذقنه، اتكأ على رزمة القش مفكراً بعدم وجود سبب يسوغ الأمل، وأن تنفيذ الإعدام، كما هو معروف للجميع، محدد في صباح اليوم التالي، على الرغم من أن الجميع كانوا يفترضون أن الإعدامات لن تنفذ، وإن لم يكن لديهم أي سند لهذا الافتراض. هل كان هذا الافتراض الجماعي أمارة لا يمكن إدراكها لما سيحدث؟ ما الذي جعل غالبيتهم العظمى، بعد أن صدر حكم الموت العلني بحقهم، لا يشغلون تفكيرهم به من قريب أو بعيد، ويتابعون حياتهم وهم على قناعة كاملة بأنهم سيقضون هذه المحنة كأسرى؟ ولكن هذه هي تصوراته وأوهامه وحده، قال في نفسه. ربما كنت أنا ذلك المجنون، أستحضر من عالم الخيال ذلك الشعور الباطني وأحوله إلى نبؤة خير بينما ليس لهذا الشعور من وجود. الحقيقة إنه لا يوجد الآن ما يدعو للأمل أكثر مما كان يوجد عندما رجعت إليهم من التحقيق أول مرة وأبلغتهم ما قاله الجنرال. ولكنه مع ذلك كان يرى الأمل يعمر قلوبهم بكل وضوح، وأنهم سعيدون به على ما يبدو. لقد تأكد له أيضاً وجود الأمل في داخله، وأن جرثومته ربما جاءته بالعدوى من الآخرين، فأصيب بالدهش من تقنية انتقال المرض دون أي تطفل. لم يكن الصخب من حوله صخباً صادراً عن رجال محكومين بالموت: كان صخب أسرى لهم

أملهم في التحرر، ولهم توقعهم الكبير العام بوقوع أحداث وشيكة في صالحهم. لقد خُيِّل إليه أن جرثومة الأمل كانت تأتيهم على متن دندنات الريح الخفيفة، وتحيا في أحضان ضجة العمل الصادرة عن القرية والبيت المقابل، والصادرة عن رجع الضجيج في التلال. إنه قوة حية لا أساس أو قوام لها، حتى تسمعها في سكون الليل البهيم وتراها في النور الخافت للمصابيح التي تضاء في المساء، وفي الظلال التي ترسمها على الجدران.

أخرج ستارنبرغ دفتر التمارين الذي استخدمه لتدوين ملاحظاته، لم يكن يرغب، في عصر هذا النهار، لأنه وقت العصر ربما، في فتحه، ومع ذلك فإنه قبل أن يستطيع إيجاد أي مسوغ للتأخير كتب فيه: لم يبق إلا نزر يسير من المعنويات عندنا. «المتران» وحده يمشي بهامته مثل حيوان يشم رائحة الحرية على مقربة منه، ولكن ما هو شكل هذه الحرية؟

توقف عن الكتابة بعد ذلك. لقد مر يومان على إحياء الحفل الموسيقي. لم يكن الاستيقاظ من النوم في ذلك الصباح أمراً يبعث السرور في النفس. لقد تقبل أكثر أفراد الفرقة الحقيقة القائلة بأنهم لن يقتلوا، ولكن النفر القليل منهم الذين كانوا يخشون وقوع ذلك حافظوا على هدوئهم ولم يقولوا شيئاً. وما أن أحسّ جفناً ستارنبرغ بضوء النهار حتى فتحهما لكي تبقيا على هذه الحال فجر ذلك الصباح كله، كما أحس أن الآخرين، الذين كانوا يشكون في أمر الإعدام، يفتحون عيونهم أيضاً. لقد خطر له أنه إذا كان سيموت ولابد، فإنه يريد أن ينتشر الضوء بصورة بطيئة، ولكنه كان يريد أيضاً أن يكون على ثقة من أن الحياة سوف تستمر. كان هذا الموقف لغزاً محيراً فرض على حواسه ضريبة مضاعفة مئة ضعف، وكان لغزاً مقيتاً عليه، لأنه سيطر عليه سيطرة كاملة خلال عدة دقائق حتى شعر وكأنه دمية متحركة تملك من

الإحساس ما يكفي فقط لمعرفة أنها سوف تدفع إلى الحركة دون معرفة باتجاه حركتها. ولكن ضوء النهار غزا الحظيرة، وأخذ عقرب ساعته يتحرك ببطء، والخاطرة الوحيدة التي خطرت في ذهنه بعد مرور الفجر كانت شعوره بالخيبة لأن الشمس لم تظهر.

بعد الفطور، التأم شمل مدرسة لعب الورق العتيدة حول أكبر الطاولات، فتشكلت حلقة من الأيدي الممدودة المتوازنة والرؤوس المحنية يلعبون الورق ولفافات التبغ مادة الرهان بينهم. بقيت الأبواب مفتوحة طوال الصباح، ولكن ستارنبرغ كان يتمنى لسبب من الأسباب أن تبقى مغلقة، ذلك لأنها وهي مفتوحة لم تترك حاجزاً بينهم وبين المطر المدرار الذي ينصب على الأرض، يشكل برك الماء ويملأ المزاريب، كما يولّد رطوبة في الجو كانت توحي بتعفن وتحلل الرّمم العديدة نصف المدفونة المبعثرة في أرجاء السهل.

وفي نياصيب اللفافات صارت كل قسيمة من القسائم المزدوجة حالة مثيرة للصخب والدهشة وهي تكوّر على شكل كرة صغيرة وتدحرج كرأس الإنسان داخل حقيبة بندر. سُحِب أحد هذه الرؤوس خارج الحقيبة لكي يواصل حياته، وكان ستارنبرغ هو الذي سحبه باعتباره واحداً من غير المدخنين. كان الرأس المسحوب هو قسيمة إيفارت، فعادت على صاحبها بمئة لفافة تبغ. طفق الجميع في الضحك لحسن طالعه وهو يوزع اللفافات من حوله، ثم عّبروا عن شكهم بحيلة لعبها ستارنبرغ دون أدنى ريب، حيلة تدبير جائزة لإيفارت تُمكّن ستارنبرغ من احتلال مركزه كقائد للفرقة الموسيقية بعد أن يغرق في التدخين إلى حد الموت.

– «القطة السوداء هي التي عادت عليه بالجائزة»، قال إيفارت، «وليست حيلة ستارنبرغ، لأن القطة السوداء بقيت معهم معظم ساعات

ذلك الصباح». لم يعرف إلا نفر قليل من أفراد الفرقة كيف وقع ما وقع: فلقد شاهد إيفارت أرمغاردسن واقفاً والقطة في يديه إلى جانب النافذة المشبوكة بالقضبان، فاشتم إيفارت من حركة أنامله المتواصلة المنتظمة وهي تنتقل لا شعورياً فوق فراء القطة الناعم، ومن نظرته الساهمة الطويلة نحو ركن فارغ في الحظيرة، رائحة الشرّ بصورة من الصور. ومع ذلك فإن تصرفات الرجال التافهة في مثل هذا الموقف قد تعطي الانطباع نفسه، الأمر الذي جعل إيفارت لا يشغل باله كثيراً في ذلك وبعد هنيهة انطلقت في كل أرجاء الحظيرة بغتة صرخة خاطفة تثقب الآذان صرختها القطة، وانطلق في الوقت نفسه تقريباً صوت ضربة قاتلة أودت بحياتها. راح أرمغاردسن ينظر إلى القطة الميتة التي كان يحملها.

فعلة أرمغاردسن هذه روعت الجميع، لأن القطة كانت قد احتلت مقام صديق محبوب أثير على قلوبهم، تقتات على فتات طعامهم الذي يتركونه بعد كل وجبة. لماذا قتلها؟ تساءل إيفارت متعجباً. لم تكن القطة غير أليفة، بل كانت الصديق الأوحد الذي صاحبوه منذ وقوعهم في الأسر. قال الذين يؤمنون بالخرافات بينهم: إن أرمغاردسن قد قضى بقتله القطة على أي سعد يمكن أن يصيبهم. هدد رجلان بضربه ولكنه ما أن وقف لمواجهتهما بقبضتيه المشرعتين حتى دب فيهما الخوف فتركاه وشأنه. قذف بالقطة الصغيرة مدى استطاعته خارج النافذة، وجعل بعد ذلك يعود إلى النافذة من حين إلى حين ليلقي النظر عليها، كي يتأكد من أنها لم تعد للحياة بأعجوبة أو لم تفر بعيداً. الجميع قالوا: إنه معتوه.

لم يعد أي منهم يتنبأ، وهم في موقف المغلوبين على أمرهم، والمتعبين، والذين قتلهم الضجر من قلة النشاط والحركة، بما سيحدث لهم، كما أن الرسائل التي كتبوها ولم يكملوها قبعت مهملة في وسادات نومهم أو في جيوبهم. وبدأت الكتب التي أحضروها معهم، من جراء

تداولها السريع بين أيديهم، تهترىء وتتمزق، مما جعل ستارنبرغ يتساءل في عجب عما سيفعلونه عندما تنفد كتب المطالعة أو لفافات التبغ، أو ورق اللعب. لعل عملهم سيقتصر على الانصراف للنوم، أو لعل من الأرجح أن يجدوا شيئاً آخر يفعلونه، هذا ما دار في خلده وهو يفكر. كان كغيره من الناس يبغض كل البغض حالة الانتظار والشك. راح يحدث نفسه قائلاً: ليتهم يطلعوننا بطريقة أو بأخرى عما إذا كانوا سيقتلوننا، أو أننا سنبقى كأسرى، أو سيفرجون عنا ويطلقون سراحنا خارج فلك هذا الأسر الموهن المشوش.

بدأ قصف المدافع عند منتصف النهار. ما أن توقفت المدافع في الشمال حتى بدأت في الوسط، وبعد دقائق معدودة من سكوتها في الوسط أخذت تستعر في الجنوب، وكل موجة من موجات القصف كانت تستغرق إحدى عشرة دقيقة دون زيادة أو نقصان، مثل ضربات سوط فاترة تمشط الروابي، أو مثل دمدمة غضب الجنرال، وهو على حيرة من أمره إزاء ما سيفعله بالفرقة الموسيقية. لقد تم ابتكار طريقة جديدة في التعذيب: فقد كانت المدافع، فيما سبق، كلها منشورة في مواضع بين القرية وخط الجبهة، أما الآن فقد بدأت أعداد غفيرة من قطع المدفعية العملاقة تقصف من المؤخرة، حتى راحت القنابل والصواريخ تشق عنان السماء فوق رؤوسهم في فترات غير محددة. سار ستارنبرغ إلى النافذة كي يستنشق شيئاً من الهواء العليل، لأن الهواء داخل الحظيرة كان سقيماً وثقيلاً. كان جسد القطة الصغيرة مسجّىً فوق الأعشاب وقطرات الماء تبلل فراءه وتمسده، فأزعجه ذلك المنظر كثيراً، لأنه برغم محاولاته الكثيرة لتجنبه، كانت عيناه دائماً تسوقانه إليه. كان يتمنى لو أن آرمغاردسن لم يجن ويفقد رشده.

دخل كوندال الحظيرة بعد الظهيرة وطلب لائحة بأسماء العازفين في الفرقة. وقال: إنها من أجل سجلاته. أخبره إيفارت بجفاء عدم وجود

لائحة لأسماء، غير أن كوندال أكد بكل حزم أنه يريد اللائحة، على الفور، وتحركت عيناه حركة خطيرة مخيفة عندما قال له إيفارت: إنه لن يقدم لائحة للجنرال نفسه. تدافع الآخرون وأحاطوا بكوندال، غير مدركين، بعد تجربتهم الأولى معه عند القطار، بأنه يمكن أن يصاب دائماً بمرض رهاب الاحتجاز بسبب ما توصل إليه من الاعتياد على اللجوء بكل سهولة للأسلحة النارية في مثل هذا الموقف. أخرج مسدساً وأشرعه نحوهم، وهو يصيح فيهم أن يبتعدوا عنه ويكفوا عن الصخب والضوضاء. طلب لائحة الأسماء مرة ثانية، ولكن إيفارت رفض إعطاءه اللائحة. صوب كوندال المسدس إلى وجهه مباشرة وهو يقول بتكشيرة لطيفة: أعطني اللائحة، وإلا سأقتلك.

عندما صمد إيفارت للموقف دون كلام، احتار كوندال فيما يفعل، لأنه كان على علم كامل بأن الجنرال، وبسبب لم يكن يفهمه، يعتبر هؤلاء الأسرى شيئاً مقدساً ولا يجوز التعامل معهم بعنف. غير أن آفاق فهم وجلد النقيب كوندال كانت ضيقة. تقدم نحو ستارنبرغ وسأله: «هل أنت قائد هذه الفرقة»؟ رد ستارنبرغ بالإيجاب. «إذاً أعطني لائحة، وإذا لم يكن لديك لائحة جاهزة، اكتب لي واحدة».

لم يكن الموضوع يحتاج إلى اتخاذ قرار، فتح ستارنبرغ حقيبته وأخرج منها ورقة برنامج قديمة طبعت عليها لائحة بأسماء العازفين، وشطب منها إسمي عازفي الكمان اللذين لقيا حتفهما في محاولة الفرار، وأسماء أولئك الثلاثة الذين قفزوا من القطار قبل وقوعهم في الأسر ولاذوا بالفرار.

مر صباح آخر. لم يزعج ستارنبرغ نفسه في مراقبة مروره، ولكنه أحس بذلك وعيناه مغمضتان، ضارباً عرض الحائط بكل النداءات الداخلية التي كانت تحضه على النهوض والمضي إلى النافذة، في سبيل

النظر من بين القضبان إلى الخارج والإصغاء لكل صوت يند، واستنشاق عبير الندى والحشائش والتأكد مما إذا كانت القطة لا تزال هناك. لم يسمعوا شيئاً فظل كل منهم رهين وساوس اليوم السابق. لقد كفوا عن آمالهم وابتهالاتهم. لم يخطر لهم حتى هذه اللحظة بأنهم سيقتلون بأية حال: وكل ما في الأمر أن الأمل أوقع التوتر والانفعال في نفوسهم، فوجدوا أن مما يخفف إرهاقهم أن يتابعوا معيشتهم من يوم إلى يوم، في فراغ كامل، لا في أمل ولا في يأس، بل في إدراك خدر بأنهم أسرى.

كان آرمغاردسن متجهماً نكد المزاج، وكان إيفارت كثير الكلام، وكان ستارنبرغ مرهقاً متعباً. لم تسكت القذائف عن الدوي والانفجار في التلال دقيقة واحدة من دقائق الليلة الظلماء الطافحة بالأمطار. كانت الغيوم تغدو وتروح، تصب المطر البارد على كل بوصة من الأرض. كانت أبواب الحظيرة تفتح وتغلق دون أن يسترعي ذلك انتباه أحد تقريباً. وفي لعبة الورق تم توزيع عملة لفافات التبغ المنتفخة والتي تعرضت لخطر التفسخ والفساد من خلال فرط التداول فيما بينهم وتم تدخينها.

لم ينم أحد بعد ظهر ذلك اليوم، بعد أن فقد الجميع الثقة بقوة الرقاد العلاجية. ترك الذين تمددوا على الأرض عيونهم مفتوحة، والتحف بعضهم المعاطف لأن الطقس لم يعد دافئاً، بينما جلس الآخرون بأكمام مرفوعة إلى الأعلى غير آبهين بالبرد. وفوق مائدة اللعب تصاعد دخان التبغ مع اللجب الصادر عن الجدال، واستمرت اللعبة تحت نور الفوانيس المضاءة لأن إشارات ورق اللعب الحمراء والسوداء لم تعد تميز بصورة واضحة. سمع ستارنبرغ صفحة كتاب تقلب، وبعد أن لاحظ ذلك بعينه، عاد إلى وعيه وإدراكه بالمدافع، وهي تخرج بالقوة عن حلم يقظة عقيم مرده لغتهم غير المترابطة. شاهد آرمغاردسن على النافذة مرة أخرى، ورأسه مضغوط على القضبان، وعيناه ترصدان الغيوم الداكنة فوق التلال. ومن خلال الأحاديث المتبادلة، سمع صوت رجل آخر كان

يناقش أفضل الطرق لطبخ عجة البيض، وسمع أصواتاً أخرى تناقش أدب النساء وأخلاقها. لابد أن لعبة الورق بلغت مرحلة الذروة، فاللاعبون جميعاً لاذوا بالسكينة والتركيز، ينتظرون آخر الأوراق.

قال إينارت: إنه لم يعد يرى مزيداً من الأمل في وجه ستارنبرغ، فرد عليه ستارنبرغ بأن وجهه ربما كان على درجة كبيرة من الإرهاق بحيث لا يفصح عن الأمل، ولكن الأمل موجود لديه على سابق عهده ولم يتغير. أقنع هذا الرد إيفارت فسكت عن الكلام برهة من الزمان. لاحظ ستارنبرغ أن كثيرين من الرجال كانوا يجلسون وقد مدوا سيقانهم بصورة تشكل زوايا قائمة مع أبدانهم، فبدا له ذلك علامة صارخة من علامات اليأس الذي حاول جهده عدم الوقوع فيه شخصياً، ومحاولته هذه جعلته يبتسم لأنه كان يعلم بأنه يميل إلى اتخاذ تلك الوضعية. كان إيفارت يجلس بتلك الوضعية، غير أن ظلال اليأس الذي ينطبع عنه كان خفيفاً لأنه كان يدخن لفافة، ولأنه كان يبتسم من حين إلى حين. «لو حكمنا على الأمور من خلال دوي المدافع يتبدى لنا أن الجنرال يوشك على شن هجوم آخر»، قال إيفارت لستارنبرغ.

– «ربما، لا أستطيع أن أعطي رأياً. لم أعش على مقربة من رحى الحرب سابقاً».

– «ولا أنا. إنه مجرد تخمين». جعلته برودة الجو يرتعش، فأخذ يزرر سترته. «ولكنني أتمنى لو كنا بعيدين عن صخبها ولجبها. إنني على استعداد دائم للنوم بحلول الساعة التاسعة مساءً، وكأنني أرهقت نفسي بعمل نهار كامل، ولكن السبب الحقيقي هو أن المدافع لا تنفك تفتّ من عضدي وقدراتي أغلب ساعات النهار، وعلى الرغم من أنني أتظاهر بعدم سماعها معظم الوقت».

- «سوف تتمكن من التأقلم معها بعد فترة من الزمان». قال ستارنبرغ، «مثل موسيقا الراديو التي تؤثر عدم الاستماع إليها، فتتجاهلها حواسك بكل بساطة».

- «إن دوي المدافع شأن آخر. إن حواسي لا تريد سماعه دون شك، ولكنه ينفذ إلى مراكز الحواس وينسفها، ودوي المدافع يحمل في ثناياه معانيَ كثيرة جداً بحيث لا يمكن تجاهلها وإغفالها، وربما يحمل في كل مرة معنى جديداً. تتملكني الرغبة في الوقوف تجاه بعض أصوات المدافع والصياح بكلمة قف، أما تجاه بعضها الآخر فإنني أقتنع تماماً في الاستماع إليها دون أية انفعالات، ثم هناك أحيان أثني بها عليها وأقول: لا بأس، لا بأس، ذلك مدهش. تابعوا القصف والتدمير والتهشيم، بعد انفجار كل قذيفة».

- «سألوذ بالأمل والابتهال»، رد إيفارت مكشراً مستهزئاً، «بطريقة لم يراودني الأمل بمثلها من ذي قبل. إنني في أقل الدرجات سأعرف على الفور فيما إذا كانت آمالي تتحقق أو لا تتحقق».

- «لم يزل رأيي أنني أفضل الخلاص من هذا الجحيم كله».

- «وأنا أفضل ذلك أيضاً. المدافع تولد الوساوس. إنني في أغلب الأحيان أتساءل في عجب كيف سيكون الحال عندما لا تستمر المدافع في إطلاق نيرانها على هذا النحو. سيكون من غير المألوف أن لا يسمع المرء دوي المدافع. وذلك الوضع يجعلني أفكر بشتى أنواع الأصوات التي سمعتها في حياتي، وأتساءل عن آخر صوت سأسمعه عندما يحضرني الموت. هل سيكون صوتاً عذباً مبهجاً؟ إن في الاستغراق بالتأمل والتفكير طرافة وتسلية للمرء».

- تابع ستارنبرغ الحديث وقال: «أحب أن أعرف لماذا جاء

الضابط يطلب أسماءنا البارحة. إن مثل هذا الإجراء الرسمي يرعبني».

- «ليس لذلك الإجراء من قيمة. لقد كان عليه أن يسجل اللائحة بعد وقوعنا في الأسر مباشرة، ولكنه لم يتذكر ذلك حتى الأمس».

- «لماذا رفضت إعطاءها له؟ كان ذلك أشد الأمور إثارة للأعصاب في الموقف. خطر لي أنك كنت تحاول الانتحار».

- «لم يرق لي أسلوبه». رد إيفارت، وهو يعدل وضعية ساقيه لكي يستطيع سحبهما بصورة مريحة نحو بطنه. «لقد أثار منظره حنقي وما أولئك الناس الذين أسرونا إلا مثل فعل الإثم الذي يصيبه المرء في الحلم. هذه صيغة مبتذلة من صيغ الكلام، ولكن الصيغ المبتذلة صادقة أحياناً إلى درجة تضطرك لاستخدامها. إن الغورشيك يجتاحون الدنيا بهمجيتهم، وقد بدأت أدرك في الأيام الأخيرة أنهم يشبهون شيئاً مستتراً في تكويني، وهو شيء هادئ ومريح برغم ذلك، وشيء قلما أجد ضرورة لمحاربته. أما إذا توقف عن هدوئه، فإنني سأحاربه، لأنني إذا لم أفعل ذلك، سأصبح واحداً من هؤلاء الهمج الرعاع. سوف أحاربه بنفس الطريقة التي أظن أنه كان علينا أن نحارب الغورشيك بها منذ جاؤوا لمحاربتنا، أو منذ ذهبنا نحن لمحاربتهم».

- «ولكن قومنا مازالوا يحاربونهم»، قال ستارنبرغ مذكراً.

- «ليس نحن من يحاربهم». رد إيفارت.

- «إننا نفعل كل ما بوسعنا عن طريق الانتظار هنا بكل مرارة الصبر. ونحن بأية حال من الأحوال لا نملك القدرة على محاربتهم. وليس باستطاعتنا أن نحارب حتى لو كنا أحراراً طلقاء. فنحن لسنا جنوداً متمرسين».

- «أعرف ذلك»، قال إيفارت بخشونة. «إننا في وضع صعب من

أي زاوية تنظر إليه. لم يكن بوسعنا، حتى ولو كنا على الجانب الآخر من هذه الجبال، أن نحارب، مهما فكرنا بضرورة ذلك. القتال يجب أن يترك للآخرين، وإذا ما تمكن الآخرون هؤلاء من إحراز النصر فهم الذين سيوزعون الحرية بالحصة علينا. كل ما نستطيع الابتهال به هو أن يمنوا بنزرٍ يسير منها يربو على ما يمكن الحصول عليه لو تغلب هؤلاء الهمج علينا. لقد وصلنا إلى هاوية نرجو أن يسود فيها الحد الأدنى من الشر والبهتان، وهي أقصى ما يستطيع رجاءه أي فنان أو مطرب عندما تدور رحى الحرب. المشكلة الوحيدة الآن تتمثل في صعوبة معرفة الحد الأدنى من الشر. إن حكومتنا تعاملنا على درجة كبيرة من الشر والرداءة بحيث أننا نظن على الفور بأن الجانب الآخر سيعاملنا بصورة أفضل. وحتى في هذه اللحظة، من ذا الذي يعرف بأن الغورشيك لن يعاملونا كذلك؟ ربما يقتلون الأسرى، ولكن ميسمهم الخاص في المكر يترعرع ويتأنق. إن السبب الوحيد الذي يضطرنا لمحاربتهم هو أن مبدأهم مختلف كل الاختلاف عن مبادئنا بحيث لا نستطيع ممارسته بأية صورة من الصور. إن من حسن حظنا أن عندنا مبادئنا الخاصة التي نرغب في القتال من أجلها، ولكننا لا نملك الطاقة أو القوة الباطنية الأصيلة للقتال في سبيلها. الحقيقة الأكيدة هي أننا لا نريد حتى الدفاع عن هذه الحريات التي لابد لنا من الحصول عليها، ولكننا نريد من الآخرين جنرالات وأنفار، القتال في سبيلها والحفاظ عليها من أجلنا، وهذا ما ينطوي على طلب الكثير الكثير. إذا خسروا الحرب وتم تجريدنا من هذه الحرية سننحو باللائمة عليهم، وإذا كسبوا معركة ولم يمنّوا علينا بنصيبنا من الحرية، سنظل نلقي باللائمة عليهم. ماذا بوسعنا أن نفعل إذاً»؟ كان الآخرون يصغون إليه، أما هو فلم يلاحظ شيئاً. «ربما لا نستطيع أن نفعل الكثير»، أجاب إيفارت عن سؤاله. «إن المجال الوهمي الوحيد المفتوح أمامنا هو شن حرب أشد ضراوة ضد حكومتنا من حربنا ضد

الغورشيك. إننا ثوريون في خيالنا، وينبغي أن نصبح ثوريين على أرض الواقع. علينا أن نقاتل كل من يريد استعبادنا، علينا أن نعمل الآن، وبعد ذلك نتوجه لبناء صرح حكومتنا». لقد كانت النيران تضطرم داخل ذهنه فأخذ يتساءل: «لماذا لم أكتشف ذلك إلا في هذه اللحظة، وبعد فوات الأوان»؟

- «لعل الأوان لم يفت». قال ستارنبرغ مذكراً.

- لم يستطع إيفارت الانصراف إلى المطالعة مرة أخرى. أخذ يتساءل كما يتساءل أي شخص آخر بدرجات متفاوتة من الوعي عما سيحدث في المستقبل. لم تمر به في عمره كله مرحلة كهذه المرحلة، مرحلة لا وجود فيها للمستقبل من قريب أو بعيد. كان الزمن في هذه المرحلة يمر ببطء لا يطاق بحيث أنهم كانوا مضطرين للعيش لساعتهم الحاضرة، وكان إيفارت يفترض أن هذه التجربة، إذا سلموا أحياء منها، ستجعل كل واحد منهم فيلسوفاً وتدفعه إلى التأمل بمستقبل لا يستطيع رؤيته ولا يستطيع فهمه، ولا يأمل أساساً في توقعه، وتشغله بتأمل فكري لا ينتهي. إن المرء الذي ليس متأكداً تماماً من موته أو عدمه يحافظ بهذه الطريقة على عقله ورشده، عن طريق تلمس ما يعتمل في داخله من أفكار وهو ينتظر اكتشاف الحقيقة. كان إيفارت يتصور أن هذا الكسل واللامبالاة سيرحلان عنهم إذا ما حضر الجرال وطلب منهم أداء سيمفونية أخرى. غير أنه لم يكن هنالك أي مؤشر على القيام بذلك. كانت الضوضاء المعهودة تحيط بمنزله عبر الطريق: من حركة المرور العارضة، إلى صراخ الجنود وضوضاء غُدوِّهم ورُواحهم. لقد صور إيفارت هذه الأشياء تصويراً دقيقاً جداً وكأن أبواب الحظيرة مفتوحة أمام ناظريه. وعلى غرار ذلك تماماً، أخذ يصور أفكاره الخاصة بكل وضوح وجلاء وكأن الغطاء الذي يحجبها قد انزاح هو الآخر عن مخيلته.

ألح عليه في نهاية الأمر السؤال المؤلف من شقين: ماذا سيحدث؟ ومتى سيحدث؟

لم يكن أحد من الرجال يجلس على مائدة لعب الورق. ولم يكن أحد يتكلم إلا لماماً، كما أن عدداً قليلاً من الرجال كانوا ساهرين. إقترح إيفارت أن ينهض أحدهم ويضيء المصابيح. ولكن مهما حدث من أمور، طفق يفكر في نفسه، فإنني أشعر شعوراً قوياً بأننا سنعرف مجرى الأحداث جميعاً عما قريب.

ثمة شخص واحد بين الجميع لم يكن مستلقياً على الأرض. كان يقف على النافذة شاخصاً بنظره إلى الخارج عبر القضبان. وكانت الظلال كثيفة جداً بحيث لم يستطع أحد تبين شخصية الواقف.

نهض إيفارت على قدميه لإضاءة المصابيح.

الفصل الثاني عشر

قبالة شرفة منزل الجنرال، كان يوجد شارع خرب، مستقيم، قذر، كالح ومنفر، ومرتع للأشباح والقطط الجائعة. وكانت هياكل قاتمة من جذوع الأشجار المكسرة والتي نزع لحاؤها عنها تربط بين جدار وآخر، كأنه خطر لجانبي الشارع كليهما أن يتصافحا في ساعة المأساة والوبال الأعظم. وكانت أقبية البيوت، التي تهدمت أسطحتها وصارت مكشوفة لنجوم الليل ومليئة بالدبش والحجارة المكسرة، خارج مجال نور المصباح الذي يسطع فوق مائدة الجنرال، على الرغم من أن هذا الشارع كان مرتبطاً بغيره من الطرق العامة الماثلة في مخيلة الجنرال.

مدد الجنرال ساقيه تحت الطاولة المصنوعة من أماليد الشجر وصب دفعة أخرى من الشراب. كانت الليلة دافئة غير مقمرة تعج بعدد وافر من النجوم، كما بسطت إحدى أشجار الحديقة قسماً كبيراً من أغصانها على السلم وعلى درابزين الشرفة. جرع ما في الكأس من شراب، وأحس بالسائل الأربد الحارق ينزل إلى جوفه، فصب دفعة أخرى منه. المعجزة الكبرى، قال يحدث نفسه متفكراً، إن هذا المنزل

وتلك الشجرة لم يحترقا أو يصابا بأي مكروه بفعل القذائف، ولكن معجزة أخرى تخلصني من أزمة الفرقة الموسيقية يستحيل أن تحدث.لاحت له بارقات أمل عن هجوم مضاد للعدو، وعن نشوء موقف مثير وخطير من شأنه أن يغطي هذه المعضلة ويقبرها، ولكن القيادة العامة، حتى في هذه الحال، لن تتساهم على الإطلاق، وسوف تكرر مطالبتها، بعد احتوائه للهجوم المعاكس وإبادته، لمعرفة أسباب عدم قتلهم. لقد تبين له بصورة واضحة أن الحل مناط به وحده وليس بأحد سواه، وأنه إنما تُرك وحيداً يصارع وحشاً ضارياً في الظلام يأبى الإجهاز عليه ويأبى تركه وشأنه يعيش.

أشعل لفافته بعود ثقاب. راحت شعلة الثقاب المتذبذبة تتماوج لحظة، فطغت على نور الكهرباء الضعيفة، وكشفت لون بزته الرمادي، وتألقَ أزراره، والتماع طماقي ساقيه. أطفأ عود الثقاب وألقى بقاياه المتفحمة في المنفضة، تاركاً وجهه في ظل نور الكهرباء. خُيِّل له أن المدافع كانت تصب حممها على ضميره كي يستسلم ويرضخ، غير أن ومضاتها كانت تضيء له أيضاً حالته الذهنية بعد الاستسلام، ففرضت عليه هذه الرؤية الغريبة إطالة أمد المعركة الدائرة في ذهنه. وعن طريق إطالة المعركة اكتشف أن العقل إنما كان يشبه تماماً صندوق ألعاب الساحر: إما أن تتعلم طريقة التحكم بشتى أبوابها، عن طريق الشعوذة، والمراوغة، والتحايل، وقدرٍ معقول من الإطلاع، وإمّا أنها تتلاعب بك وتؤثر عليك، عن طريق عقارب الساعة، وضربات المطرقة، والمصائد المفخخة. وفي الحالة الثانية تفقد رشدك.

سيكون من الأسهل أن أقتل نفسي، راح يفكر متجهماً، وعندها أتخلص من المشكلة كلها، ولكن ما هو السبب الذي يدفعني إلى الانتحار في حين أرفض المجازفة بحياتي في محاولة إنقاذهم؟ السبب لأنني لن أنجح، ولأن الانتحار ينطوي على كثير من الشهامة والنبل. لقد كان

الجواب بارعاً وماكراً، ولذلك لم يركن إليه، الأمر الذي سبب له مزيداً من الألم والأوجاع، ووصل به تفكيره ونقاشه إلى حقيقة واقعية أنانية النزعة وهي أنه لن يضحي بحياته من أجل إنقاذهم لأنه كان يرى في نفسه شخصاً أكثر نفعاً وقيمة بالنسبة للشعب الغورشيكي من نفع وقيمة فرقة موسيقية بالنسبة للعالم.

صفق الجنرال بيده، وانسل لسان من النور عبر الشرفة راسماً علامة تدل على دخول الخادم.

- «زجاجة أخرى».

- «حاضر، سيدي».

كانت برقية ثالثة قد وردت إلى مكتبه من القيادة العليا تطالبه برد فوري عن أسئلتها المتعلقة بالفرقة الموسيقية. عندما فكر في البرقية، وشاهد للمرة الثانية الحروف الكبيرة المطبوعة التي لا تحمل أية صفة مميزة، شأنها في ذلك شأن المرسل الذي كتبها، أخذ يرتعش وهو يتساءل في نفسه عما يمكن أن تفسّر به مماطلته في تنفيذ الإعدام. بقي لسان النور مرتسماً على الشرفة، فأقبل الخادم من خلاله، ووضع زجاجة على المائدة، ووقف ينتظر أوامر أخرى من الجنرال.

- «أستطيع صبّ الشراب بمفردي».

انسحب الهيكل، فامّحى لسان النور مع انسحابه. طرد صوت الشراب المتصبب وهو يملأ الكأس كل الأفكار من ذهن الجنرال، ولكنه ما أن لامس الشراب شفتيه حتى عادت الأفكار إليه، تفرض عليه السؤال: لماذا لا أريد قتلهم؟

- ولكنه سؤال لم يستطع الإجابة عنه فوراً، وسؤال طوى كشحه عنه وابتعد مسافات طويلة كأنما هو قضيب من الفولاذ المحترق. وإذاً،

لماذا يجب قتلهم؟ لأن القيادة العليا ترغب ذلك. حاول أن يفكر ملياً بضع دقائق قبل الإجابة، غير أن الإجابة داهمته بصورة دقيقة وآلية مما جعله غير قادر على الاستفادة من اللجوء إلى مثل هذه الوسائل. أليس ثمة طريقة أستطيع إنقاذهم بواسطتها؟ هذه المرة داهمه السؤال بعد الجواب، حاملاً النتيجة نفسها. ليس ثمة مسوّغ للإبقاء على حياتهم بنظر القيادة العامة. ثم استعرض في ذهنه حجج القيادة كلها وقال في نفسه: لأنهم ليس لهم أية قيمة، ولا يستطيعون القيام بأي عمل يساهم في الحرب، ولن يرفعوا من معنويات الضباط إذا ما سمح لهم بإحياء الحفلات الموسيقية في الحظيرة، وسوف يبرهنون على عدم جدواهم وفائدتهم إذا ما كلفوا بترميم الطريق أو حفر الحقول، خاصة وأننا نملك كل ما نحتاجه من القوة العاملة، برأي القيادة العليا.

هبَّ واقفاً، وبعد أن ترك قبعته في مكان جلوسه، هبط سلم الشرفة، ولعله خطر بباله وهو يجتاز الشارع، أنه ترك المنزل هروباً من مقابلة كوندال الذي يتوقع وصوله إلى البيت خلال ساعة من الزمن لتذكيره بقراره في الإجهاز على الفرقة الموسيقية تلك الليلة. منع نفسه عن الصراخ. كيف أستطيع العيش بعد قتلهم؟ سأكون مجرد رجل يطيع أمراً، ولكن ضميري لن يرحمني، لأنني أعتقد أنه مازال بمقدوري إنقاذهم بطريقة من الطرق. لا أستطيع إنقاذهم. وإذا لم أقتلهم أنا، فإن الآخرين سيقتلونهم، فلماذا أضحي بنفسي بلا فائدة إذاً؟ إن كلاً من صوت العقل وصوت الضمير يطلب مني أن أفعل شيئاً مختلفاً. إنني أملك صوتاً واحداً فقط، وهو صوت لا يستطيع أن يفعل أو يقول شيئاً، ولكن عليه أن يتخذ قراراً حاسماً.

جعل يمشي في الشارع الخرب دون علم منه، يتسلق الأشجار ويدوس بأقدامه واجهات المنازل المليئة بالبثور والقروح والتي سقطت على الرصيف دون أن تتصدع. لم يكن يعرف إلى أين يتجه، فرفع يديه

حتى لامستا الأبواب ومسكات الأبواب الموصدة بأسافين من أعواد الشجر، وراح يتلمس أوراق الشجر الباردة والناميات الفطرية التي شطأت من أعشاش ماحلة بعد أن حطم القصف المدفعي معظم أجزاء القرية وهشمها إرباً إرباً، وراح يمسك بالثياب المبللة وبورق الجدران والحوائج الشخصية. لا، طفق يقول لنفسه متفكراً وهو يرجع إلى الخلف، لقد اتخذوا قراري بالنيابة عني. لقد أرسلت القيادة العليا ثلاث برقيات، وأوامري مسجلة عليها. أخذت الجرذان، وهي تفقد شجاعتها للحظة من الزمان، تفر بعيداً عنه عند دنوه منها، وعيونها الحمراء تومض من بين عوارض الخشب البعيدة وهو يمر بها. ألا أستطيع تركهم يهربون؟ لم يستطع أن يجد تعليلاً لهذا السؤال على الإطلاق. وبالإضافة إلى ذلك، لن يصل أحد منهم إلى وطنه في نهاية الأمر. لن يتمكنوا من اجتياز خط الجبهة. سوف يلقى القبض عليهم واحداً بعد آخر ويعذبون حتى الموت من قبل جنودي. ومع ذلك ستتوفر لهم إمكانية العودة إلى وطنهم إذا سلّحتهم بالبنادق وأطلقت سراحهم. هل سيتقبلون البنادق مني؟ هل أستطيع أن ألتمس لهم العفو لدى القيادة العليا؟ لا، فلقد كانت حملاتي العسكرية ناجحة جداً. إنهم سيرفضون التماسي بغرض إذلالي وخزيي. لعلهم لا يريدون كسب الحرب بهذه الوتيرة السريعة التي يبدو لهم أنني أسير بها. وقد يجعلون من إذلالي حملة دعائية صالحة بالنسبة لهم، فهم على أية حال يعتقدون أن شعبيتي تزداد كثيراً، وقوتي تزداد كثيراً أيضاً. إنهم لا يثقون بي الآن بمقدار ما كانوا يثقون بي في الماضي. إنهم يعتقدون أنني قد أقوم بعصيان عسكري.

ضاع الجنرال، بعد أن انحرف عن الشارع الرئيسي، وراح يطأ بقدميه هشيم الزجاج في ظلمة الليل البهيم. وبعد أن رفع يده، وضعها قريباً جداً من عينيه، ولكنه لم يستطع رؤيتها، كأنه فقد بصره. راح يتجول خبط عشواء بين الخرائب، يتلمس دربه إلى الأمام بقدميه ويديه،

تنال من جسمه الأشواك والشظايا تجريحاً وخدشاً.

- ماذا أستطيع أن أعمل؟

- لا شيء.

- ماذا أستطيع أن أعمل؟ راح يصيح بصوت مرتفع.

- لاشيء، أجابه صوت حقيقي، ند من بين شفتيه. مارت كومة من الدبش والزجاج تحت قدميه، فجعلته ينزلق، ويهوي على جنبيه فيما كان الزجاج يغور ويستقر على أرض أخرى. أوقعت دعامة خشبية كشطاً على طول ساقه، فهوى إلى الأرض وروائح العفن والرطوبة تخرق منخريه. جعله الألم المبرح يبسط ساعده، واعتراه إحساس بأن العفن والرطوبة شكلا رأس حربة وقناة في داخله. فارق الألم ذراعه. سقط إلى القبو واستقر جسمه على تلك الذراع بالذات، فتساقط معه الحطب والجص والآجر والتراب والعظام. دوى صوت سقوطه في كل الأرجاء، ولكنه لبث مستلقياً هناك لمدة طويلة كما خُيِّل إليه، وراحت إحدى يديه تتحرى المكان للتأكد من أنه موجود فوق أرض صلبة.

تململ فأر، ثم تخلى عما كان يقضمه وأقبل نحو الجنرال، فتوقف - ثم فر بعيداً يصر من الخيبة، وكأنه عرف في الحال أن الجنرال قد نزع مسدسه وصوبه إلى عينيه. الحرية الكاملة، طفق الجنرال يفكر، تعني الألم الدفين. إن لدي فرصة سانحة في اتخاذ قرار هام وخطير، وهو ما يعطيني من الحرية فوق ما أحمل وأطيق. شعر وكأن دماءه كلها كانت تجري وتفارق جسده. أغمض عينيه، فشاهد من وراء حجاب النوم، في لجة الظلام الدامس الأكبر والأكثر طمأنينة، صورة البطل الغورشيكي الميت بكل تفاصيلها وألوانها تتدلى قرب باب مكتبه. طبعاً، قال مفكراً وقد خطرت له خاطرة، لكم ذلك واضح، وكم من الغريب أنني لم ألحظ ذلك من قبل. كنت أعرف أن الوجه مألوف لي، إنه وجه كوندال! إنه

الضابط الذي سيحتل مركزي: ضابط متحجر القلب، مطواع، وذو حظوة. فُتح أحد الأبواب وتربع النور فوق أكوام الدبش. وفي قلب هذا النور وقف كوندال.

لم يكن الجنرال يريد رؤية أي شيء، وحاول أن يتجاهل مدخل الباب المضاء، كأنه لا يرغب تصديق ما كان يشاهده من خلال الهوة الظلماء التي ينام فيها نوم الأموات. تحرك تمثال كوندال، ولكن الجنرال لم يعرف ما إذا كان قد رفع إحدى يديه أم حول رأسه. كل ما عرفه هو أنه تحرك، لأنه لاحظ أن جزءاً من الظلال يغير اتجاهه ثم يستقر. إنه يريد أن يخبرني بان أفراد الفرقة الموسيقية في الحظيرة، ينتظرون الذبح. أخذ كوندال يراوح بقدميه بطريقة مهذبة لكي يلفت الانتباه.

- حسناً؟ قال الجنرال، ماذا تريد؟ لقد جاؤوا يقطعونني إرباً. لماذا بلغ كوندال هذه الدرجة من طول القامة؟

- الأسرى، يا سيدي. طلبت مني تذكيرك بهم. تقدم من مدخل الباب ووقف على مقربة من الجنرال ثم سأل: هل سيرمى الأسرى بالرصاص؟

نفض الجنرال الدماء التي سالت فوق عينيه. نعم، ارمهم بالرصاص. راح يزمجر. هل تسمعني؟ ارمهم. أخذ يلوح بيده، وكانت الزجاجة المليئة قد سقطت عليه بكل تأكيد لأن كمَّ سترته كان مبللاً. تسرب بعض السائل إلى ركبتيه، ونزَّ عبر ثيابه إلى جلدة جسمه حتى صار كثيفاً مثل الوحل. ارمهم بالرصاص الآن، صاح الجنرال. هذه الدقيقة. هل تسمعني؟ راحت قسمات عينيه المشوهتين تنظران إلى وجه الضابط الذي ابتعد عنه وغاب عن الأنظار. أخذ الجنرال يضرب قبضة يده المشدودة باتجاهه.

أخذت أصوات سير الجنود الرتيبة المنتظمة تنفذ إلى مسامعه،

فراح يصغي لها بإمعان عندما لاحظ أنها تقترب منه، ويكتشف بالتدريج أصواتاً أخرى تحف بها وتؤطرها. كان هذا السير المنتظم يمهد الطريق عبر كل شيء حوله، حتى أخذت نعال الجنود تطأ الأرض بأنغام مطردة على مقربة منه. لابد أنهم توقفوا عند الحظيرة، امتثالاً لصيحات كوندال الغاضبة، فراح الجنرال ينصت باهتمام خاص. داهمه شيء من انعدام العواطف، ولكنه شعر بأن ذلك مريح له، فلم يرغب بمقاطعته. اختلط وقع الأقدام بكل حماسة مع ضربات الأيدي الخفيفة على البنادق امتثالاً لأوامر كوندال، ولاحظ الجنرال قطرات من المطر تتساقط وريحاً باردة تندفع إلى داخل قبوه مما جعله يرتجف ويرتعش، ويعجز عن الحركة، فيما تتشبث يداه بقطع الآجر والدبش المبعثرة من حوله. خشي أن يصاب عقله بالجفاف في مثل هذه اللحظة: فقد أحس الجنرال أنه يسمع صوت احتكاكه بالأرض وصوت صرير المزاليج. أما كلمات كوندال الصاخبة المرتفعة فلم يستطع تمييزها لأنه كان على مسافة بعيدة منه، فضلاً عن أنها غرقت بغتة في لجة صيحات الذعر والتحدي ولم تعد تسمع. طفق الجنرال يبتهل أن يتوقف هذا الصياح، ولكنه تواصل مثل ورم مستفحل لا يرحم. دقت ساعة حائط عشر دقات متوالية وعند كل دقة كانت أصابع يده تنكمش وتسترخي، وتتجرّح بين هشيم الحجارة والخشب. حاول أن يكف مقلتيه عن نظرتهما المحدقة الثابتة. لماذا لا يهوّنون على أنفسهم؟ سأل الجنرال. صيحات الأفراد صارت صيحة واحدة بسبب صخب الاضطراب والتحدي الهادر اللجب، كما تعالت صيحات الجنود أيضاً. ماذا أستطيع أن أفعل؟ أخذ يتساءل محتاراً، ولكنه ما لبث أن عاد إلى حالته السلبية، كملجأ أخير أشبه برحم الأم بالنسبة لقائد مهزوم. بدأ أحد الرجال يركض وأعقب ذلك على الفور أمر يطالبه بالتوقف، فغار وقع أقدامه في لجة الصخب المتصاعد. وبصوت صادر عن غور سحيق، انطلقت أول رصاصة، فتردد دويها في

كل أرجاء القرية، وقبل أن يغيب ذلك الصوت راح وابل من الرصاص ينهمر على الحظيرة مثل غارات الرعد. أخذت ومضات اللمع تخترق عيون الجنرال المحدّقة، ورشقات الرصاص تَخِزُّ مخه الأجوف حتى عادت إليه أفكاره ووساوسه. اخترقت الانفجارات والاهتزازات الأرض من تحته وتشبثت فيها،بينما راحت العيارات النارية تتراقص من حوله تراقص الأقدام في نشوة وحماسة، وتغمره على صورة عباءة مخيفة متوعدة، وهي تنطلق بدويها حتى تبلغ أطراف المعمورة الأربعة.أخذ يرتعش ويمسح قطرات المطر عن معصم يده :ثم ندّت عن الفرقة الموسيقية صرخة أقوى من كل ما سبق فجعلته يرجو أن تكون آخر الصرخات، غير أن الصراخ استمر مدة طويلة، بصورة توهينية بطيئة أجبرته على الجلوس ويداه على أذنيه، وعيناه لا تزالان مغمضتين، وهو يرجو أن يتوقف هدير العيارات النارية ويرجو أن تموت الولاول التي تحدثها وتدفن تحت الثرى.

استيقظ من نومه وأحلامه. تمكن من سماع صوت رجل مخمور يشكو وينتحب في شارع آخر.أين أنا؟ لقد خلع الألم أنشوطة ملتهبة على الجانب الأيسر منه وراح يشدها ويشدها، كما كان قضيبه المغمور بالدماء نقطة علام عن مركز الوسط والجاذبية في جسده. نهض على قدميه وراح يتلوى في مشيته على مهل، حتى وصل مقابل بيت سلم القبو وأحس بريح باردة تجري بقوة كأنها تخرج من فوهة قمع من باب مفتوح في سقف السلم فوقه. راح، وهو يتلمس بأنامله الزاوية القائمة لكل درجة من درجات السلم، يكنس الزجاج المزحلق والإسمنت، فوطد هذا العمل صحوة ذهنه المستيقظ وساعده على الصعود إلى الخرائب والهواء الطلق.كانت المنطقة تضاء بصورة مستمرة تقريباً بنيران القنابل، فتعرف من نور وميضها على الاتجاه الذي ضل طريقه عنه، وسلطت صليات المدفعية اللاحقة النور على خط طريقه إلى البيت. عادت النجوم إلى

الظهور في السماء، لترسل أشعتها عبر النوافذ المعزولة، وتبدي للعيان صورة جدار عال وحيد ظل قائماً بالمصادفة على حاله، وكأنه دعامة مؤقتة تحمل السماء. عَبَر الطريق وهو يشدِّد قبضته على ذراعه ثم راح يتعثر على سلم الشرفة. جعلته وخزة ألم مفاجئة يتأوه، فقد كانت وخزة بالغة الشدة بحيث أن توهمه من أنها لن تفارقه أبداً دفعه إلى شفير مطل ذهني غير مستكشف تنعدم فيه الأنفة: فكبح هذا التوهم بصمت، حتى خفت الوخزة واضمحلت، عاد إلى مائدة الشراب، فملأ كأسه وشربه، ثم ملأه مرات ومرات، كأنما هو غنيمة حرب، والعدو يوشك أن ينتزعه من بين أنامله.

– بعد ساعة من ذلك، وبعد أن ضمد جراحه، التقى كوندال في الطريق أمام المنزل. «لقد تأخرت» عاجله الجنرال في الكلام. «إنك في الطريق لسؤالي عن الفرقة الموسيقية، كما طلبت منك ذلك، ولكنك كان يجب أن تحضر قبل ساعة».

– هز كوندال رأسه بالموافقة ثم قال: «نعم، يا سيدي، ولكنّ ما منعني هو نشوب عصيان عسكري. لقد رفضت سرية من الكتيبة /198/ الصعود إلى الشعب الجبلي، ولكنهم ذهبوا الآن يا سيدي».

– كم هو كفؤ، وكم هو عديم القلب والشفقة، أخذ الجنرال يعلق بعد تفكير. إذاً هذا هو ما كان يجري في الحظيرة. توجه بعد ذلك بالسؤال التالي إلى كوندال: «هل عندك نوع من الثقة بنجاح مخططاتي»؟ انتظر الجنرال جواباً مصدقاً توكيدياً بنبرة صوت قويمة، ثم استطرد يقول بلغة نصوص الكتب الرسمية التي كان كوندال يحبها: «أعتقد أنك كنت في حيرة خلال الأيام القليلة الماضية حول تلكؤي في قتل الأسرى الموجودين في الحظيرة، أليس كذلك؟ لا بأس، وقد حان الوقت لأن تعرف الآن، أن عندي سبباً مسوغاً لكل شيء، وأسبابي

المسوغة لعدم قتلهم، على الرغم من أن القيادة العليا أمرتني بقتلهم، أسباب بالغة الأهمية والشأن، لأن لها صلة بهجوم الربيع القادم. لقد عزمت خلال الأيام القليلة الماضية على إرسال مجموعة من الجواسيس إلى الجبل لموافاتي بالمعلومات عن التحركات في الشعب الجبلي. سيكون عددهم زهاء مئة رجل، والأوامر الصادرة لهم ستقضي بالبقاء جنباً إلى جنب عند الوصول إلى السهل، بحيث يجد العدو أن تعقبهم إلى الأسفل فوق طاقة شرطته العسكرية، ويضطر للشروع بحملة عسكرية صغيرة للقيام بذلك العمل، وعندما يتم تطويق جواسيسي المئة، سيتمكنون من الاتصال معي لاسلكياً وإعلامي عن حجم القوات التي أرسلت ضدهم قبل أن يبادوا جميعاً. إنني أريد أن أعرف إلى أي مدى تم تعزيز قوات العدو على ذلك القطاع من الجبهة والتحقق من صحة المعلومات التي وردت عن وجود تعزيزات قوية لوحداتهم هناك. اسمع الآن، يا كوندال، وانتبه: لقد رتبت قبل بضعة أيام أن يقع أحد رجالنا بطريق المصادفة في الأسر، وفي جيوبه أوراق تحدد موعد ومحور عبور الجواسيس المعتمد. العدو سيتصور أنني أخدعه، ولكنه سيشدد الحراسة على المنطقة بأية حال من الأحوال، والمنطقة عالية جداً بصورة طبيعية بحيث لا يمكن سوى تسيير الدوريات فيها. ما سيذهلهم هو أنهم سيرون رجالاً يتقدمون نحوهم وينادون بأنهم من بني قومهم، وأنهم ليسوا إلا أفراد فرقة سيمفونية أسرت في الآونة الأخيرة من قبلنا نحن الغورشيك. سوف يرمونهم بالرصاص طبعاً. وبعد يومين من ذلك يصعد جواسيسي الحقيقيون، في وقت لا يتوقع أحد قدومهم، وعندما تكون المنطقة خلواً إلا من الدوريات».

- كان من المتعذر تماماً رؤية عيون كوندال في الظلام الدامس، ولكنه قال بلهجة هازلة: «إنني أفهم سيادتكم تمام الفهم. وسيكون هذا مفاجأة كبيرة للفرقة الموسيقية».

- «ستكون مفاجأة تجعلهم يعتقدون بأنني أمنحهم في الواقع فرصة للنجاة، ولا يشكون بخديعتي»، استطرد الجنرال، وهو على إدراك تام بأن كوندال شغل تفكيره كثيراً بخطته، إنني سأزوّدهم بالبنادق والذخائر والأطعمة، سأعطيهم مصوراً، وأوجههم إلى كيفية الوصول إلى المكان الذي ينتظرهم العدو به في الجبال.

- هز كوندال رأسه بالموافقة مرة أخرى، وعرف بسرعة خاطفة ما يجب أن يفعله. «سآخذ عدداً من الجنود مباشرة لجمع البنادق والمؤن إذاً، يا سيدي». سار كوندال بعد ذلك نحو مقر الحراس.

- سيكون الأمر أشد صعوبة إذا حاولت خداع القيادة العليا وبلفها، طفق الجنرال يفكر. لقد خطوت الخطوة الأولى. وقف لحظات يتأمل ويمحص التفكير في الظلام، ثم شق طريقه في العراء نحو الحظيرة.

- دخل جنديان يحرسان الباب إلى الحظيرة معه، كان القسم الأكبر من أفراد الفرقة نائمين: ومرد ذلك أنه لم يرسل وقوداً لإنارة المصابيح خلال اليومين الفائتين، وأنهم من أصحاب الطباع الغريبة الذين لا يستطيعون الجلوس وتبادل الأحاديث ساعات وساعات في الظلام الدامس على شاكلة جنوده. كانوا يكرهون العتمة التي لا يستطيعون رؤية وجوه بعضهم بعضاً فيها، وكان لابد لهم من رؤية وجه الرجل قبل التمكن من قراءة أفكاره. هل يا ترى قرأ كوندال أفكاري؟ تساءل الجنرال في عجب.

- هبّ إيفارت واقفاً تملأ قلبه الفرحة لأنه مُنع من نوم كان جافيه ويأبى مراودته. وعند مشاهدة الجنرال عرف أن قراراً ما قد اتخذ في النهاية. لماذا يجب أن يفعلوها في الليل، لا في الصباح؟ راح يتساءل في عجب. إن قتل المرء عند الفجر، حين ينعم الناس بقدر أكبر

من الشجاعة، أقل وحشية وقسوة. بسط الجنرال مصوراً وهو يتقدم باتجاه إيفارت.

– «لقد رسمت خطاً يتعين عليك وعلى أفراد فرقتك سلوكه، وإذا واتاكم الحظ ستبلغون قمم الجبال خلال يومي»ن، قال الجنرال وهو يبتسم، مع أنه لم يكن يحس شيئاً من السعادة أو الابتهاج بهذا الابتسام. سأل نفسه مرة أخرى عما يدفعه لإطلاق سراحهم ولكنه لم يستطع الإجابة، غير أنه كان يعرف حق المعرفة عدم وجود بديل آخر، وأنه حتى بعد ذهابهم لن يندم على ما يزمع القيام به. الفكرة الهادية الوحيدة التي جالت في ذهنه: هذا تصرف متعصب أرعن – وبما أن نتيجة السير بهذا التفكير إلى نهايته المنطقية تعني التوقف عن العمل والتصرف نهائياً فقد استأنف إعطاء توجيهاته لإيفارت، قائد الفرقة الموسيقية الذي بدأ في تلك اللحظة فقط يدرك ويتأكد أن الجنرال كان يعني بالفعل ما يقول.

– دخل كوندال مع عدد من الجنود يحملون البنادق والمؤن، ولكن أفراد الفرقة، برغم معرفتهم أيضاً بما كان يجري، وقفوا في أرجاء الحظيرة صامتين واجمين.

– «هاكم البنادق، والذخائر، والأطعمة»، قال الجنرال بصوت خفيض. «انظروا إلى هذا المصور» – فأخذ إيفارت يقرأه من فوق كتف الجنرال – «أعبروا خط سكة الحديد وشقوا طريقكم شمالاً. تمركزوا عند النقطة /504/، ثم حولوا طريقكم بزاوية تسعين درجة نحو نجم القطب لتجتازوا الطريق العام على يسار الغابة. وعندما تصلون إلى النهر، سيروا على عكس مجرى مياهه ولا تعبروه حتى تصلوا إلى مخاضة تجعلكم في منأى عن أشجار الغابة. ناقشوا أمركم هناك، وأسلكوا الدرب الوعر الذي يمر بين السمتين /1097/ و/644/. ابقوا معاً وسيروا دون أي صخب. إن محور سيركم هو التخوم الفاصلة بين

لواءين عسكريين ولا تراعى فيها الحراسة جيداً. سوف أوجه أمراً لستاري الجناح في كل من هذين اللواءين في الانسحاب إلى الوسط، وأوجه أمراً للمدفعية بعدم إطلاق النار في ذلك القطاع. الخطر الوحيد عليكم هو عند الوصول إلى خطوط التماس والمخافر الأمامية لجنودكم: وهذا أمر أترك تدبيره لكم وحدكم».

- «الشيء الوحيد هو أننا لا نحتاج إلى بنادق»، قال له إيفارت.

- كان الجنرال يتوقع من إيفارت طرح هذا الشرط وقال له: «إنني أخالفك الرأي، فأكبر الظن أنكم ستحتاجونها وإذا رفضتم حمل الأسلحة، سأمنع عنكم الأطعمة والمصور أيضاً».

- «وماذا عن أدواتنا الموسيقية»؟

- «تبقى في الحظيرة».

- صرف كوندال الجنود وقدم أول بندقية وجعبة لآرمغاردسن، الذي علقهما على كتفه وبدأ يملأ جيوبه بالخبز. ارتدى بعد ذلك معطفه بالمقلوب وثبته على الخصر بقطعة حبل. قبل كل من شيلتر، وفيكادي، وستارنبرغ وبندر استلام البنادق أيضاً، إلى أن تم تسليح كافة أفراد الفرقة، وأغلبيتهم تسلحوا عن رغبة واقتناع، بينما تسلح بعضهم على غير رضا، وتسلح نفر قليل منهم دون اكتراث أو مبالاة. أبدى آرمغاردسن اهتماماً كبيراً ببندقيته، إذ راح يفحصها من حمالتها إلى فوهتها، بأسلوب ونَفَس حداد متمرس، ومر بيده على أخمصها الخشبي، ثم رفع منظارها وأخذ يسدد على زاوية الحظيرة البعيدة، ويملأ المخزن إلى أقصى طاقته الاستيعابية بالعيارات. «ها أخيراً»، راح يصرخ من بين أسنانه. «أخيراً»!

- وفي نهاية الأمر، تناول إيفارت بندقيته. ثم راح على غير وعي

منه يصفر مقطعاً من نشيد وطني، حتى سمع من ينادي ستارنبرغ إلى الخارج؛ فأخذ الجنرال يراقبهم وهم يتوارون في الظلام بكل صمت واحداً بعد الآخر.

صاروا على مسافة لا بأس بها من الحظيرة، يمشون فوق التراب الطري الرطيب متوجهين جهة الغرب وهيكل القرية القاتم على يمينهم. هبت عليهم ريح باردة من الجبال، كأنها تعمل على إعاقة سيرهم في ذلك الاتجاه. أحس إيفارت أن خريفاً أصيلاً قد حط رحاله آخر الأمر على الأرض المخضلة الصعبة المسالك، لأنه حتى في غمرة الظلام الدامس والخطر الداهم هذه حرك أشواقه وحنينه وذكّره بفصول خريف أخرى في مناطق بعيدة نائية، فالعبق الواحد، ورطوبة التربة وفوح الرطوبة، كانت كلها تشبع الجو بكثافة شديدة، مما جعله يجد نفسه أسير جيش لجب من الذكريات التي أعادها إلى ذهنه.

توقف عن المسير، وأشار للآخرين بالبقاء سوية، وفي غمرة الصمت سمعوا صوت طلقة نارية واحدة من الحظيرة. لبث في مكانه لحظة، كأنه يريد التأكد مما سمعه، وإذا بطلقة نارية ثانية تدوي دوياً مكتوماً، كأنها تؤكد صحة الطلقة الأولى. تابع بعد ذلك سيره متأبطاً ذلك الحمل الغريب على طبعه، ألا وهو البندقية الملقمة، وحملاً مألوفاً آخر لم يستطع حتى الآن إعطاء تسمية له.

الفصل الثالث عشر

بعد عدة ساعات تحت الألواح الخشبية لمبنى ذرته الرياح، تم ربط القاطرات المكشوفة المكتظة بالمساجين إلى أحد القطارات وراحت تتدحرج على مهل باتجاه الغرب. تعالت همهمات الفرج والخلاص من المساجين الجياع شبه العراة، مشفوعة بتصادم السلاسل الصاخب فيما جلس المساجين منتصبين لمعرفة وجهة سفرهم. راح القطار يجتاز أرضاً ممهدة خلل مصانع الصلب والفولاذ الهادرة، ومصانع العتاد الحربي، ناجياً بأعجوبة من خطوط السكة الصدئة المليئة بالأعشاب، ليدخل بعد ذلك بين منطقتين سكنيتين بيوتهما من طابق واحد. كان يتصدر كلاً من هاتين الوحدتين السكنيتين، اللتين كانت الواحدة منهما تستوعب مئة ألف ساكن في الماضي، ويهيمن عليها مبنى حكومي إداري شاهق نزعت عنه الأعلام الوطنية. كانت النوافذ مغلقة بألواح الخشب المدهونة بمادة الكريوسوت (القطران المقطر) لصيانتها، كما كانت مداخل الأبواب مسدودة بالسرخس والورق، عرضةً للاشتعال والتهام كافة المباني الواقعة على مدى الرؤية، هذا إذا تعذر وجود المواد المتفجرة الكافية لتدميرها

عن بكرة أبيها. ووقفت مجموعات ممن أصاب العمى بصيرتهم في بكم كامل إلى جانب السكة يراقبون مرور القطار الطويل.

- عما قريب، قال الجنرال متفكراً، وبعد أن فتحت آخر حوافِ المدينة المهلهلة المجال أمام سهل خصيب أخضر، سوف يتم إخلاء كل هذه المنشآت الآلية، وقطع الصلة مع كل هذه المباني؛ إذْ إنهم سيجمعون زهاء مئة مليون نسمة داخل نطاق كبير في أطراف القارة على أمل الصمود هناك، للوثوب في وقت لاحق وثبة النمور من جديد. لقد تعرض قطاعه من الجبهة، منذ وقوع المحاكمة وحتى الآن، لضربة هجوم مضاد بكامل عدته وعتاده، فانهار شر انهيار. كما أن شبكة أعماله التحضيرية المعقدة لم تجد لها مرتعاً في تلافيف المخ الأخرق لذلك الآمر الذي حل محله إبان اعتقاله. فقد حطمت الجيوش المعادية أعماله الدفاعية في نفس النقطة التي أعتزم الانطلاق منها: إذ تهاوت الأرض فوق كتيبتي المدى الرابضتين وخنقتهما في مواقع تربصهما تحت الأرض؛ كما تدفقت المياه على مواد التموين المستورة، إضافة إلى أن النيران عرفت طريقها السليم إلى مخابىء مستودعات المواد المتفجرة السرية. لقد كان ذلك الهجوم ضربة شتوية قذرة شنها بدافع الحرص والاقتصاد عدو يضن ضناً منقطع النظير بكل ساعة ويوم من ساعات وأيام أية نفس حية يملك أمرها. لقد أحدث الجرح الذي أوقعه العدو في سلسلة الجبال انقساماً في الرأي لدى نظام الحكم؛ بين فريق يريد دفع كافة الجيوش المؤهلة المتاحة لسد تلك الثغرة المسفوعة الدامية، وفريق آخر يريد الانسحاب إلى خط حصين منيع من الجبال والأنهار الكبيرة في الشمال والغرب.

وجه له الجنود أمراً لكي يخفض رأسه في العربة، ولكنهم على الرغم من امتثاله للأمر بصورة آلية، أعقبوه بوابل من الحجارة، أصاب بعض منها وجهه وذراعه، مما جعله يرتج ويتقلب على جنبي مؤخرته

فوق أرض العربة الحديدية. ولما لم يعد بمقدوره النظر إلى مناظر الطبيعة، رفع رأسه إلى السماء الرمادية حيث أخذت لفائف الضباب تتكاثف وتزداد حلكة، مبشرة بسقوط المطر. وعندما جلس على أرض القاطرة الخشنة المزعجة، والمكتظة بغيره من المنفيين، طرقت ذاكرته أيام محاكمته المرهقة المملة. لقد رفع الضباط الذين حضروا معه وسمعوا الحفلة السيمفونية تقريراً عن إرجاء المذبحة إلى القيادة العليا، وشهدوا أمام المحكمة عن كيفية اختفاء الفرقة، مدعين أنهم إنما حضروا الحفل لأن الجنرال طلب ذلك منهم ممارساً سلطة رتبته العسكرية. ثم جاءت قضية موت كوندال. لقد حاولوا إثبات جنونه، مدّعين أنه أطلق النار مرتين على وجه كوندال وهو لا يعرف ماذا يفعل، وأنه إنما اقترف تلك الجريمة النكراء عن دوافع ونزوات داخلية، في فترة أصابه فيها الارتكاس من الجهد المرهق الذي بذله في عملية الهجوم الأخيرة. غير أنه قتل كوندال عامداً متعمداً، وليس هناك أي مجال لتحوير الكلمات وجعل الحادث حادث قضاء وقدر. لقد بذلوا قبل المحاكمة كل جهد ممكن لدفعه إلى الجنون لكي يثبتوا وجهة نظرهم، غير أن عقله كان قد اكتسب شيئاً من المرونة من خلال الصراعات التي دارت فيه حول مشكلة الفرقة الموسيقية، ولذلك لم يفلح الضباط في تحقيق ذلك العرض. لقد استطاع أن يثبت للجميع سلامة عقله من البداية وحتى النهاية.

كان الجو بارداً، رطيباً وقارصاً؛ فراح الجنرال يرتعش في باكورة الصباح، أما بقية المساجين فجلسوا دون أن تظهر أية سمة معبرة في عيونهم، تلف بهم البدلات المصنوعة من قماش الأكياس، وقد تجمدت وجوههم من البرد، واقتصرت تسليتهم الوحيدة على حك الجلد المتقرح تحت الأصفاد الثقيلة. كان الحراس بمعاطفهم الفضفاضة، وفرواتهم وقبعاتهم، يقفون في كل زاوية من زوايا القاطرة، مصوبين رشاشاتهم على المساجين، ويطلقون بصورة مباغتة صيحات الكلام فيما بينهم، وهم

يعلقون بين تارة وأخرى على بعض المعالم المعروفة التي يمر القطار بها. هكذا أقيم الدليل ضدي، وكانت لائحة الاتهام طويلة جداً حتى أنني لم أعد أفهم ما كانوا يطرحونه في آخر أيام المحاكمة. طفق يضحك ويقول في نفسه: لقد حاولوا إذلالي عن طريق حشو وتبطين قرار إثبات التهمة بعبارات مهينة وقحة، ولكنني بعد إطلاق سراح الفرقة الموسيقية ومصرع كوندال، لم أعد أتأثر أو آبه لأي شيء. لقد سألوني: هل أنت مذنب؟ وأجبتهم: لا، لست مذنباً. أصيبوا بالذهول، لأنهم كانوا يتوقعون أن أقول: نعم، إني مذنب، وأن أخبرهم سبب ذنبي وجريمتي، فغمرتني السعادة والبهجة عند رؤية هول استغرابهم وذهولهم. كانت تلك أول مرة أشعر فيها بالسعادة منذ أمد بعيد، فلقد أصيب الجميع بالحيرة إلا أنا. غير أن عليهم أن يسألوني الآن من جديد فيما إذا كنت مذنباً أو غير مذنب. إن السجين لا يستطيع إلا بعد المحاكمة أن يجيب عن مثل هذا السؤال - مادام كل شيء يقال لابد أن يؤخذ بعين الجد والاعتبار.

توقف القطار بعد ارتجاج وحط رحاله في ظل بعض الأشجار. وما أن بدأ الحراس يتساءلون عن أسباب توقفه، حتى تحرك حركة مفاجئة وسار بهم قدماً من جديد. بدأت الريح تغير اتجاهها، وراح دخان المحرك الآن يلتف فوق عربة الركاب مباشرة. وغير الجنرال من جلسته في ذلك الوضع المزعج كالدابة المزروبة، ولكنه وهو يفعل ذلك وكز بمرفقه الرجل الجالس إلى جانبه، فراح الرجل ينخر كالخنزير مهدداً ومتوعداً مما جعله يعود إلى مكانه الأول. جلس بوجه كالح ينظر إلى نقرة حليقة لرأس رجل آخر. ذكره ذلك بطبيعته الحيوانية فتوترت قسمات وجهه وإحليله ودب فيهما النشاط ضد الألم الذي أوقعته الحجارة. ولما كان محروماً من الطعام المشبع الكافي، فقد صار شديد الحساسية للألم، ولكل شيء سواه. وفي سبيل المحافظة على بقائه تملكه شعور بأنه جزيرة، وأنه إنسان معزول مقطوع الصلة بالآخرين من بني جنسه - رغم

أنه يطفو طليقاً فوق بحر كامل منهم - وأنه في كونه جزيرة يشبه مواضع الألم المنتقل في جسمه والتي يتعرض لها من حين إلى حين، والتي كان يعرف أنه - في مراحل انعقادها الشديدة - سيظل يتحملها ويصبر عليها. لا عجب. لقد كانت جريمتي فظيعة في نظرهم، قال يحدث نفسه مفكراً، أما أنا فلن أعترف باقتراف جريمة على الإطلاق. كان نمطان من القصاص يُنزلان بحق الإساءة الموجهة ضد قضية النظام العامة. إن طريقة القصاص الأكثر إنسانية منهما، والمفضلة إلى أبعد الحدود، هي أخذ المذنب ورميه بالرصاص؛ أما القصاص الأشد، وهو ما صدر قرار المحكمة به على الجنرال، فهو النفي المؤبد حتى الموت. لهذا كانت تمر به أحيان من الدهر يندم فيها ندماً طبيعياً على النهاية المفاجئة لسيرته، ويسأل نفسه لماذا شاهد الفرقة الموسيقية، ويلعن نفسه لأنه مغفل عاطفي، ويتمنى لو أنه أرسلهم إلى مقرّ القيادة العليا مباشرة بعد حضورهم مع كوندال من ساحة المعركة. وحتى ذلك كله لم يكن ضرورياً لو أن القطار لم يدخل في نطاق هجومنا؛ تلك التحقيقات التي بينت أن سائقي القطار الذين ساقوه إلى داخل نطاق المعركة كانوا في حالة سكر شديد.

وبينا هو يجتر أفكاره ويتأمل المصير الذي آل إليه، خيل إليه أن صوتاً مألوفاً لديه كان يتردد على تماس مباشر مع ضجيج عجلات القطار، فأراد النهوض لإعطائه مداه المجدي، ولكنه كان يعرف أن الحراس سيأمرونه بالجلوس، هذا إذا تمكن من احتمال وزن أصفاده الثقيلة. لم يستطع وهو في وضع الجلوس أن يسمعه إلا كحفيف ريح تلعب فوق صراعات القطار الطويل المنتقل فوق السكة. ركز تفكيره مرة أخرى كما فعل ذلك ألف مرة حتى الآن على حماقة الفارس الذي قفز داخل قطار الفرقة الموسيقية وأوقفه عن طريق تهديد السائقين بالمسدس. لماذا لم يترك ذلك الفارس القطار يتحطم بدلاً من المغامرة

بحياته التافهة لإيقافه؟ غير أننا، قال يحدث نفسه، لا نملك حولاً أو قوة على تغيير الأوضاع التي تكيف وتحدد حياتنا بصورة لا نعرفها. كل ما نستطيعه هو أن ننتظر ونترقب، في حالة من النسيان، أو من المعاناة الواعدة، نتائج تأثير هذه القوى المحركة المجهولة علينا. لقد كان أكثر الجميع بلادة وغفلاهم أفراد الفرقة الموسيقية أنفسهم. لم يخطر لهم حتى أن يسحبوا حبل الربط لإيقاف القطار والفرار في غمرة الفوضى والاضطراب، لابد أنهم شاهدوا ما كان يجري على الأرض: فالقطار كان يسير في ساحة معركة حربية.

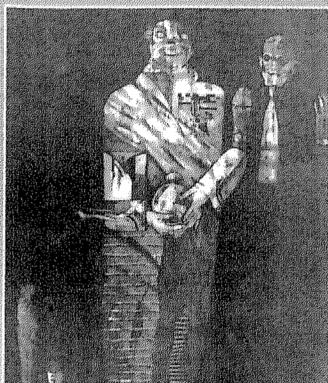
ترامى دوي كهزيم الرعد وارتفع فوق صخب حركة القطار، مثل خفقة من خفقات المخاض في زاوية بعيدة من السماء الجريحة. سمعه الحراس أيضاً، وتبادلوا النظرات فيما بينهم، وتساءلوا عما يمكن أن يكون. توقف القطار بعد ذلك مرة أخرى، فلم يعد ضجيجه يؤثر على حاسة سمع الجنرال.

على الرغم من مساحات البر الشاسعة الواسعة - التي لم يعد الآن يراها مجرد عوائق كبيرة في وجه تحرك الوحدات العسكرية وإنما شيئاً آخر أهم من ذلك - فقد صار يرى العالم كله كنقطة صغيرة جداً في المخ، وكذرة لها من الطاقة ما يؤلف الوعي الكامل لكل شخص. وما الحياة، كما طفق الجنرال يفكر، إلا كزنزانة سجن نلقى فيها بالولادة، وغرفة محدودة القياس نزرب فيها ثم نتحرر منها بالموت. من ذا الذي فرض علينا حكم الحياة هذا؟ لم يتسن لنا قط أي مجال للصراخ والتهجم على القاضي: أنا لم أفعلها، يا سيادة القاضي. أنا بريء! أنا بريء! ولكن علينا أن نعيش حكم الحياة برغم ذلك، ونكبر فيكبر في الواقع حبنا بحيث أننا عندما نواجه حرية الموت الحقيقية ترتعد فرائصنا، ونقعي من الخوف عند الحائط.

تعالت زمازم القصف في الشمال، مقبلة مع اتجاه الريح. لم يسمع

الجنرال هذا الدوي من أمد بعيد، فراح ينصت له بكل إمعان واستطاع أن يحدد أنها مدافع ثقيلة تقصف من مسافة أربعين ميلاً. وعلى الرغم من توقف ضجيج القطار، لم يكن يسمعها إلا في أوقات محددة. كان دويها يرتفع ثم يتلاشى وهي تنطلق فوق الأرض. كان دوي المدافع يحمل رسائل كثيرة ومعانيَ متعددة. قال مبتسماً: إنها تعني الأمل، والفناء والدمار، وربما تعني نمطاً جديداً من أنماط الحياة، وتذكّر بحروب الإنسان الدائبة في سبيل التوسع والحرية. إن الضجيج هو تلك الرسائل السرية التي تسبق التغيير، والتي يفك رمزها التاريخ وحده.

راح القطار يتمايل وهو يمضي قدماً، ولم يعد الجنرال يسمع المدافع إلا في مخيلته. يهطل رذاذ خفيف من السماء. كانت التلال تملأ المنطقة أمامهم، وكان القطار يسير ببطء أكبر قارعاً نواقيسه وهو يصعد أحد المنحنيات. كان من حين إلى حين يسمع رجات القصف الضعيفة: فقد استمر الدوي في التلاشي. ولكنه كان يصل إليه عندما يصيخ السمع بإمعان فقط. راح المطر يضرب وجنتيه فأبعد المعول عن قدميه، وشد الرداء الهزيل حول جسمه في محاولة لدفع البرد والرطوبة عنه.

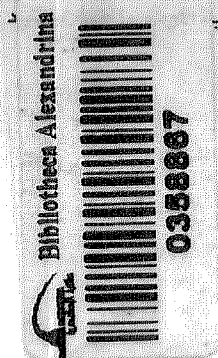


يقول المؤلف: "ليس لدي موضوع في ذهني إلا متعة الكتابة، وعرق (جهد) الكتابة بوضوح وصدق. العمل على محاولة تصوير الناس العاديين كما عرفتهم، والكتابة عنهم بطريقة يستطيعون أن يتعرفوا على أنفسهم فيها... إنني مستغرق في بناء رواياتي... حتى أستطيع أن أكون قارئاً لها بالمعنى النهائي".

وهذه الرواية كلها صراع من نوع ساحر بين قائد الأوركسترا وقائد الجبهة. إنه صراع بين طرفين لا يفهم أحدهما أي شيء عن عمل الآخر ولا يستوعبه. هذا يعرف أن الآخر يحارب. والآخر يعرف أن هذا يعزف الموسيقى. ولكن ما جدوى الموسيقى؟ ويكون الجواب: وما جدوى الحرب؟

ويستمر الحوار الغريب بين الرجلين (من خلال محاولة إقناع الفنان بالعزف لجنود الأعداء) حتى تصل الشفافية أن يقول الجنرال: إن الحرب أيضاً فن راق. وإدارة الجبهة مثل قيادة الفرقة السمفونية. أنت كما قلت لي تعرف أن الآلة الفلانية في اللحظة المناسبة ستنطلق أو ستساهم في العزف. وأنا أعرف أنه في اللحظة المناسبة سينطلق المدفع الفلاني أو الدبابة الفلانية أو تتحرك الكتيبة الفلانية. أنا أيضاً أسمع سمفونية من هنا وأدير أوركسترا.

ولكن الفارق هو أن الجنرال يقود سمفوني[illegible] د سمفونية الحياة.



دار كنعان
للدراسات والنشر